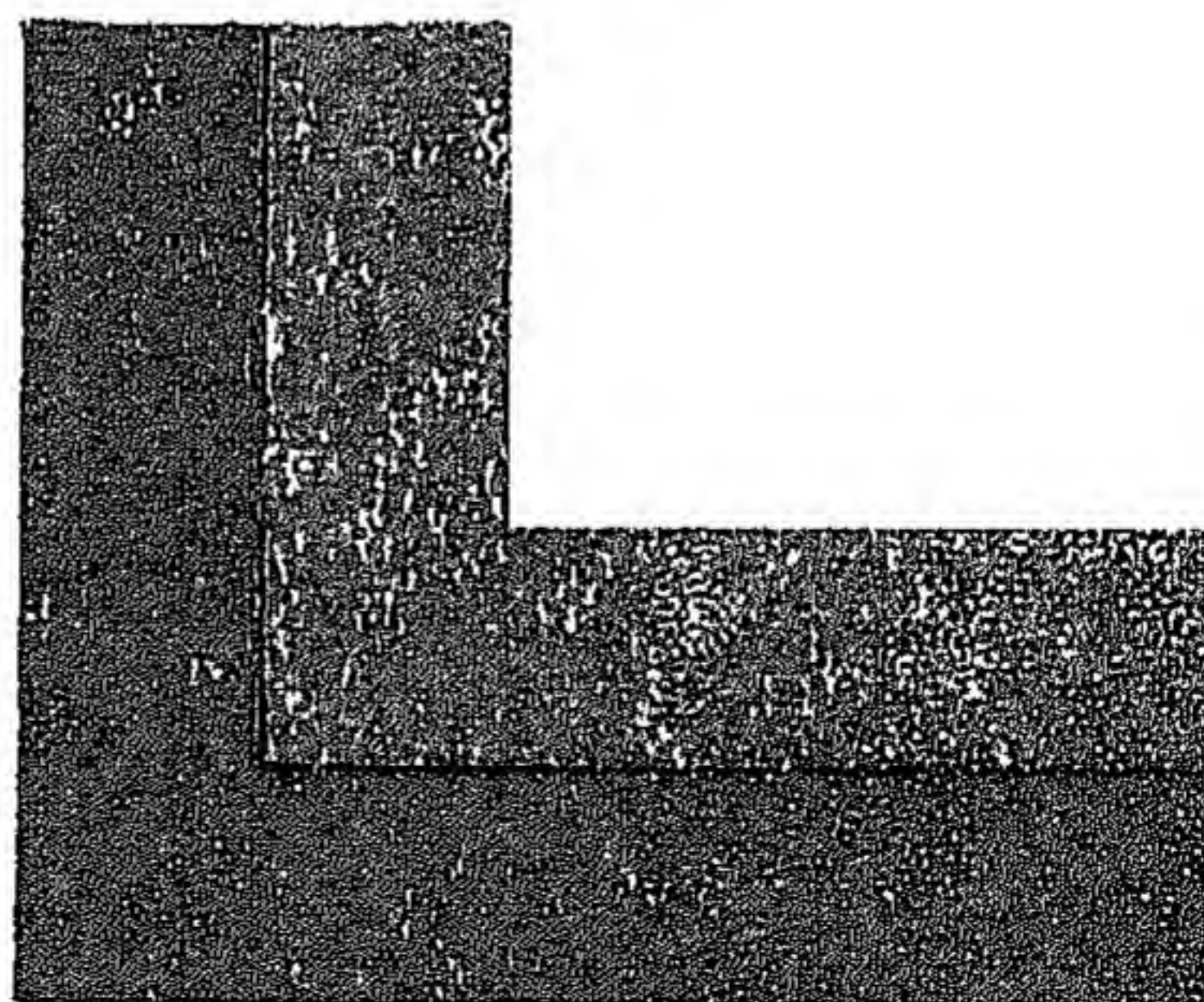


وسائل الترفيه في عصر
سلاطين المماليك
في مصر

لطفى أحمد نصار



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



Bibliotheca Alexandrina

0097901

تاريخ المصريين

(١٤١)

● تاريخ المصريين

رئيس مجلس إدارة:

د. سمير سرهان

رئيس التحرير:

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:

محمود الخزار

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



وسائل الترفيه في عصر بلاطيين المالكة في مصر

لطفي أحمد نصار



المسئمة المسئمة المسئمة للمسئمة

فرع الصحافة

١٩٩٩

الإشراف الفني :

محمود الجزار

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب المهم عن « وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر » ، الذي ألفه الباحث لطفى أحمد نصار ، وهو في الأصل رسالة علمية في التاريخ الاسلامي والوسيط حصل بها صاحبها على درجة الماجستير .

وقد قدم الباحث لدراسته بلمحة سريعة عن بعض وسائل الترفيه التي كانت شائعة قبل عصر المماليك ، لينتقل بعدها الى عصر المماليك محل الدراسة . وقد قسمه الى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : وهو بعنوان « المجالس »

والثاني : بعنوان « الألعاب الرياضية » .

والثالث : بعنوان « الألعاب المنزلية أو الهادئة » .

وبالنسبة للمجالس فقد تحدث فيه عن ثلاثة أنواع من المجالس : مجالس العلم والوعظ والقصص ، ومجالس الأدب والشعر ، ومجالس الشراب والطرب .

أما عن الألعاب الرياضية فقد تحدث فيها عن ألعاب الفروسية والرماية ، وتناول فيها لعبة رياضية مرتبطة بالفروسية تسمى لعبة القبق أو القباق ، ومعناها بالتركية القرعة العسلية ، وقد

أطلق فى العربية على الهدف الذى كان مستعملا فى لعب الرماية ،
والمعروف باسم « القبق » فى عصر المماليك .

كذلك تحدث عن الصيد والقنص ، والرمى بالبندق ، وهو
الكرات الصغيرة من الحجارة أو الطين أو الرصاص أو الفضة أو
الذهب ، التى كانت تطلق بالمزاريق فى رمى الطيور ، ومن هنا
اسم البندقية الحديثة لنفس الغرض كسلاح نارى .

كذلك تناول الباحث فى هذا الباب ألعاب الكرة والسباحة
وغير ذلك من الألعاب مثل سباق الخيل ، والمصارعة ، واللعب
بالطيور ، ورفع الأثقال الذى كان يطلق عليه اسم « المعالجة » ،
والملاكمة أو « اللكام » ، والتحطيب ، ومناقرة الديوك ، وتناطح
الكباش والثيران . .

أما الباب الثالث ، فتناول فيه الباحث ألعاب النرد والشطرنج
ولعب الورق وألعاب الأطفال ، وتناول فى فصل خاص ألعاب
خيال الظل .

والكتاب بذلك يسد نقصا فى المكتبة العربية كانت فى أشد
الحاجة إليه ، وقد رجع فيه الباحث الى أوثق المصادر الأصلية .
وهو جدير بالقراءة .

والله الموفق ،،،

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

تمهيد

لا شك أن الترفيه أمر ضروري للإنسان ، مهما كان موقعه في الحياة ، حاكما كان أو محكوما ، خاصة أن الترفيه باختلاف وسائله يشكل جانبا مهما من جوانب حياة الإنسان حتى يمكن اعتباره الوجه الآخر للعمل كما أنه لا يمكن أن نعتبر كل ترفيه لهوا أو مجونا ، أو مضيعة للوقت كما يتصور البعض ، فإن له جوانب ايجابية متعددة ، خاصة وسائل الترفيه التي تتصل بالفنون والرياضة والفروسية ، وكما قبل : لا تخلو تسلية من فائدة ، كذلك قبل أن شعبا لا يعرف كيف يلعب لا يعرف كيف ينتج .

وبمنظور اسلامي نجد ان الدين الاسلامي دين واقعي يقف من الانسان على أرض الحقيقة والواقع ، ويعامل الناس معاملة تتفق مع بشريتهم ، ولم يفترض فيهم أو يفرض عليهم أن يكون كل كلامهم ذكرا أو كل صمتهم فكرا ، أو كل فراغهم في المسجد ، أو كل سماعهم قرآنا ، بل اعترف بفطريتهم وغرائزهم التي خلقوا عليها ، يفرحون وبمرحون ويضحكون ويلعبون كما يأكلون ويشربون .

وان لكل شعب من الشعوب وسائل الترفيه الخاصة به ، التي يقبل عليها في أوقات الفراغ ، والتي كثيرا ما تتلاءم مع عادات أهله وتتواءم مع أخلاق أديته . ورغم اختلاف هذه الوسائل من حيث

الشكل والمضمون وتبعاً للزمان والمكان ، فانها تتفق عادة من حيث الفرض منها الا وهو تريض العقول والأبدان .

وقد تفنن العرب فى ايجاد الوسائل التى شغلوا بها اوقات فراغهم . فقد كان بعض هذه الوسائل معروفا لديهم فى الجاهلية كمجالس الشعر والأدب ، ومجالس الشراب والطرب ، والصيد والسباق ، بيد أنهم اخذوا عن الشعوب التى احتكوا بها بعد الفتح الاسلامى العديد من وسائل الترفيه الأخرى كاللعب بالكرة والصولجان ، والرمى بالبندق واللعب بالفرد والشطرنج ونحوها .

وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحب السرور وما يجلبه ويكره الحزن وما يدفع اليه ، ويستعيز بالله من شره كما كان يعيش حياته مع الناس بشرا سويا ، يحب الطيبات ، ويبش ويتسم ، ويداعب ويمزح ، ولا يقول الا حقا .

كما شرع عليه السلام ألوانا كثيرة من اللهو وفنوننا من اللعب للمسلمين ترفيهها عنهم ، وترويحاً لهم . وهى مع ذلك فى كثير منها رياضات تدريبهم على معانى القوة وتعددهم لميادين الجهاد فى سبيل الله ، مثال ذلك مسابقة العدو ، فقد كان الصحابة يتسابقون على الأقدام والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقرهم عليه وقد روى أن علياً كرم الله وجهه كان عداء سريع العدو (١) .

كما كان النبي نفسه (صلى الله عليه وسلم) يسابق زوجته عائشة مباسطاً لها وتطيباً لنفسها ، وتعليماً لأصحابه .

ويستنبط الفقهاء أن المسابقة والمصارعة لا تنافى الوقار والشرف والعلم والفضل وعلو السن ، فقد صارع الرسول رجلاً معروفاً بقوة يدعى « ركانة » فصرعه النبي أكثر من مرة . كما

كان يمر على أصحابه فى حلقات الرمى فيشجعهم ويقول : « ارموا وأنا معكم » (٢) وكان يرى عليه السلام أن هذا الرمى ليس هواية أو لهوا فحسب بل يراه نوعا من القوة التى أمر الله بأعدادها ، فكان يأمر أصحابه بالرمى ويعتبره خيرا لهُوهم .

وكان الرسول يهتم بالفروسية ويحث على الركوب ويرى أن الخير معقود بنواصى الخيل . ويتضح من ذلك أن الرسول كان يشجع مثل هذه الرياضات لأنها لهو ورياضة وتدريب واعداد للقوة .

والصيد من اللهو النافع الذى أقره الاسلام فهو متعة ورياضة واكتساب سواء كان عن طريق الآلة كالنبال والرماح أو عن طريق الجوارح كالكلاب والصقور .

كما كان الصحابة يمزحون ويضحكون ويلعبون ويتندرون ، معرفة منهم بحظ النفس ، وتلبية لنداء الفطرة ، وتمكينا للقلوب من حقها فى الراحة واللهو البرىء لتكون أقدر على مواصلة السير فى طريق الجد .

كذلك عرف المسلمون اللعب بالشطرنج والفرد وهى من وسائل الترفيه المعروفة كما مارس المسلمون فنون الغناء والموسيقى فى كل العصور ، وهما من ألوان الترفيه التى تستريح اليها النفوس وتطرب لها القلوب .

وقد أخذ العباسيون نظام مجالس الطرب والغناء التى انتشرت فى عهدهم عن الفرس وكان الرشيد من بين خلفاء بنى العباس الذين جعلوا للمغنين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم أكاسرة الفرس . كما فاق الرشيد غيره من الخلفاء فى تقديره الندماء والمغنين والموسيقيين ، حتى أنه لم يجتمع على باب خليفة من الندماء والمغنين ما اجتمع على بابه .

وكان الأمين بن الرشيد يميل الى سماع الأغاني ويقضى أوقاته في الاستمتاع بضروب اللهو فقد روى الطبري أنه لما خلافة وجه الى جميع البلدان في طلب المهين وضمهم اليه وأج لهم الأرزاق ، كما أمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خاوته ولعبة بقصر الخلد .

وقد كان المأمون — وهو حجة في المسائل العا والفلسفة — يمتنع عن سماع الغناء ثم أخذ يسمعه من وراء حجب كما كان يفعل أبوه الرشيد في أول عهده بالخلافة ، وعندما شد بالغناء دعا الندماء والمغنين الى الجلوس بحضرته ، كما قد اليه اسحق الموصلي ، ورفع من شأنه ، وكذلك فعل مع ابراهيم بن المهدي وكان مبدعا في غنائه .

ولم تكن مكة والمدينة من هذه الناحية بأقل من بغداد ، ان بعض الباحثين يرى أننا لا نسرف اذا قلنا « ان نهضة ال في العراق في اثناء العصر العباسي انما كانت امتدادا لهذه المو التي نفذت الى العراق على أيدي مغني مكة وزملائهم من المدينة .

ويرجع انتشار الغناء في هذا العصر الى كثرة الجوارى وكان معظم الفتيات اللاتي يحترفن الغناء ببغداد في أوائل ال الرابع الهجري من الجوارى وقليل منهن من الحرائر . وكا الجوارى يغنين من وراء ستار ، واذا ما اقيم حفل خاص أراد به اكرام ضيف غنت المغنيات في هذا الحفل أمام الستار .

وبرغم ان الغناء والطرب كان من أهم وسائل الترفيه وأكثر انتشارا على امتداد العصر العباسي ومن قبله العصر الأموي فقد كانت المجالس الخاصة تعقد في داخل المنازل لسماع الحكا

القصيرة من النوادر والأحاديث التي تتجلى فيها الباقية العقلية
ولقضاء أوقات الفراغ في ألعاب هادئة (٣) .

فقد عرف المسلمون الشطرنج في عهد الرشيد وأظهر الخليفة
المأمون بعد قدومه من خراسان إلى بغداد ميلا إليه فاستحضر
كبار لاعبيه وقد كانوا يتوقرون بين يديه حتى ضاق لذلك وقال :
« ان الشطرنج لا يلعب مع الهبة ، قولوا ما تقولون اذا خلوتهم » .

ومن البديهي فان الترفيه ووسائله المتنوعة أمر قائم في كل
حقبة من الحقبة ، ولدى كل شعب من الشعوب لذا تجدر الإشارة
إلى ما كان سائدا منها في مصر في عهد الطولونيين .

فقد كان الطولونيون يعنون بالغناء والموسيقى ، ولعل ما يدل
على ذلك بيت الذهب الذي بناه خمارويه بن أحمد بن طولون واتخذ
على حيطانه صورة بارزة من الخشب تمثله مع مغنيائه بأشكال
بلغت حد البهاء ودقة الزخرف ، وكان اذا جلس لسماع الغناء
وسمع المؤذن ، يأمر المغنيات بوقف الغناء . ولم يكن خمارويه
مبتدعا في ذلك أثناء الحكم الطولوني فقد سبقه أبوه أحمد بن
طولون في الاهتمام بالرياضة فقد شيد ميدانا خاصا للعب الكرة
خارج نطاق مصر على نمط الميدان الذي ألحقه الخليفة المعتصم
بقصر الخلافة بمدينة سامرا .

كما عني ابن طولون بحلقات السباق ، فبنى مكانا لعرض
الخيول سماه المقظرة ، واعتبره القضاء إحدى عجائب الإسلام
الأربع (٤) حيث أن حلقة السباق عند الطولونيين — لأسسها في
أيام خمارويه — كانت بمثابة الأعياد لما يصحبها من إقامة معالم
الزينة ، وركوب الفلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة
والأسلحة التامة .

كذلك كان الأمراء الطولونيون يقبلون على ممارسة لعب الكرة وشغفوا بها كثيرا .

أما في عصر الاخشيديين ، فكان محمد بن طغج الاخشيد نفسه مولعا بسماع المغنين والمغنيات ، كما أن وجوه القوم في مصر كانوا يقبلون في مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات . وعلى أية حال فإن وسائل الترفيه الموجودة بمصر ابان عصور الاستقلال وما قبلها قد استمرت بصورة أو بأخرى حتى جاء الفاطميون الى مصر وهم الذين تفتنوا في اصفاء مظاهر الابهة والفخامة على دولتهم . فقد غلب الاهتمام بالغناء والموسيقى في العصر الفاطمي بمصر على وسائل الترفيه الأخرى .

فأقبل كثير من رجال الدولة وأعيانها في مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات وكان معظم المغنيات من الجوارى ، فيحكى أنه اشترت من بغداد جارية تجيد الغناء للأمير تميم بن المعز لدين الله بمصر ففنت له ولجسائه ، وقد عرف هذا الأمير بميله الى الطرب والمجون ، وكان أثناء اقامته بمصر يخرج الى متنزهاتها ويشترك المصريون لهوهم . كما كانت مجالس الطرب والغناء واللهو ، تقام على شواطئ الخليج بالقاهرة ، ويبدو أن هذه المجالس كان يشوبها بعض الانحلال الاجتماعي مما جعل الخليفة الحاكم بأمر الله يصدر قوانين يمنع بعضها سماع الموسيقى ويحرم البعض الآخر الغناء والملاهي التي اعتبرت خطرا على الأخلاق العامة .

على أن مجالس الطرب والغناء ما لبثت أن عادت الى الظهور بعد وفاة الحاكم .

وقد عرفت القصور الفاطمية أنواعا متعددة من الملاهي والألعاب

المسلية والهزليات حتى أن المقریزی يروی لنا أنه كان يوجد بالقصر الفاطمی « مجلس اللعبة » ويبدو أن هذا المجلس كان مسرحاً لالعاب خيال الظل وغيره من أنواع الننون والملاهی التي كانت تعرض فی القصر آنذاك ، بل بلغ شغف بعض الخلفاء الفاطميين بالصید الى حد أن بعضهم لقب بالخليفة الصياد خاصة أن الفاطميين قد وجدوا فی الصيد متنفساً لهم بدلاً عن ممارستهم الحروب بأنفسهم فی الغالب فكان الصيد بمثابة حرب بين الصائد وفريسته تظهر فيها فنون القتال وتجعل الصائد مستعداً لمواجهة الاخطار وعدم الاستسلام للأمان والدعة .

أما عن الدولة الأيوبية فإن وسائل الترفيه التي كانت تمارس فيها قد كانت امتداداً لتلك التي كانت قائمة أثناء الدولة الفاطمية وإن لم تكن بنفس الدرجة والمستوى أيام الفاطميين وقد يكون ذلك مرجعه الى تلك الأعباء التي القيت على كاهل الأيوبيين نتيجة لحروبهم الكثيرة خاصة مع الصليبيين فقد شغف ملوك بني أيوب بلعب الكرة مثل نور الدين زنكي الذي اعتبرها نوعاً من رياضة النفس والبدن ، وقد بلغ شغفه بها حداً كبيراً حتى لعبها بالليل مثل النهار .

كذلك كان السلطان الصالح نجم من أكثر الأمراء شغفا بهذه اللعبة فقد شيد برسمها ميداناً بأراضى اللوق من بر الخليج الفربي وجعل فيه مناظر جليلة تشرف على النيل ، وصار يلعب فيه بالكرة .

كذا اشتهر بنو أيوب بولعهم الشديد بالصيد حيث أعدوا له الاحواش فی مختلف أقاليم الديار المصرية .

والجدير بالذكر أنه على امتداد العصور الإسلامية فإن الدول الإسلامية قد مارست ألواناً مختلفة من وسائل الترفيه ولم يقتصر

فلت على مجرّد التسلى والتزويج بل انطلقت نحو
الوأن أخرى مما يمكن أن نطلق عليه الترفيه الجاد
فى قصور الخلفاء والوزراء والأعيان المجالس
يختمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة وتنافس
هذا الى جانب مجالس العلم التى كان يتردد عل
يتسامرون وينهلون منها العلم والأدب .

تلك لمحة سريعة عن بعض وسائل الترفية - التى
قبل عصر المماليك والتى توضح لنا أن وسائل الترف
الملوكى انما كانت فى معظمها امتدادا لوسائل و
على مر العصور الاسلامية السابقة .

وان كان البحث قد أغفل تناول بعض هذه الو
المماليك ، فان ذلك مبعثه الالتزام بالمنهج وعدم ال
التى يتناولها البحث بالدراسة وهى عصر سلاطين
يزد الاستزادة حول ذلك الموضوع ابان العصور
المماليك فانه يجد المجال متسعا فى المؤلفات التاريخية
تناولته بأسهاب وتوضيح لم يتيسر لنا كثيرا عند
البحث ابان العصر الملوكى .

هوامش التمهيد

(١) قالت عائشة « سابقني رسول الله مسبقته ، فلبثت حتى اذا أرففني اللحم (أى سميت) سابقني مسبقني ، فقال : « هذه بتلك » يشير الى المرة الأولى » رواه أحمد وأبو داود .

(٢) رواه البخاري .

(٣) يقصد بها النرد والشطرنج ويطلق عليها أيضا الألعاب المنزلية .

(٤) أشار القاضي الى أن عجائب الاسلام الأربعة هي : مرض الخيل عند الطولونيين ورمضان بمكة ، والعيد بطرسوس ، والجمعة ببغداد .

(انظر : المقرئ ، خطط ج ١ ص ٣١٨ ، ٣١٩) .



الباب الأول

المجالس

الفصل الأول : مجالس العلم والوعظ والقصص

الفصل الثاني : مجالس الأدب والشعر

الفصل الثالث : مجالس الشراب والطرب

الفصل الأول

مجالس العلم والوعظ والقصر

مجالس العلم :

يعد سقوط بغداد فى ايدى التتار سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م مصرعا لكل عزيز ونفيس من تراث المسلمين وآثارهم فى العراق التى كانت مفخرة للشعوب الاسلامية جميعا . فقد اباد التتار تراثهم العلمى فخرّبوا المكتبات وغيرها ، فالأرواح مسفوكة والحرمت مهجرة والأفواه مكومة ، والألسنة خرساء ..

نزع العلماء الى مصر والشام ، ولما غزا المغول الشام هاجر علماؤها الى القاهرة التى كانت تضم المدارس والمعاهد ومجالس العلم والمكتبات ولمس العلماء من عطف المماليك ورعايتهم ما حبيب اليهم البقاء ، فأخذوا يكتبون ويؤلفون وينثرون وينظمون ، كما هاجر الى القاهرة أيضا فى غضون تلك الفترة عدد غير قليل من علماء الأندلس وأدبائها فاربن منها هربا من خطر النصارى . الأمر الذى ساعد على قيام نهضة دينية وعلمية وأدبية .

وقد حظيت تلك النهضة بنشجيع السلاطين والأمراء ، وحسبنا أن نشير فى ذلك الى تلك المجالس التى حرص عليها سلاطين المماليك ، والتى كانت تضم نخبة من العلماء والأدباء والجلساء ، على أن تسير بخطى واسعة فى سبيل استكمال حاجات المجتمع الروحية والنقافية بل قدموا المال والجاه دفعا للعلماء الى التأليف فى مختلف العلوم ، كما أسندوا اليهم المناصب وأحاطوا ديوان الانشاء بالرعاية والاهتمام ، بما أنشأوا من المدارس والمساجد

وحلقات العلم التى أمها المتعلمون من كل مكان ، وأصبحت مدن القاهرة والاسكندرية وقوص والفيوم ، ثم دمشق وحماة وحمص تجتل مكانة بغداد وقرطبة وأصفهان وبخارى وغيرها .

وارتبطت مجالس العلم بمجالس الثقافة التى تضمنت مجالس الأدب والشعر ومجالس الوعظ والقصص وكذا مجالس الشراب والطرب ، التى أقبل عليها السلاطين للترويح عن النفس من مشاغل الدولة ، وخصصوا لها المجالس للاطلاع على آداب العرب وأخبارهم ، وضموا اليها فحول شعراء العصر .

فقد ازدهرت مصر فى أثناء حكم المماليك بطائفة من العلماء ما بين المفسر والمحدث والفقيه والأصولى والمتكلم والنحوى وغيرهم ، ويجمع الكل أنه يحق عليهم — كما يقول صاحب معيد النعم ومبيد النقم — « ارشاد المسلمين وافتاء المستغنيين ونصح الطالبين وإظهار العلم للسائلين » ، والا بقصدوا بالعلم الرياء والمباهاة والسمعة والا يكون العلم سبيلا الى الدنيا ، فان الدنيا أقل من ذلك .

وكان العلماء يوصفون بعلو الهمة ، وسمو القدر ، وعزة النفس ، يترفعون عن الملوك ويرقون بأنفسهم عنهم . فلا غرو فى ذلك فقد سئل بعضهم عن مسألة فى القرآن ، فى اعرابها ومعناها ، فأجاب بوجه ، ثم أجاب بوجه آخر ، حتى ذكر عشرة أوجه ومنهم من كان لا يهاب ملكا ولا أميرا شديد البأس مهابا ، لايزال يأمر عظماء الدولة بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويصددع بالنكير عليهم « بنير احتشام لهم ولا مراعاة » .

حتى ان أحدهم وهو محمد القونوى قد كتب الى السلطان برقوق يقول له « ... أما بعد فان برقوق اسم هجين لا يليق

بالمملك وقد استخرت الله تعالى وسميتك أحمد ولقبك نظام الملك
فأشع ذلك فى عملك .. » . وكان برقوق قد اجتمع به بدمشق
فى بدء أمره وله فيه اعتقاد .

على أنه من ناحية أخرى أثر عن بعض سلاطين المماليك
تضييق الخناق على حرية الأفكار ، مما جعل تلك النهضة
المصطنعة تنكمش داخل حدود مصر والشام ، ولا تخرج عن نطاق
الموضوعات الدينية والأدبية إلا فيما ندر ، فضلا عن أنها كانت
ضعيفة الأثر فى آداب اللغة .

ويمكن الرد على ذلك بأن تلك النهضة العلمية أبان عصر
سلاطين المماليك ، إنما كانت نهضة أصيلة ، اعتمدت على أساطين
العلم فى مختلف فروعها حتى كان من أبناء السلاطين الذين اشتهروا
فى العلوم الدينية محمد بن جقمق الذى حفظ القرآن الكريم واشتغل
بالفقه والفرائض والحديث والمنطق والعربية ، فلما تسلطن أبوه
زاد طلبه للعلم ، فقرأ على ابن حجر العسقلانى ، وحضر على
سعد الدين بن الدبرى قبل أن يلى القضاء فى الفقه والتفسير ،
وقد اثنى عليه ابن حجر بالفهم والحفظ ، وكما كان محبا فى العام
والعلماء .

كذلك جنح بعض المماليك أنفسهم الى الدراسة الفقهية
وغيرها من الدراسات المدنية ، وصار منهم الفقيه والأديب
والشاعر والحاسب .

ويذكر ابن خلدون أن « أهل هذه الدولة التركية بمصر
والشام معنيون — على القدم منذ عهد مواليتهم ملوك بنى أيوب —
بانشاء المدارس لتدريس العلم والخوانق لاقامة رسوم الفقراء فى
التخلق بآداب الصوفية السنية .. فكثرت لذلك المدارس والخوانق

بمدينة القاهرة ... وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية وأثارها الجميلة الخالدة .

وقد كان العلماء يتداوسون العلوم فيما عرف بمجالس العام التى حرص الناس على حضورها ، كما كان سلاطين المماليك يحضرون هذه المجالس ، بل يشاركون فيها مشاركة ايجابية ، فقد وجد منهم — كالمسلطان الفورى — من حرص على عقد المجالس العلمية والدينية فى القلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع وكانت تبحث فى تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل العلمية والدينية التى تنافس فيها الحاضرون من كبار العلماء والعقهاء ، كما اشتغل بعض أمراء المماليك وأبنائهم فى متسمر بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية ، بل تصدى بعضهم لأقراء الطلبة والتدريس لهم .

كما لم يكن حضور هذه المجالس العلمية مقصورا على الرجال فحسب ، بل كان يقبل عليها أيضا عامة النساء بالقاهرة ، فقد حرصن على حضور مجالس العلم والدين حيث يجلسن فى مكان منفرد عن الرجال لسماع الدروس الدينية .

وجدير بالذكر أن بعض السلاطين كانوا يحرصون على حضور هذه المجالس العلمية بغرض التفقد والوقوف على ما جرى فيها ، فتد نزل السلطان المؤيد شيخ الى جامعه بجوار باب زويلة وحضر دروس المشايخ كلهم ، فكان يجلس فى كل حلقة قليلا والمدرس يلقي دروسه ، ثم يقوم الى الحلقة الأخرى ، حتى طاف الحلق السبع وعاد الى القلعة .

ولم يقتصر الأمر على ولع الكثير من سلاطين المماليك بمجالس العلم والأدب بل كان بعضهم كالمسلطان الظاهر تهربغا — مثلا — عالما بأصول اللغات والتاريخ والتبصوف .

كما كان بعض السلاطين متمسكين بأحكام الدين ويؤدون الفرائض كاملة ويحجون الى بيت الله الحرام ، فبرغم أن الممالك لم يكونوا أهل حضارة فى البيئات التى جاءوا منها فانهم كانت لهم عناية كبيرة بوجوه الحضارة وينشر العلم ، فقد أنشأوا — كما سبقت الاشارة — عددا كبيرا من المدارس فى جميع أنحاء البلاد فى المدن والقرى ، وفتحت هذه المدارس أمام الراغبين فى الاستفادة ، يأتون اليها ليستمعوا الى ما يلقى فى حلقاتها على نمط نظام مألوف ، حيث كان فى هذه المدارس — وفى الجوامع أيضا — أساتذة يلقون دروسا فى موضوعات معينة ، وكان على الراغب فى المعرفة أن يجلس فى الحلقة التى يروق له موضوعها بلا شروط ولا قيود ولا تسجيل ولا امتحانات .

وقد أخذ البعض على تلك السياسة التعليمية — ان جاز هذا التعبير — انها تضيع جانبا كبيرا من جهود الدولة والأساتذة ، ومن جهود الناس أيضا كما أنها لا تبرز الا أفرادا قليلين من كبار العلماء ، وتدفع السواد الأعظم من الناس فى غمرة من الجهل .

ولكن المدقق يستطيع بشيء من تصور ظروف ذلك العصر وملابساته ، أن يدرك أن ذلك كان فى حد ذاته يعد نهضة علمية لا غبار عليها ع فتلك كانت مدارس مفتوحة يجلس راغب العلم أينما يروق له نلا قيود ولا شروط ولا رسوم — كما سبقت الاشارة الى ذلك — مما بسر العلم وسهله ، حتى استطاعت تلك المدارس أن تجلو شخصيات أولئك الذين أوتوا نصيبا من العقل والجد والمثابرة .

بل لقد أفرزت لنا تلك المدارس خيرة العلماء وأفذاذهم الذين كان منهم من يتكلم على الحديث الواحد من بكرة الى قريب الظهر ، وربما أذن الظهر ولم يفرغ من الحديث الواحد واعترفت له علماء جميع الاقطار بالحفظ وكثرة الاستحضار .

ولعل مما أدى الى انتعاش الحياة العلمية والثقافية فى تلك
الآونة هو انتقال العلم من العراق الى مصر وكثرة العلماء فى كل
من الأدباء والشعراء خاصة فى مصر والشام بعد سقوط بغداد
سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، علاوة على تشجيع السلاطين للعلم
والعلماء وحسن رعايتهم للمتعلمين .

فقد كان السلطان برقوق « يجلب أهل الخير ومن ينسب الى
الصلاح ويقوم للفقهاء والصلحاء اذا دخل أحد منهم عليه ، ولم
يكن يعهد ذلك من ماوك مصر قبله » ومع تنكره للفقهاء فى سلطنته
الثانية بسبب أنهم اغتوا بقتله فائه « لم يترك اكرامهم قط مع
شدة حنقه عليهم » وكان يفرق كل سنة فى أهل العلم والصلاح
مائتى ألف درهم .

ورغم أن مجالس العلم كانت بطبيعة الحال مجالس جادة ،
فإنها كانت تجتذب أعدادا كبيرة من الناس ، بحكم أنها كانت
مجالس مفتوحة — كما سبقت الإشارة الى ذلك — وان الكثيرين
كانوا يجدون فيها وسيلة من وسائل الاستمتاع حيث كانت تتناول
موضوعات شتى من واقع حياة الناس ومشكلاتهم ، او كانت على
الأقل تبعدهم عن واقعهم الأليم أحيانا حيث المجاعات والأوبئة .

فقد عرف عن معظم العلماء روحهم المرحية وخفة الظل وسرعة
البديهة ، كما كان بعضهم يميل الى الخلوة مع عظمتهم عند السلطان
والأمراء ، فقد قال الشهاب المنصورى وقد دخل على أحدهم فى
خلوته وهو محبى الدين الكافيجى (١) وأضامه بحلوة قرع فقال
فى الحال ارتجالا دعابة لطيفة صاغها شعرا (٢) .

وكانت هذه المجالس تجذب الناس لما يدور فيها من مجادلات
ومناظرات علمية وأدبية تهفو اليها نفوس العامة والخاصة ، فيذكر

صاحب الطالع السعيد فى ترجمة هبة الله بن عبد الله بهاء الدين القفطى توفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م « مجلسا للعلم والمناظرة » حضره الوالى والقاضى والفقهاء ، كما حضره كثير من العوام الذين كانوا يتابعون ما يجرى فى المجلس ، ولما تمت المناظرة رجع العوام المناظر وعظموه (٣) .

وهذا يدل على مشاركة العوام فى هذه المجالس وحرصهم على ذلك ، بل حمسهم للمتناظرين واستحسنهم لما يدور فى هذه المناظرات ، وتعظيم المتفوقين فيها وبطبيعة الحال لا نشك فى أن حضور هذه المجالس لم يكن ببعثه الثقيف أو التعلم بقدر ما كان بغرض تمضية وقت يستمتعون فيه بأحداث تلك المناظرات العلمية والجدلية التى كانت فى الغالب تتميز بمحاولة كل من المتناظرين اظهار عجز وادعاء الطرف الآخر ، وهذا مما يرضى العامة ويشبع رغبتهم فى حب الاستطلاع والترقب .

وقيل انه فى عهد السلطان الأشرف قايتباى ، فى المحرم من سنة ٨٩٩ هـ / ١٤٩٤ م صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالعام الجديد ، وصعد كذلك الشيخ جلال الدين السيوطى فلما جلس سأل السلطان عن أى سنة سنها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يفعلها ، فلم يجبه الشيخ جلال الدين عن ذلك بشئ مع غزارة علمه وقوة اطلاعه ، وكان السلطان يقتنى كتابا يسمى « حيرة الفقهاء » ثم أجاب الشيخ جلال بعد ذلك بجواب حسن كاف فى تلك المسألة ، بأن السلطان قصد بذلك الأذان ، فانه سنة ولم يفعله والأصح انه اذن فى وقت ، وأورد فى ذلك الحديث ، وعمل فى هذه المسألة كراسة مطولة وذكر فيها أشياء كثيرة مما سنه النبى (صلى الله عليه وسلم) ولم يفعله .

وهذه الواقعة توضح أن ما كان يدور فى هذه المجالس فى الغالب انها كان بهدف المحاوره التى تأخذ أسلوب الالغاز وهى

ورغم ذلك فإنه يبدو أن العلماء كذلك لم يسلموا من قبائح
الأمراء ، حتى أن قاضى القضاة ناصر الدين أبى نصر عبدالوهاب
السبكي ذكر أن كثيرا من الأمراء لا يوقرون أهل العلم ولا يعرفون
لهم حقوقهم وينكرون عليهم أبسط الأشياء فقال : « . . . فما يتعين
على الأمير إذا أنهى إليه عن أحد من أهل العلم سوء ألا يصدقه
ويحسن الظن بهذه الطائفة فان لحومها مسمومة وما رأيت أميرا
يغض من جانب الفقهاء إلا كانت عاقبته سوءا . . . »

وذكر من قبائحهم « استكثرهم الأرزاق وان قلت على العلماء
واستقلالهم الأرزاق وان كثرت على أنفسهم ، ويقول رأيت كثيرا
منهم يعيبون على بعض الفقهاء ركوب الخيل ولبس الثياب
الفاخرة . . . »

على أنه كان من الأمراء أنفسهم من كان بحفظ القرآن ويتلوه
بصوت حسن بل أنشأ بعضهم مكتبا لتحفيظ القرآن .

وكان من الأمراء من جمع بين فضيلتى السيف والقلم مثل
موسى بن محمد بن شهري شرف الدين ، أحد الأمراء بحلب سبط
الملك المؤيد صاحب حماة وقد برع حتى اذن له البارينى بالافتاء . .
وكان يحب العلماء ويكرمهم ويجالسهم ويبحث معهم ، ت سنة
٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م .

وقد كان من المماليك من يترددون على مجالس العلم كثيرا الى
جانب ممارستهم أعمالا أخرى يتعيشون منها ، ولدينا من هؤلاء فتح
الله بن معتصم بن نفيس الداودى التبريزى الحنفى الطبيب الذى
صار من أخص المماليك عند السلطان برقوق وكان « يدرى كثيرا
من اللسن ومن الأخبار فراج عند برقوق وباشر رئاسة الطب .
وكان السلطان برقوق — كما سبقت الإشارة — معظما للعلماء
يقوم اليهم ويتلقاهم اذا حضروا عنده .

ويذكر أيضا أن السلطان المؤيد شيخ المحمودى كان كثير الاختلاط بالعلماء والفقهاء ، وكان يخصص يومى الأحد والأربعاء ليجتمع عنده جماعة من العلماء وطائفة من الصلحاء « يقعدون عنده - وهو فيما بينهم كأحدهم - من قبل العصر بساعة الى قرب المغرب فى القصر ، يباحثون بالعلوم الشريفة ويتذكرون فى المسائل العويصة ، وهو يسمعهم وربما يشاركهم بلطف وأدب » . تم كانوا اذا فرغوا يأمر بأن يسقوا من السكر المكرر المعد لنفسه فى سلطانيات كبار ، فى كل سلطانية قطعة كبيرة من الثلج فى أيام الصيف والهواجر . وقيل ان هذا شئ لم يفعله أحد من الملوك من قبله .

وكان من عادة بعض العلماء عند استفتاح الدرس بعد البطالة أن يعدوا طعاما حسنا « وششيئا حلوا » للطلبة ، واذا ختموه للبطالة صنعوا مثل ذلك أيضا ، مثما كان يفعل يحيى بن عبد الرحيم القوصى الذى ينعت بمحيى الدين الذى آلت اليه رئاسة التدريس والفتوى بالأعمال القوصية ت ٧١٨ هـ / ٣١٨ م .

وتشير المصادر الى أن بعض العلماء فى ذلك العصر لم يكونوا راغبين فى المشاركة فى مثل تلك المجالس ، بل يفضلون العزلة ويجدون فى التزام الخاوة متعة ترضى نفوسهم وتسسرهم وتغنيهم عن الاختلاط بالناس لغير ضرورته وكان من هؤلاء ابن القسطلانى الامام قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن على المصرى المتوفى سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م (٦) .

ومن أشهر مجالس العلم التى عقدت فى عهد السلطان المؤيد كان سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م . وهو الذى عقد لشمس الدين بن عطاء الله الرازى المعروف بالهروى الذى أشيع عنه أنه يحفظ اثنى

عشر ألف حديث ، وأنه يحفظ « صحيح مسلم » بأسانيده ويحفظ « البخارى » فاستعظم الناس ذلك .

وسئل الهروى عن بعض المسائل الدينية التى أجاب عنها ولكن الحاضرين استشعروا كذبه (٧) . وكان القصد من ذلك هو — كما نرى — اظهار عجز الهروى ، ومع أن هذا المجلس كان مكتظا بالحاضرين واستغرق وقتا طويلا فاننا نلاحظ انه لم يتناول مسائل ذات بال من الناحية العلمية بقدر ما كان محوره الأساسى المجادلة ومحاولة اظهار عجز بعض الحاضرين وهذا ينقل المجلس من كونه مجلس علم الى مجلس افتخار وزهو وتحد من جانب الحاضرين بعضهم لبعض ، ولعل هذا مما يبرر اعتبار تلك المجالس — حتى ان كانت علمية — تدخل فى اطار وسائل الترفيه زمن سلاطين المماليك ، ذلك أن غاية الحضور هو تمضية وقت يستمتعون فيه ويرغفون عن أنفسهم .

ورغم تعدد مجالس العلم والاهتمام بها على مدى عصر المماليك وعناية السلاطين والأمراء حتى العامة بهذه المجالس ، فإن البحث لا يتناول موضوعات هذه المجالس ولا ينقدها بقدر ما يعرض لها من حيث كونها احدى الوسائل المهمة التى كانت بعض الفئات تقضى بها وقتها ، فقد كانت غاية معظم من يحضرون تلك المجالس هو كما ذكرنا من قبل الاستمتاع بما يدور فيها من مناظرات ونوادير العلوم وان كانت لا تخلو من فائدة ، فهى على الأقل قد حثت الناس على التفكير وتحصيل النقامة حسب ظروفهم العصر .

وحسبنا أن نشير الى كتاب « نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار القرآنية » الذى ألغاه واحد ممن شهودوا مجالس

غورى فى مصر وهو حسين بن محمد الحسينى ، وهو
والى مصر وجمع فى كتابه هذا بعض المباحث التى كان
العلماء يتكلمون فيها (٨) . ويقول المؤلف « لم تكن المعارف
هرة فى مصر فى عصر الغورى » مستدلا على ذلك بالنظر
، والمجادلات التى كانت تدور فى مجالس هذا السلطان ،
عن ضيق الأفكار وقلة المعارف والولع بسفاسف الأمور
بن جلائها .

أىضا : « ينبغى ألا نعد هذه المجالس مصورة معارف
فى ذلك العهد ، فان كبار العلماء كانوا يتورعون عن
... » وكذا أيضا فان القضية الأربعة الذين يذكرون
نسئون ذلك العصر ، ولهم بالدولة والسلطان المملوكى
ة ، قل أن يذكر أحدهم نى مجالس السلطان الغورى .

مع المصادر على أن السلطان الغورى كان ذا حظ من
بنية كالتوحيد والفقه والتفسير ، ويشترك فى علوم
حو والبلاغة وغيرها كما كان مولعا بقراءة كتب التاريخ
قصص .

حوى كتاب « نفائس المجالس السلطانية » ، وكذا كتاب
الدرى « (٩) مسائل وافية تصور مجالس الغورى وتبين
، العلماء والكبراء الذين كانوا يغشون مجالسه .

طبيعة هذه المجالس فقد كان السلطان يتصدر قاعة
، الأشرفية بالقلعة ، وهو يجلس على مرتفع مغطى
حريرى وأرض مغطاة بالسجاد الثمين ، فقد كانت تلك
عقدت فيها هذه المجالس تنبىء بوقوع أحداث جسام
تصدى للدولة العثمانية الوليدة التى دأبت على التحرش
، فكانت تلك المجالس تخفيف الواقع الصلب .

وقد تعددت تلك المجالس ، وتنوعت المسائل التى تناقش فيها ، رغم أن مقصود بعض الحاضرين كما جاء على لسان السلطان الفورى فى أحد المجالس ، لم يكن الا المكابرة ، لا اظهار الصواب والمناظرة أو قصده الغلب المطلق ، وان كان على غير الحق ، كما اتهم بعضهم بافشاء أسرار المجالس العلوية عند الناس والافتخار بها بين العوام والخواص ، وهذا مما كان يفضى به السلطان .

مغالبتها أحيانا بعيد عن العلم قريب من الألفاظ والنوادير خاصة أن تلك المجالس كانت تعتقد ليلا فهى أشبه بالسهرات وأحاديث السمر .

بالإضافة الى انه كان يقام للكتب سوق تعرض فيها نفائس الكتب ، وكان الناس يقبلون على شرائها ، بل كان منهم من يحب ملازمة تلك السوق . فكان للكتب تجارة رائجة تدر على محترفيها أموالا طائلة ، مثلما كان ابن شاعر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م (١٠) .

وكذا كان على بن أحمد بن يوسف بن الخضر الأمدى الحنبلى الذى كان يتجر فى الكتب ، ولم يكن يخفى عليه منها شيء حتى انه اذا طلب منه المنجد الأول مثلا من أحد الكتب قام وأخرجه ، بل كان يلمس الكتاب فيذكر ما يشتمل عليه ولا يخطئ فان كان الكتاب مثلا بخطبن ذكر ذلك .

وكذلك على بن اسماعيل بن يوسف القونوى علاء الدين (ت ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م) الذى كان السلطان الناصر يعظمه ويثني عليه ، وهو الذى تولى قضاء دمشق فتوجه اليها فى سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م وأحضر صـحـته من الكتب « ما حمل على نحو العشرين فرسا » .

وبرغم ذلك فان البعض كان ينظر الى بعض تلك الكتب على انها ليست ذات نفع للناس ، بل اعتبرها مضلة لهم ومضسـيعة لأموالهم ، مثلما فعل الشيخ تقى الدين بن تيمية الذى ذكر المؤرخون انه اشترى الكيمياء ممن يحوزونها وغسلها فى الحال وقال : « هذه الكتب كان الناس يضلون بها وتضيع أموالهم فافتديتهم بما بذلته فى ثمنها .

ومما لاشك فيه أن الكتب وما حوته من مادة كانت احدى وسائل قضاء الوقت كوسيلة من وسائل الترفيه النافعة التى ساهمت فى نشر العلم والثقافة والأدب فى عصر سلاطين المماليك، حتى ان كان هناك من حرص على اقتنائها استكمالا للمظهر والأبهة والتعلق بأهداب العلم ، فمن المسلم به أن قيمة تلك المؤلفات تكمن أخيرا فى مدى الاستفادة منها ومدارسة محتوياتها وهذا ما لا يمكن الجزم بحدوثه ولو لدى القلة ممن اقتنوا هذه الكتب ، خاصة أن البعض كان يقتنى الكتب النفيسة كما يقتنى الجوارى الحسان والآنية الثمينة .

مجالس الوعظ :

وهناك أيضا مجالس خصصت للوعظ والارشاد ، والأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أقبل الناس عليها فى أوقات فراغهم ، وقام بالوعظ فيها وعاظ فضلاء ، حرصوا على عقد هذه المجالس خاصة فى شهور رجب وشعبان ورمضان فى كل يوم سبت .

وقد ألف بعضهم كتباً فى الوعظ منها ما عرف بكتاب الحريفيش وهو من تصنيف عالم صوفى وواعظ مشهور هو الشيخ الصالح عبد الله بن سعد بن عبد الكافى المصـرى المعروف بالحرفوش المتوفى سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م . وكذا كتاب ابن الرسام (ت

٨٤٤ هـ / ١٤٤١ م (١١) ، اندي كان يعمل المواعيد (١٢) وهو مؤلف
فى الوعظ على نمط كتاب شيخه ابن رجب المعروف بلطائف المعارف
بالاضافة الى عدة تصانيف اخرى منها « سمنية الأبرار الحاملة
للآثار والأخبار » وهو عبارة عن ثلاثة مجلدات فى الوعظ وهى
من تأليف شمس الدين محمد بن أحمد ابن سعيد المقدسى الحنبلى
قاضى مكة المشرفة المتوفى سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م .

كذلك ما كتبه العيني المؤرخ فى المواعظ والرقائق وهو فى
ثمانية مجلدات . والرقائق لفظ اصطلاحى يطلق فى كتب الحديث
الكبرى على باب خاص من أبواب الحديث النبوى ، وسميت
أحاديث ذلك الباب بهذا الاسم لأن فيها من الوعظ والرحمة والتنبيه
ما يجعل القلب رقباً رحيماً ، فيقال باب الرقائق ، وباب الرقائق
والتسمية الثانية أكثر شيوعاً .

كما صنف الواعظ زين الدين بركات أحمد بن محمد بن يوسف
الشهيد المتوفى سنة ٩٢٩ هـ / ١٥٢٣ م عدة كتب منها كتاب « حياة
القلوب ونيل المطالب » فى الوعظ وايضا « الكواكب الزاهرات
فى معرفة من اختلط من الرواة النقسات » ومنها كذلك « أسنى
المقاصد فى معرفة حقوق الولد على الوالد » و « الجواهر الزواهر
فى ذم الملاعب والملاهى » و « الأنجم الزواهر فى تحريم القراءة
بلحون أهل الفسق والكبائر » .

والحقيقة أننا لم نعثر على أى من هذه التصانيف ، التى كان
يمكن أن تكون منها فياضاً للموضوع .

وكانت مجالس الوعظ أشبه بمدارس شعبية ، تحملت عبء
تثقيف العامة وقامت المساجد بهذه المهمة ، الى جانب المدارس
المتعددة التى أكثر المماليك من انشائها ، كما سبقت الإشارة .

وكانت هذه المجالس تعج بالناس على اختلاف مستوياتهم دون قيد أو شرط حتى بلغ الحاضرون في بعض هذه المجالس الألوف من الناس . كما تميزت تلك المجالس بمعالجة المسائل الدينية والدنيوية ، لذا فقد كان أثرها واضحا في حفظ بعض معالم التراث الاسلامي ، ولاسيما ما يتعلق منه بالقيم والمثل الاسلامية العليا .

وكان عمل الواعظ يقتصر في الغالب على التذكير بالله وحث المواعظ المحركة الى الله تعالى ، وتخويف الناس من عذابه ويحضهم على التمسك بأهداب الدين ، وكان الناس اذا ما أعجبوا بأحد الوعاظ تعصبوا له وأقبلوا على مجالسه لاعتقادهم فيه اعتقادا زائدا ، بل كثيرا ما كانوا يقفون الى جانبه ضد بقية الوعاظ الذين يخالفونه الرأي في وعظه أو تنسييره ، حتى لو اقتضى الأمر استخدامهم القوة ، بل كان أحيانا يقع شجار بين العلماء أنفسهم بسبب خلافهم في الرأي .

وكان الوعاظ من القضاة والعلماء الذين يتولون الخطابة في مساجد مصر والشام ، خاصة علماء الجامع الأزهر منذ بناء جوهر الصقلي سنة ٣٦٠ هـ . ٩٨٠ م ، وقد حمل هؤلاء العلماء على اكتافهم مهمة الوعظ والارشاد ، وتوافد الناس عليهم من كل فج ، كما كان السلاطين والأهراء المماليك كثيرا ما يحضرون هذه المجالس خاصة تلك التي كانوا بدعون هم لعقدها ، وسنذكر طرعا منها فيما بعد .

وقد كانت مجالس الوعظ تشد الناس اليها وتستولي على ألبابهم ، حتى أنهم كانوا يتركون أعمالهم ويتفرغون لها ، فتذكر المصادر أن أبا المظفر الحنفى البغدادى الدمشقى سبط ابن الجوزية .

المتوفى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م « كان حسن الوعظ » وكان له مجلس وعظ كل يوم سبت بكرة النهار عند السارية التي تقوم عندها الوعاظ اليوم — زمن المؤلف — عند باب مشهد على بن الحسين زين العابدين ، وقد كان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع ويتركون البساتين في الصيف حتى يسمعوا ميعاده ، ثم يسرعون الى بسـساتينهم فيتذكرون ما قاله من الفوائد والكلام الحسن ، على طريقة جده ، وكان الشيخ تاج الدين الكندي وغيره من المشايخ ، يحضرون عنده تحت قبة يزيد ، التي عند باب المشهد ويستحسنون ما يقول . . وكان مجلس وعظه مطربا وصوته فيما يورده حسنا طيبا .

وكان الوعاظ لكونهم علماء ورجال دين يتمتعون بحب الناس كافة حتى كان منهم « الرائج عند العامة » ، وكثير منهم اشتهر بصدق اللهجة وجودة الرأي وحسن التذكير والأمر بالمعروف مع الصرامة والصدع بالوعظ في خطبه وقصصه وصارت له « وجاهته عند الخاصة والعامة » ، وبطبيعة الحال فانهم كانوا سـعداء بذلك ، حريصين على ارضاء العامة فيظهرون لهم التواضع ولين الجانب في حين كان معظمهم يخاشن الملوك والسلاطين ، ويغـلظ عليهم في القول . ومع ذلك كانوا يعظون في خشوع وتواضع حتى كان منهم من « يغيب في وعظه لفرط خشوعه » .

وتذكر بعض المصادر ما يشترط في الواعظ فأوردت أن للواعظ شروطا منها : « أن يكون عالما بالكتاب والسنة ، وأن يكون مستقيما اللسان حسن البيان ، ومن شرطه أن يكون صاحب اشارة ورموز فقد قيل : رب اشارة ابلغ من عبارة ، ورب لحظ ابلغ من لفظ ، وقال مالك بن دينار : الواعظ الذي اذا دخلت بيته تعظك آلة بيته ، فترى اناء الوضوء وسجادة الصلاة .

وقيل أن الوعظ ثمانية مراتب الحسبة فأولها في النهي
ثانية بالوعظ والثالثة بالردع والزجر ، ولا ينفع وعظ من لا يتعظ
، ليس بصالح في نفسه كيف يصلح غيره ، وجاء أن على
تسبب أن ينظر في أمر الوعظ ، ولا يمكن أحدا ممن يتصدى
الفن إلا من اشتهر بين الناس بالدين والخبر والفضيلة (١٣) .

ومن عرف شيئا يسيرا من كلام الوعظ وحفظ من الأحاديث،
بار الصالحين قبل ذلك وقصد الكلام يسترزق به ويستعين
قوته فيباح له بشرط ألا يصعد المنبر ، بل يقف على قدميه ،
رتبة صعود المنبر رتبة شريفة لا يليق أن يصعد عليه إلا من
هر بما وصفناه ، وكفى به علوا وسموا أن النبي (صلى الله
وسلم) صعد عليه والخلفاء الراشدون من بعده والأئمة (١٤) .

وهناك نقد لجالس الوعظ في عصر سلاطين المماليك
أن صار الواعظ لا يطلب إلا لتمام شهر بيت أو لعقد نكاح ،
اجتماع هذيان ، ولا يجتمع الناس عنده لسماع موعظة ولا
ة ، وإنما صار ذلك من نوع الفرح واللعب والاجتماع ، وبجري
المجلس أمور لا تليق من اجتماع الرجال والنساء ، ورؤية
هم لبعض وأشياء لا يليق ذكرها ، واعتبر هذا من البدع
ة وكان الأولى حسم ذلك والمنع وإن تعذر فلا يمكن من ذلك
جل مشهور بالدين والخير والفضيلة ، ومن شرطه أن يكون
لله مجتهدا قوالا فعلا ، هذا وقد اعتبر الفقهاء والمتكلمون
اء والنحاة أهل الذكر والوعظ قصاصا .

وكان على الواعظ أن يرفع صوته في مجلسه بحيث يسمعه
ن نفسا وأن يذكر بأيام الله ويخوف الناس في الله وينبئهم
. السلف الصالح وما كانوا عليه ، وأهم ما ينبغى له والخطيب

أن يكون مثلاً أعلى وقدوة حسنة قولاً وعملاً وأن يعلم أن الكلام إذا لم يخرج من القلب لم يصل إلى القلب فكل خطيب وواعظ لا يكون عليه سمات الإصلاح قل أن ينتفع الناس بوعظه .

والابتداع في الوعظ من المسكروحات ، فإن الواعظ المبتدع يجب منعه فلا يجوز حضور مجلسه إلا على قصد اظهار الرد عليه ، فإن لم يقدر فلا يجوز سماع البدعة ، كما أنه إذا كان الواعظ شاباً متزينا للنساء في ثيابه وهيئته ، كثير الأشعار والإشارات والحركات ، وقد حضر مجلسه النساء فهذا منكر يجب المنع منه ، فإن الفساد أكثر من الإصلاح ويبين ذلك بقرائن أحواله .

ولا ينبغي أن يسلم الوعظ إلا لمن ظاهره الورع وهيئته السكون والوقار ، وزبه زى الصالحين . والا فلا يزداد الناس إلا تمادياً في الضلال ، كما يجب أن يضرب بين النساء والرجال حائل يمنع النظر اليهن فإن ذلك مظنة الفساد (١٥) .

ورغم هذا التشدد في حضور النساء مجالس وعظ الرجال ، فإن المرأة في العصر المملوكي تمكنت من المشاركة في الحياتين العلمية والدينية ، حتى أن التاريخ يسجل أسماء كثيرات اشتغلن بالنحو ونظمن الشعر وتخصصن في الفقه والحديث بل لقد قررت امرأة شيخة على زاوية السلطان قايتباي بالمرج ، بعد أن مات زوجها الشيخ قلعج الرومي الأدهمي سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م وأن كان ذلك عد من النواذر .

ويبدو أن مجالس وعظ للنساء كانت تعقد خصيصاً لهن ، يقوم بالوعظ فيها واعظات كن على درجة كبيرة من العلم والاقتدار ، منهن — على سبيل المثال — ست الخطباء بنت القاضي تقي الدين

على بن عبد الكافي السبكي ، المولودة بالقاهرة وحدثت بمصر والشام وتوفيت في جمادى الآخرة سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م ، وكذا ست الوزراء بنت عمر بن أسعد بن المنجا التنوخية الدمشقية أم عبد الله وتدعى وزيرة بنت القاضي شمس الدين عمر بن شمس الدين الحنابلة وجيه الدين ، وقد سمعت من والدها وغيره ، وحدثت أيضا بدمشق ومصر وماتت في شعبان سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م .

ومنهن أيضا أسماء بنت الفخر إبراهيم بن عرصة التي كانت تلقن النسوة القرآن الكريم وتعلمهن العلم ، وكانت تجهد نفسها فيما يقربها إلى الله ، توفيت سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م ، وكذا عائشة بنت إبراهيم المتوفاة سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤١ م وكانت تحفظ القرآن وتلقنه النساء ، قال عنها ابن كثير - وكان زوج ابنتها - كانت عديمة النظير لكثرة عبادتها وحسن تأديتها للقرآن ، تفضل في ذلك على كثير من الرجال وأقرأت عدة من النساء وختمن عليها وانتفعن بها .

ويكفي دليلا على اقتدار كثير من سيدات العصر في الوعظ ما شهد به ابن تيمية حيث أثنى على فاطمة بنت عياش بن أبي الفتح البغدادية أم زينب الواعظة ، فقد كانت تدرى الفقه جيدا حتى تعجب ابن تيمية من حرصها وذكائها وقد انتفع بها نساء أهل دمشق لصدقها في وعظها وقناعتها ، وعندما تحولت إلى القاهرة حصل بها النفع وارتفع قدرها وبعد صسيتها توفيت ليلة عرفة سنة ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م .

وكذا ظهرت أخريات في مجال الوعظ كفاطمة بنت علي بن يحيى بن عمر بن حمود البعلبكية ، وقد سمعت من القطب الويني ، وحدثت وسمع منها رجال كثيرون ، ولم يأنف كثير من كبار فقهاء

القاهرة فى عصر المماليك من الاعتراف بأنهم سمعوا من بعض السيدات الشهيرات اللائى أجزن لهم .

كذلك برعت فاطمة بنت محمد بن محمد بن جبريل بن أبى الفوارس وتدعى ست العجم التى أرخ لوفاتها تاسع عشر رمضان سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م ولها ست وسبعون سنة . كما سلكت بعض النساء فى عصر سلاطين المماليك طريق التصوف وشاركن مشاركة فعالة فى حركة التصوف التى اشدت ساعدها فى ذلك العصر بالذات بل ان بعض النساء لبسن خرقة التصوف كما يلبسها المتصوفة من الرجال وأطلق عليهن اسم الشيوخات ، ولازمت هؤلاء المتصوفات الزوايا والأربطة التى خصصت لهن تحت رئاسة شيختهن .

ووصف بعض المؤرخين هذه الزوايا الخاصة بالنساء ، بشدة الضبط والمواظبة على وظائف العبادات والحرص على مبادئ الأخلاق ، حتى ان خادمة الفقبرات كانت لا تمكن أحدا من استعمال ابريق ببزبوز ، وتؤدب من خرج على الطريق بما تراه .

وكان الواعظ يعتبر نفسه مصلحا يتلمس نواحي الصعف فى الحكومة وفى طبقات الأمة لذلك العهد فيتصدى لنقدها بصراحة وجراءة تدعوان الى الاعجاب ثم يصف وسائل الاصلاح ، وهى غالبا ما تدور حول قيام كل بواجبه فى دائرة عمله . وكان يحصل للناس فى مجالس الوعظ رقة وخشوع وبكاء حتى تاب على أيدي الوعاظ كثيرون .

وارتبطت بمجالس الوعظ قراءة القرآن الكريم ، حيث كان يجتمع الناس والعلماء ويقرأون ختمة كامله ، ثم يدعون بدعاء طويل فى عشى كل سبت ليلة الأحد . وكان بعض السلاطين

يحرصون على الاجتماع لسماع القراءة والدعاء وزيارة المدارس
التي هي موطن العلوم الشرعية والعبادات والصلاة مع الناس
وقد فعل ذلك السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م ،
وكثيرا ما حدثت مناظرات ومجادلات في تفسير بعض الآيات
الكريمة ، ومسائل فقهية متنوعة .

وظهر من المفسرين في هذا العصر الامام القرطبي المتوفى
سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م وهو صاحب كتاب التذكرة بأمور الآخرة ،
والتفسير الجامع لأحكام القرآن ، وكان اماما علما من الغواصين
على معاني الحديث .

كما ازدهر فن القراءات ، فكان هناك من يقرأ القرآن بأربع
عشرة رواية . وكثيرا ما كان القراء والوعاظ يدعون في مناسبات
متعددة لأحياء لياليها بدعوة من السلطان أو أحد الأمراء ، وكان
يلقى القراءة والوعظ أن تصنع وليمة حافلة ، يحضرها القضاة
الأربعة والأمراء المقدمون وأرباب الوخائف من المباشرين ، ويحضر
قراء البلد قاطبة والوعاظ ، ويحضر السلطان المجلس والسماط .

وكان السلطان يستمتع بمشاهدة مجالس الذكر والرقص في
الخوانق التي هي أماكن العكوف للمتصوفين ، وكان من عادة رجال
الصوفية أن يحضروا عند السلطان في كل يوم ثلاثة أشهر لقراءة
البخاري . وكانت العادة أن يقرأ كتاب صحيح البخاري بالقصر
من قلعة الجبل ، بحضور قاضي القضاة الشافعي وشيخ الاسلام
في طائفة يسيرة من الفقهاء بلغ أحيانا الستين فقيها ، بصرف
لكل منهم ألف درهم فلوسا .

وفي رمضان كان ختم قراءة البخاري بجامع الأزهر ، حيث
تجرى قراءته من أول الشهر في الجامع الأزهر بحضور القضاة
الأربعة والعلماء ثم تفرق عليهم الخلع والصرر .

وفى عهد السلطان الفورى فى رمضان ، كان ختم قراءة صحيح البخارى يتم بالحوش السلطانى وقد نصبت هناك خيمة كبيرة ، وكانت العادة القديمة أن البخارى يقرأ بالقصر وتخته بالقصر الكبير ، ويكون له يوم مشهود وتفرق هناك الخلع والصرر على القضاة ومشايخ العلم ، فبطل ذلك وصار البخارى يقرأ بجامع القلعة ويختتم بالحوش ، « فتكون ساعة يسيرة ثم ينفض ذلك المجلس على أمر هين » .

ويقال انه كان يصنع فى كل ليلة رابع عشر الشهر ، ليلة حافلة بجامع السلطان قايتباى فى الروضة ، وكانوا يسمونها البدرية نسبة الى البدرى حسن بن الطولونى ، وينصب على شاطئ النبل أمام الجامع ما لا يحصى من الخيام ، وتجمع المراكب هناك بكثرة . ويجتمع الناس وتوقد بالجمع وقدة حافلة ، وبحضر هناك قراء البلد جميعا والوعاظ ، وتكون « ليلة حافلة ، لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، واستمر ذلك مدة حتى أبطل .

كما شارك السلاطين فى الاحتفال بالمولد النبوى فى كل سنة يجتمع القضاة والعلماء فى الحوش من القلعة تحت خيمة كبيرة تضرب هناك ويحضر السلطان والأمراء ، وعندما يفرغ من قراءة القرآن الكريم يقوم الوعاظ واحدا بعد واحد ، ثم يدفع اليهم بصرر المال وتمد الأسطة الجليلة .

وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون يحضر عند ابن جماعة لسماع الحديث . كذلك كان الظاهر جقمق عالما متفقا ، فصيح اللسان بالعربية .

وغالبا ما كان السلاطين يدعون الى مجلس لقراءة القرآن الكريم عند المقياس فقد ندب السلطان المؤيد شيخ الحمودى

طائفة من القراء للاجتماع على تلاوة كتاب الله بالمقياس وأجرى عليهم من الأطعمة ما يليق بهم فأقاموا على ذلك بالمقياس وكان سبب ذلك توقف النيل عن الزيادة عدة أيام فكثيرا ما كانت تعقد تلك المجالس القرآنية عندما تحل الأزمات بالبلاد ، أو تقع ظاهرة طبيعية غير عادية مثل كسوف الشمس أو خسوف القمر أو غيرها فقد كان ذلك مجالا واسعا للوعظ وحث الناس على فعل الخيرات دفعا لما قد يقع من البلاء .

وفى ربيع الآخر سنة ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م فى عهد السلطان المؤيد شيخ اشد الطاعون بالناس ، فنودى فى الناس بالخروج الى الصحراء ، وأن يخرج العلماء والفقهاء ، ومشايخ الخوانق ، وصوفيتها ، وعامة الناس ، ونزل الوزير صاحب بدر الدين بن نصر الله ، والامير التاج الاستادار بالصحبة الى تربة الملك الظاهر برقوق ، حيث نصبوا المطابخ بالحوش القبلى منها وشسارك السلطان فى ذلك مظهرا الخشوع والانكسار وهو يبكى ويدعو الله بين القضاة والخليفة وأهل العلم وطوائف من الناس لا تحصى ، وكان يوما مشهودا ، يقول المقرئ لم ندرك مثله .

وكانت مثل هذه التصرفات العاجزة سمة بارزة ونعمة مشتركة فى مواقف الدولة ورجالها الذين يتمسحون برداء الدين ابان الأزمات .

وفى عهد السلطان الأشرف برسباى كان من عادة قاضى القضاة علم الدين صالح البلقيني أن يخرج فى جمع موفور الى الصحراء ، خارج باب النصر وأن يجلس جانب تربة الملك الظاهر برقوق ، فيعظ الناس على عاداته ويعمل الميعاد .

ففى سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٣٠ م وقع وباء عظيم بمصر فاجتمع أربعون شريفا اسم كل منهم « محمد » بالجامع الأزهر وقرأوا ما

تيسر حتى أذان العصر فصعدوا على سطح الجامع وأذنوا جميعا بصوت واحد ثم صلوا العصر وانفضوا ، وقيل أخذ الوباء يتناقص بعدها حتى انقطع .

ويبدو أن الناس كانوا سريعي الاستجابة للخروج فى مثل هذه التجمعات الدينية ، خاصة عندما كان يشتد الكرب ، ففي التاسع والعشرين من صفر سنة ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م كسفت الشمس قبيل الزوال ، فاجتمع الناس بالجوامع لصلاة الكسوف ، فبادروا للتطهر وسعوا رجالا ونساء الى الجوامع وهم فى خشوع وذكر واستغفار .

ولم يكن المماليك أقل استجابة لتلك النزعة الدينية التى سادت فى العصر المملوكى ، فالمعروف أن بعض المماليك حفظوا القرآن الكريم كله عن ظهر قلب ، وحرص على تجويده ، فاشتهر الأمير ازدمر الابراهيمى الظاهرى جقمق بنلاوة القرآن والقراءة مع قراء الجوق ورياسته مع فهم فى الجملة وطول نفس . وعرف عن يثبك بن سليمان شاه المؤيدى الفقيه أحد أمراء السلاطان المؤيد شيخ وصهره أنه اشتغل بالقراءات .

ومن المماليك من اشتهر بحسن الخط والتأنق فيه كالأمير تجكاس الاسحاقى الظاهرى جقمق الذى يقال أنه كتب قصيدة البردة للبوصيرى وقدمها لأستاذه جقمق فاستحسنها ، واعتبرت الاجادة فى الخط مبررا لزيادة ثمن المملوك .

وبلغ من اهتمام المماليك بالقرآن قراءة وكتابة وحفظا أن الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق كان له اشتغال بالعلم ، وبرع فى الفقه وأذن له بالافتاء ، توفى فى المحرم ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م . وكذا على باى بن برقوق نائب الشام المتوفى فى رجب سنة

٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م ، فى عهد الأشرف قايتباى ، كانت له عناية بالعلم والاشتغال به ، وكان شابا ناضلا (١٦) .

ويذكر أن الأكابر والأمراء كانوا يحضرون مجالس الوعد والعلم بخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، ويقبلون على شيخها ويجلسون بين يديه متأدبين ، وهو يخاطبهم بأسمائهم من غير تعظيم ولا تلقيب .

ولندع الرحالة ابن بطوطة يصف لنا طرفا من هذه المجالس ، شاهدها بنفسه فى أقاليم مصر أثناء رحلته للحج اذ يقول : « ونزلت من هذه المدينة — يقصد أخميم — بزاوية الشيخ أبى العباس بن عبد الظاهر ، وبها تربة جده عبد الظاهر وله من الاخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين ، ومن عاداتهم أن يجتمعوا جميعا بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين وأولاده وقاضى المدينة فخلص وسائر وجوه أهلها فيجتمعون للقرآن ويذكرون الله الى صلاة العصر ، فاذا صلوا قرأوا سورة الكهف ثم انصرفوا » ، ويضيف الرحالة أنه سافر من أخميم قاصدا مدينة كبيرة بساحل النيل تسمى « هو » ويقول انه نزل منها بمدرسة تقى الدين بن السراج ويقول : « رأيتهم يقرأون بها فى كل يوم بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ، ثم يقرأون أوراد الشيخ أبى الحسن الشاذلى وحزب البحر » .

وكان الأمراء يتنافسون فى أفعال الخير ، وبناء المساجد والزوايا ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه القاضى فخر الدين القبطى ، وكان نصرانيا فأسلم وحسن اسلامه وله منزلة عظيمة عند الملك الناصر . . وكان من عادته أن يجلس عشى النهار فى مجلس له فى داره على النيل ويليه المسجد ، فاذا حل المغرب

صلى فى المسجد وعاد الى مجلسه وانى بالطعام ولا يمنع حينئذ
أجد من الدخول كائنا من كان ، ويقضى حاجات الناس ، ومن
كان طالب صدقة أعطاه خازنه ما قدر له ، ويحضر عنده فى ذلك
الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخارى فاذا صلى العشاء
انصرف الناس عنه .

وهكذا نجد أن مجالس الوعظ قد أسهمت اسهاما كبيرا فى
نشر الثقافة فقد كانت تسد فراغا روحيا كبيرا لدى الناس جميعا
حكاما ومحكومين ، فى عصر غلبت عليه الأحداث الجسام ، وكثرت
فيه الأزمات والمجاعات ، فكانت تلك المجالس تخلص الناس من
همومهم أو تخففها عنهم .

مجالس القصص :

وارتبط بمجالس الوعظ نوع آخر من المجالس عرف بمجالس
القصص ، حتى أن بعض الفقهاء والمتكلمين والأدباء والنحاة ،
اعتبروا الوعظ قصاصا — كما سبقت الإشارة — وتلك المجالس
— حسب رواية أحد المؤرخين — نوعان ، قصص العامة ، وقصص
الخاصة (١٧) ، وكان القاص يجلس عادة فى الطرقات ، أو فى
المقابر أو فى الجوامع أو فى المدارس أو فى الخانقاوات ، أو
يجلس فى الأسواق وقد أطلق على القصصا أصاحيانا « قارئ
الكرسى » وتذكر المصادر أنه « هو من يجلس على كرسى يقرأ
على العامة شيئا من الرقائق والحديث والتفسير ، فيشترك هو
والقاص فى ذلك ولكنهما يختلفان فى أن القاص يقرأ من صدره
وحفظه ويقف وربما يجلس ، ولكن وقوفه وجلوسه فى الطرقات ،
أما قارئ الكرسى فيجلس على كرسى فى جامع أو مسجد أو
مدرسة أو خانقاه ، ولا يقرأ الا من كتب .

وقد راج الأدب القصصى فى ذلك العصر ، ومن أشهر القصص ، كتاب ألف ليلة وليلة ، الذى تصور قصصه عصر المماليك بطريقة جذابة ، وان انتحلت شخصيات من العصر العباسى الأول لأبطال تلك القصص كما ذكرت بغداد عوضا من القاهرة ، ويضيف بعض المؤرخين أن ألف ليلة وليلة « كتبت للجمهور الذى كان يجتمع فى المقاهى يصفى الى ما يسرده القصاصون المحترفون للطبقة الوسطى غير المثقفة الكثيرة العدد فى القاهرة » ويرى أن هذا هو الذى جعل لهذه القصص قيمة خاصة فى نظر طلاب مصر فى العصور الوسطى . لأنها تجعلنا نصل الى حياة الشعب من خلال صفحاتها بصورة واضحة . كما كان القصص يقصون الحكايات والسير على العامة .

ومن القصص المشهورة قصتا عنتره والظاهر بيبرس وتعتبران من القصص الشعبية التى أعجب بها الناس كثيرا ، وتعدان الى الآن سلوى الجماهير فى بعض مقاهى الشرق الإسلامى . . وعرف قصاصو سيرة الظاهر بيبرس باسم الظاهرية نسبة الى صاحبها ، كما عرف غيرهم بما كانوا يحكونه من قصص وملاحم كالهلالية والزناتية وهكذا .

وقصة الظاهر بيبرس قصة طويلة ، تمتاز بخيال خصب ، ووقائع طريفة فضلا عن أنها تصور حياة المجتمع المصرى تصويرا دقيقا . وكانت هناك قصص أخرى ، تروى بالمقاهى مثل قصة سيف بن ذى يزن ، وألف ليلة وليلة وغيرهما كما سبقت الإشارة .

والحق أن لغة القصص السهلة كانت تستهوى العامة أكثر من أسلوب العلماء الجامد فى كثير من الأحيان ، خاصة أن مجالس القصص كانت تعتمد على رواية القصص والأساطير التى ترضى

ميول الحاضرين ، كما كان لهؤلاء القصصـاص مقدرة كبيرة على
ارتجال الحكايات المطولة ، حكى بعضهم : أنه رأى درة (١٨) تقرأ
سورة « يس » وقال آخر وكان غراب يقرأ سورة « السجدة »
فاذا جاء عند آية السجدة ، سجد ويقول سجد لك سوادى واطمان
بك مؤادى .

وخلاصة القول ان تلك المجالس كان لها دور واسع فى
الترفيه عن الناس وان كان أثرها محدودا بالنسبة لغيرها من
المجالس ، بالاضافة الى ضحالة موضوعاتها ، ونقافة أغلب
القصاص المتواضعة أو القاصرة فى كثير من الأحيان ورغم ذلك
فقد كانت وسيلة لكثير من الناس للاستمتاع بها وما يستمتعون
فيها .

هواهش الفصل الاول

(١) هو محمد بن محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي الحنفي
وكان اماما عالمنا فاضلا (ت ٨٧٩ هـ) .
(٢) ومما قاله :

يا عيين من اعيان الزمان وبا محيي بمصر سنة الشرع
ما قرع الباب عليك امرؤ الا وذاق حلاوة الفـرع
(٣) حيث يقول :

» حضر في مجلس قاضي القضاة ابن هين الدولة مع شيخه وجلس في
اواخر الناس « فقال له القاضي : اطلع ياقيم ، ورفع في المجلس وانفق من
الحكايات انه وجد كراسة فيها نكتة خلافية ، وكان يوم النيروز والطلبة يلعبون ،
فأغلق بابه واشتغل بتلك الكراسة حتى أتقنها ، وبعد أيام قلائل حضر شخص
ومعه مراسيم ، وتجمع له الفقهاء يناطروهم ، فحضر الوالي والقاضي والشيخ
والطلبة فاستفتح ذلك الشخص وتكلم في تلك المسألة فقام الشيخ بهاد الدين
وقبل يد شيخه وقال : أنا اناظره ، فاستفتح وأعاد المسألة والاجوبة الى آخرها
ولم يتوقف ، الا أن ذلك المناظر قال له في أثناء الكلام : يا فتية الله تعالى حكمان
متوقف ، فقال شيخه ، أتم الكلام ، نعم الله حكمان : حكم عدل وحكم فضل ، وكل
المناظرة وقام برفعه العوام » .

(انظر الطالع السعيد ، ترجمة هبة الله بن عبد الله بهاء الدين القطبي
(ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) .

(٤) عقد هذا المجلس في شوال سنة ٩١٩ هـ في عهد السلطان الغوري ،
فلما تكامل المجلس بدأ السلطان يتكلم مع العلماء وينكر عليهم اقرارهم للزاني
بالرجوع وهو معترف ، فقال أحد العلماء وهو ابن أبي الشريف ، شرع الله هذا .

وأرواه النقل في هذه المسألة ، فلم يلتفت السلطان الى القول في ذلك وقال : أنا ولي الأمر ولي النظر العام في ذلك . فقال له ابن أبي النسرير : نعم ولكن بموافقة الشرع الشريف وان غلبت على طرقتك وتبين ثمنهما ، فحقق منه وكاد أن سطش به في المجلس ثم السب الى آخر وسأله عن رأيه فقال : له الرجوع بعد الاعتراف فقال له السلطان هذا يكون في ذمك فقال « ايئس كنت أنا هذا في ذمة الامام الشافعي صاحب المذهب » مانهمه السلطان بقوله : « أنت جهلت ما بقي لك عقل » ثم التفت الى القضاة ووبخهم وقال : « إنكم الأربعة قوموا لا تروى وجوهكم قط » فقاموا من ذلك المجلس وهم يتعثرون في أذيالهم ، وكان لهم يوم مهول ، فانفصل المجلس مانحا وحصل فيه كل سوء من مقت السلطان لهم « ثم أنفض المجلس من غير طائل وحصل للعلماء في ذلك المجلس غابة السهولة » .

(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهر ، ج ٤ ص ٣٤٣ ، ٣٤٤) .

(٥) الحسن بن عمر بن حبيب ، تذكرة النبى ، القاهرة ١٩٨٢ ، ج ٢ ص ١١٠ .
وعقد هذا المجلس في ١٢ رجب سنة ٧٢٠ هـ وتوفي ابن تيمية سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م .

(٦) ومما قيل شعرا في هذا المعنى :

إذا كان انسى في التزامي خلوني وقلبي عن كل الهبة خال
فما ضررتني ، ن كان لي الدهر قاتلا ولا سسرني من كان في مـوال

(٧) عن تفاصيل هذا المجلس ، انظر ، ابن حجر ، انباء الفهر بانباء العمر تحقيق حسن حبشى القاهرة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ، ج ٣ ، ص ٥٧ وما بعدها .

(٨) وقد نشر معظم هذا الكتاب ضمن « مجالس السلطان الغورى ، صفحات من تاريخ مصر في القرن العاشر الهجرى » بمعرفة عبد الوهاب عزام ، ونشرته لجنة التأليف والنشر سنة ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م .

(٩) نشر هذا الكتاب أيضا ضمن « مجالس السلطان الغورى ، بمعرفة عبد الوهاب عزام السابق الاشارة اليه .

(١٠) هو محمد بن شاكربن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكربن هارون بن شاكربن صلاح الدين المؤرخ الكسى الداراني ثم الدمتقى (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ، طبعه بيروت ، ج ٣ ، ص ٤٥١) .

(١١) هو قاضى القضاة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبى بكر بن أحمد بن على بن اسماعيل المعروف بابن الرسام ، ولى قضاء حماة ثم قضاء حلب وقدم الشام والقاهرة مرارا .

(١٢) يقصد بالمواعيد ، مجالس الوعظ والذكر تعقد فى مواعيد معينة من كل أسبوع (انظر ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصالى ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج ١ ص ١٠٣ ، حاشية ٢) .

(١٣) وقيل أيضا أن يكون مالم بالعلوم الشرعية والأدب ، حافظا للكتاب العزيز ولأحاديث النبى (صلى الله عليه وسلم) وأخبار الصالحين ، وحكايات المتقدمين ، ويمتحن بمسائل يسأل عنها من هذه الفنون فإن أجاب والا منع ، كما اعتبر الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه الحسن البصرى رحمه الله وهو ينكلم على الناس فقال له : « ما عماد الدين ؟ فقال : الورع ، قال : فما آفته ؟ قال : الطمع ، قال : تكلم الآن ان شئت . ثم برزرت منه تلك الشروط مكن من الجلوس على المنبر فى الجوامع والمساجد فى أى بزمه أحب ، ومن كان جاعلا بذلك منع من الكلام فإن لم يمنع وداوم على كلامه عذر .

(انظر ابن الإخوة ، معالم القرية فى أحكام الحسبة القاهرة ١٩٧٦ ص ٢٧٣) .

(١٤) وقيل : « كان العصر الأول لا يصعد المنبر الا أحد رجلين ، خطيب فى جامع يوم الجمعة أو يوم العيد ، أو رجل عظيم الشأن يصعد المنبر يعظ الناس ويذكرهم بالآخرة » .

(انظر نفس المصدر ، ص ٢٧١) .

(١٥) وتشير المصادر كذلك أنه يجب منع النساء من حضور المساجد للصلاة ، وكذا مجالس الوعظ خوفا من الفتنة بهن ، فقد دعتن عائشة رضى الله عنها قين لها : ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما دعهن من الجماعات ، فقالت : لو علم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما أحدث النساء بعده لنعهن .

(انظر ابن الإخوة ، معالم القرية فى أحكام الحسبة ، ص ٢٧٢) .

(١٦) وقد مدحه الشهاب المنصورى بقوله :

مجا على باى بن برقوق مشرق كبد سنى لبس بينهما فرق
فان بك سباقا الى الفضل والندا فلا تعجبوا منه فوالده برقوق

(١٧) وقد عرف عند العرب من القصص نوعان: قصص العامة ، وقصص الخاصة فأما قصص العامة فهو الذي يجتمع اليه النفر من الناس يعظمهم ويذكروهم وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية أمرا معترفا به ، اذ ولى رجلا على القصص للترويج لحزبه والدعوة له ، وقد أصبح عملا رسميا بسند الى رجال رسميين ينالون عليه اجرا .

(انظر ، محمد كمال الدين ، العرب والمسرح ، العدد ٢٩٣ من كتاب الهلال ص ٨٦) .

(١٨) قيل الدرة هي البغاء وتطلق خاصة على الصفار منها (انظر ، الادفوى الطالع السعيد ، ص ٦٢ / حاشية ٣) .

* * *

الفصل الثاني

مجالات الأدب والشعر

يكفى غاية للأدب أن ينمى موهبة الذوق وحاسة الجمال وأن يربى الشخصية القومية ويصير بها فتضع بصماتها بعد هذا على سائر ما يصدر عنها من وجوه النشاط فى المجالات الأخرى .

والأدب بأشكاله المختلفة بالنسبة للفنون الأخرى يعتبر ركيزتها الثقافية ويمدها بأسباب التأثير والوان التعبير .

ولأريب أن الأدب يكون دائما مرآة أى شعب فى كل عصر من العصور يلقي ضوءا ساطعا على أحوالهم العامة ، بل حياتهم اليومية ، ويجلى كثيرا من علاقة الحاكم بالمحكوم .

هذا وقد تلهب الأزمات وقهر الحكام قريحة الأدباء والشعراء فيفسح بذلك مجالا كبيرا لأنواع كثيرة من الأدب . فكما ذكرنا فان الأدب الصادق هو الذى يكون مرآة صادقة لعصره .

وفى عصر المماليك كان الأمراء والكبراء وذوو الجاه يرون تقريب العلماء والأدباء والشعراء حلية من حلى العراقة والفضل ، ومظهرا من مظاهر الشرف والنبيل فكانوا يفسحون لهم فى جانبهم ويبدلون لهم من جاههم ، وكانت منازلهم وقصورهم مؤثلا لأولئك العلماء والأدباء والشعراء ، يجتمعون فيها كل ليلة أو كل أسبوع فيتباحثون ويتحاورون ويسمرون ويضحكون ، ويذهبون فى فنون القول مذاهب شتى ، فتلك حقيقة علمية خافية أو طرفة أدبية شاردة ، وتلك فكاهة حلوة ممتعة تروى وتحفظ ، فكانت هذه المجالس هى مجالس التفكير العلمى والأدبى ، والتدبير السياسى والاجتماعى ،

تلقى فيها الفكرة ويمحص الرأي ، وتتلاقح الافكار ، والخواطر فتأتي بالمعجب والمطرب .

وشجع سلاطين المماليك مجالس العلم والأدب حتى أصبح عصرهم زاهرا بالعلماء والأدباء ، فازدان بكثير من أفذاذ الكتاب الذين ضربوا في الأدب بسهم واتصل كثير منهم بديوان الانشاء فكانت لهم اليد العليا في تحرير التفاوض والعهود (١) .

ومن أجناس الأدب في هذا العصر النثر الفني والنظم ، وقد تجلى الأول في الرسائل الصادرة عن ديوان الانشاء باسم السلطان وترسل الى حلفائه من الملوك والأمراء ، والى الولاة والعمال في الأقاليم ، وكان يعنى بتزيين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية .

وأبرز من برع في هذا الفن هو الأديب ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م) الذي امتازت رسائله بأسلوب جذاب ، فقربه السلطان الظاهر بيبرس وعينه كاتباً للسرد ديوان الانشاء ، كما كان يختاره للقيام ببعض المهام الخطيرة .

وقد أولى المماليك - بصفتهم مسلمين ، وبرغم انهم لم يكونوا عربا - اللغة العربية عناية كبيرة لأنها لغة الاسلام ، واذا لم يكن اهتمامهم - وهم الطبقة الحاكمة - بالأدب الخالص من نثر وشعر يصرفه أصحابه في مدح أهل الدولة ، فان اهتمامهم باللغة العربية على انها لغة السياسة والادارة والعلم كان عظيما .

ولاريب في أن في عصر المماليك كله كان عصر الموسوعات في العلم والأدب والمعارف الانسانية .

وأعل من أبرز الخصائص الأدبية العامة في عصر المماليك وضوح الاتجاه الدينى من الزهد والتصوف والبديعيات ، وهى

القصائد الطويلة فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم وبالحديث الشريف .

والى جانب هذا كله كان ثمة مظاهر من اللهو والمجون والفسق والنظم فى الخمر والحشيشة ، كما كثرت فى النثر والشعر المراسلات الاخوانية والمعارضات والمناقضات والألغاز والأحاجى والمحاورات والمطارحات ويقصد بها المناظرات والاطناب فى القباب المديح والاطالة فى الرسائل والقصائد مع بروز عنصر الوصف بروزا واضحا الى جانب اغراض تقليدية كثيرة للشعر سوف نعرض لها فى حينها .

وأما من الناحية اللفظية فان الاسلوب قد ضعف وأصبح التركيب ركيكا فى بعض الأحيان ودخلت عليه ألفاظ وتعايير عامية أو قريبة منها ، وتبع ذلك أوجه البلاغة وكان أكثر ماتعاطاه الأدباء فى ذلك نثرا ونظما هو وجوه التورية .

وتذكر المصادر ان نظم الشعر أيام المماليك كان من مستلزمات الأدباء والمتأدبين ودليلا على مبلغ ثقافتهم وتأديبهم حتى يقول واحد منهم عن نفسه : « وأما شعري وإن كان ركيكا فإن له فى ضعفه شريكا » ويضيف أن شعره لا يخلو من فائدة وموعظة . وذكر بعضهم رأيه فى الشعر نظما (٢) .

وازدحمت مجالس الأدب فى العصر المملوكى - كما أشرنا - بكثير من المناظرات أو الموازونات القائمة على الحوار بين امرين يحاول كل أمر أن يفضل نفسه على نظيره أو مفاخره ، ولعل من أشهر هذه المفاخرات : مفاخرة السيف والقلم ، ومفاخرة الورد والنرجس (٣) ، وأصبحت تلك المناظرات فى هذا العصر فنا متميزا ان اتسع نطاقه وكثرت اغراضه وشاع عند الأدباء .

وكثيرا ما كان الشعر يرتجل حسب المواقف التي تعن للجالسين
من الشعراء دون اعداد ، وانما يحاول كل منهم التعبير شعرا عما
يراه فيحكى أن علاء الدين بن بنت الأعز أقام مأدبة دعا اليها بعض
العلماء والأدباء ، منهم القاضي فخر الدين بن صدر الدين المارداني ،
وبينما هم مجتمعون رأوا شابا حسنا يسبح فيتلطخ بالتراب ، فطلب
صاحب المأدبة أن ينظم بعض الحضور في هذا الشاب شيئا ، فقام
ثلاثة منهم الى ناحية وانفرد فكان الذي نظموه في ذلك جيدا (٤) .

واستحسن الحاضرون قول ابن بنت الاعز ، فهو أحسن
المقاطيع وأما مقاطيع فخر الدين ففي ثانيها فساد للمعنى ، لان الليل
ما يطل على الصباح وانما الليل يطل على النهار ، والصباح يطل
على الليل ، وان كان هذا الاعتراض لم يعجب بعضهم .

وهكذا نرى ان ذلك النظم - رغم اختلاف الناظمين - قريب
الاتفاق ولم يطلع أحد منهم على ما نظم صاحبه الى ان اتم كل منهم
ما نظمه .

وفي إحدى مناظرات صدر الدين بن الوكيل المعروف بابن
الخطيب والذي كان مناظرا مستحضرا ، لايقوم بمناظرة ابن تيمية
أحد سواه ، تناظر يوما ، ولما حميت المناظرة استشهد ابن تيمية
ببعض الحاضرين فأنكر مناظره عليه ذلك شعرا (٥) .

وحدث أن دس أعداء المصدر الى السلطان الناصر قصيدة
ذكروا أنه هجاه بها ، فأحس الشر وهرب الى غزة « وعندما دخل
على الناصر فقال له يكتمر الحاجب بس الأرض فامتنع وقال : مثلي
لايبوس الأرض الا لله » ولما عاتبه السلطان على ما بلغه من خبر
القصيدة أخبره ان أعداءه وحساده نظموا ما أرادوا على لسانه ،
وأخرج قصيدة على وزن تلك القصيدة المنسوبة اليه في مائتي بيت
وأنشدها على السلطان فصفع عنه وعظم عنده .

وعرف كثير من الأدباء بطول النفس فى المناظرة ، وبالأذهن
الشاقب والذكاء المفرط ومنهم من وصف بالظرف حتى سمي «الروضة»
فرط ظرفه . كما عرف منهم الكثيرون بحب المطارحة والميل الى
لدعاية والتظاهر بالهزل فينظمون بشكل تلقائي ما يعبرون به عن
موقف عن لهم فى حياتهم اليومية ، ولم يسلم العلماء أنفسهم من
دعاية الشعراء والأدباء فقال أحدهم مداعبة لطيفة فى الشيخ زين
الديين عبد الباسط بن الغرس خليل بن شاهين وهو من العلماء
لفصلاء (ت ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) بسبب أن كان له أنف كبير (٦) .

ويدل ذلك على كثرة الفكاهة فى الشعر ، فى ذلك العصر ، كثرة
ظاهرة ، كما نرى فى شعر أبى الحسين الجزار (ت ٦٧٩ هـ /
١٢٨٠ م) وشعر سراج الدين الوراق (ت ٦٩٥ هـ / ١٢٩٦ م) وكذا
شعر نصير بن أحمد بن على المناوى المصرى (ت ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م)
الذى تعاطى نظم الشعر مع عاميته ، وكان يرتزق بضمان
لحاصات (٧) .

وكان بينه وبين السراج الوراق وابن النقيب (ت ٦٨٧ هـ /
١٢٨٨ م) وابن دانيال وغيرهم من المصريين مداعبات كثيرة (٨) .
ومرة أصيب السراج برمد فى عينيه فأهدى الجزار اليه تفاحا
يكمثرى وكتب مع ذلك بيتين من الشعر (٩) .

ومن المداعبات اللطيفة أيضا ما حدث عندما وقعت وحشة بين
شهاب أحمد بن الشيخ على المقرئ ، وعلى بساى الذى سماه
الأولى « زلابية » مضافا الى اسم شخص من الأتراك كان مضحكا
يعبت عليه الناس وينادونه زلابية فيرجمهم فلما شاع ذلك بين الناس
أخذ بعض الشعراء هذا وقال مداعبة شعرية لطيفة (١٠) .

وكثرت فى ذلك العصر النوادر المضحكة التى تنم عن ذهن صاف وميل لنيل السرور واشاعته بين الناس ، بحيث يمكن القول ان ما انتشر من نوادر فى ذلك العصر كان على نمط مايحكى عن جحا ، ويحكى عن أحمد بن محمد ابن عثمان صفى الدين بن القاضى شمس الدين بن الحريرى (ت ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م) أنه كان كثير التندر وكان من نوادره انه «قال : لغلame يوما وقد عثرت بغلته لاتعلق عليها ثلاثة أيام عقوبة لها ، فجاء اليه فى آخر النهار ، فقال اذا لم نعلق عليها تحمر فقال : علق عليها ولا تقل لها انى أذنت » (١١) .

وكان طبيعيا أن أصحاب تلك الطرائف والنوادر كانوا على جانب كبير من خفة الروح وسرعة البديهة ، مما يحدث تجاوبا كبيرا بينهم وبين سامعيهم . وهم فى الغالب يكونون من بين الأدباء والشعراء الذين لديهم استعداد فطرى لذلك (١٢) .

والواقع أن كتب التاريخ والأدب التى تتناول عصر سلاطين المماليك تذخر بالكثير الواقف من تلك النوادر والمداعبات التى سادت ذلك العصر والتى لا يتسع المجال هنا للاحاطة بها ، وانما اكتفى ببعض الأمثلة للدليل على انتشار الفكاهة فى الأدب نثرا وشعرا .

وانتشرت الفنون الشعرية المختلفة فى العصر المملوكى شأنه فى ذلك شأن كثير من العصور الاسلامية السابقة ، وان كان أكثر تلك الفنون انتشارا ورواجا هو الموشح والدوبيت والمواليا والزجل ، بالإضافة الى وجود غيرها من الفنون الشعرية الأخرى (١٣) .

وكما تنوعت فنون الشعر ، تنوعت أيضا أغراضه وموضوعاته فى عصر المماليك بحيث يصعب حصرها فى تلك الحقبة بالإضافة الى تلك الأغراض التقليدية من وصف ومدح وهجاء ورثاء

وغيرها • ومن الشعراء من كانوا يقترحون عليه الأشعار فى المهمات
فيأتى بها على أحسن وجه • فقد نظم شعراء العصر المملوكى الشعر
فى مناسبات لاحصر لها - وما أكثر مناسباتهم - بل كانوا يقرضون
الشعر فى مواقف أخرى عديدة ، نعرض لها عند الحديث عن فنون
الشعر التى كان أبرزها فى ذلك العصر :

الموشحات :

كان الموشح فى بادئ الأمر من القول الفصيح قريبا من نظم
الشعر ، غير أنه تطور بعد ذلك حتى صارت العامية فى خرجاته
تكاد تكون ضرورية فيه ، وقد أكثر شعراء العصر المملوكى من نظم
الموشحات ولكن بلا إجابة ، كما أكثر الناثرون من وضع المقامات
بلا براعة •

ورغم أن الموشح كان موطنه الأول فى الاندلس فإن المشاركة
« قد برعوا فيه » وأشهرهم فى العصر المملوكى ، الصلاح الصفدى
الذى عارض موشحة ابن زهر (ت ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م) (١٤) •

وبرع كذلك فى فن الموشح صدر الدين بن الوكيل (ت ٧١٦هـ /
١٣١٦م) وقد جمع ابن الوكيل موشحاته وسماها « طراز الدار »
وأشار بذلك الى ديوان ابن سناء الملك (ت ٦٠٨هـ / ١٢١٢م) فى
الموشحات فإنه كان يسميها « دار الطراز » فقلبه ابن الوكيل ، كذلك
فإن من أصحاب دواوين الموشحات فى العصر المملوكى الأديب
الشاعر عمر بن مسعود بن عمر سراج الدين (ت ٧١١هـ / ١٣١٢م)
ومن الموشحين أيضا عيسى بن محمد بن محمد بن قراجا بن
سليمان بن مارق السهروردى الواعظ شرف الدين أبو الرضى
(ت ٧٢٩هـ / ١٣٢٩م) (١٥) •

وقد تعددت أغراض الموشحات ، فتناولت كثيرا من جوانب حياة الناس في العصر المملوكي ، وإن مال أكثرها الى وصف مجالس الشراب والخمر والفتك وملذات الحياة (١٦) .

وواضح من ذلك ان الموشح يميل الى اللغة العامية ، ولعل هذا هو ما جعل الموشحات أكثر إستهواء للناس ، لأنها أقرب الى أذهانهم من نظم الشعر فلقيت اقبالا منهم وتفنن فيها الشعراء .

ولدينا موشحة طويلة من نظم الأديب الشاعر شهاب الدين أبو العباس العزازي التاجر بقيسارية جهار كس بالقاهرة (١٧) . (ت ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م) وكان له نظم فائق ولاسيما نظمه للموشحات وقد كتبها يعارض أحمد بن حسن الموصلي (١٨) . وهي طويلة وكما نرى فإنها تدعو الى اغتنام الملذات وتدعو الى الانهماك في الشراب ، فتذكر الكتوس والعاملين على تقديمها ، وتشير الى أنواع من الشراب كالراح ، وتصفه بأنه حياة النفوس ، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على ما كان سائدا في ذلك العصر من اللهو والمجون حتى يدعو اليه الشعراء والأدباء دعوة صريحة دون موارد .

الدوبيت (١٩) :

وشاع من أدب ذلك العصر ضرب آخر من ضروب الموشحات يصاغ في بيتين على وزن «الدوبيت» الذي اشتهر عند الفرس ، وقد انتشر الدوبيت بين شعراء العصر المملوكي (٢٠) . ومن أشهر من برع في مجال الدوبيت الشاعر الزجال ابن سودون (٢١، ٢٢) .

وله في هذا المجال وصف خيالي يمثل حرمان الشاعر وما يعانيه من الفقر والعوز فهو لم يأت بهذه المشبهات من الرغيف والبيض

والجبن عبثا ولا قالها عفوا ، ولا شك ان هذا الاتجاه يصور لنسب
أحوال المجتمع المصرى وماتعرض له كثيرا من معاناة فى عصر
المماليك (٢٣) .

الموالي (الموال)

وهو ضرب آخر من الموشحات الا أنه أردأ أصنافه وهو
لا يلتزم فيه بشئ ، يسوده الجناس اللفظى ، قيل ان أول من قاله
جوارى البرامكة ، وقيل انه جرى على السنة الاماء والعبيد فى ندب
مواليهم والبكاء عليهم . ويعتقد أن اسمه جاء من ان احدى الجوارى
كانت تقول وامواليه فاشتق من ذلك ، ولكن يقول الأدباء ان الأقرب
الى الصحيح أنه سمي بالموال لموالاة اشطره فى قوافيه وجناسه
اللفظى .

وقد قيل الموال فى عصر المماليك فى أغراض متعددة فمنها
ما قيل فى مدح الأمراء ، وفى عهد السلطان برقوق أظهر الأمير يلغا
الناصرى سيف الدين عصيانه للسلطان - الذى كان قد أمر بعزله -
وحاصر القلعة وكان النائب بها ناصر الدين المهمندار الى أن أخذها
بسهولة فحينئذ مدحه البهاء خضر بن سحلول فى مواليا (٢٤) .

وأحيانا كان الموال يتناول ذكر عدد من السلاطين المماليك
مرتبا منذ قيام الدولة على غير قوال مثال ذلك ما قاله جمال الدين
أبو المحاسن يوسف ابن الأمير الكبير سيف الدين تغرى بردى
(ت ٨٧٤هـ / م) (٢٥) .

ولدينا مثل ذلك مما أورده ابن اياس وهو يتضمن ملوك الترك
والجراكسة دون اسماء أولادهم على الترتيب واستمر حتى أوائل
الدولة العثمانية حيث أشاد بسلاطينها الأوائل (٢٦) . كما أورد

المؤرخ ابن اياس مواليا من نظمه فى السلطان الغورى عندما خرج فى موكب حافل بعد أن عوفى من مرض فى عينيه ، وكان ذلك فى شعبان سنة ٩١٩هـ (٢٧) .

ولدينا أيضا بعض المواليا لعز الدين بن السويدي (ت ٦٩٠هـ / ١٣٩١م) يمدح فيها شخصا ويذكر محاسنه (٨) ٢٠

ويعتبر ابن سودون اشهر من قالوا المواليا فى اغراض متعددة ، اختلفت عن اغراض المواليا الأولى ، فقد ضمنت مواليه اغراضا هزلية تكشف لنا عن ظروفه القاسية ومعاناته الشخصية ، وبطبيعة الحال هو واحد من الشعب فهو يوضح لنا شريحة من المجتمع المصرى فى ذلك العصر (٢٩) .

ونرى ابن سودون فى هذا الهزل يعتمد على فن المفارقة وسرد البدييات على شاكلة أدعياء المعرفة سردا يلغى فيه المنطق المستقيم الغاء ويشبه البعض بأنه هو « جحا » مصر فى عصره ، فهو يدفع الناس بهزله دفعا الى الضحك كأنه مهرج من مهرجى التمثيل الهزلى (٣٠) .

وهكذا ابتدع ابن سودون اغراضا جديدة للمواليا فقصده الى السخرية والاستهزاء من خلالها ، وانتقل بها من الغرض الخاص الى الغرض العام ، إذ عبر فى كثير من الأحيان عن حياة مجتمعه وما فيها من شكائيات ورغبة فى التنفيس عن مآسيه .

وخلاصة القول فان هذا المضرب من ضروب الأدب وهو المواليا قد حقق أهدافه فى التخفيف من معاناة الناس فى العصر المملوكى ، فكان وسيلة من وسائل الترفيه عن فئات كثيرة من الشعب وجدت فيه متنفسا لها يعبر عن رغباتهم ويرفع شكواهم .

بلغت عامية سهلة بعيدة عن فصاحة الشعر وتكلف الشراء حتى كان الناس يحفظونها شفاهة كما نرى البعض من الظرفاء يفعلون ذلك في عصرنا .

والحق ان ابن سودون كان مبدعا في مجال المواليا وان كان عرف أكثر ما عرف بأنه من أشهر الزجالين في العصر المملوكي والزجل لون من فنون الكلام نعرض له فيما يأتي :

الزجل :

ويقصد به رفع الصوت والجلبة فيه ، وخص به التطريب ، وهو ضرب من الموشحات أقصر نظاما وأردأ لفظا ، اذ يجنح به نحو العامية لزوما ، قيل انه نشأ بالاندلس في أول القرن السادس للهجرة ثم انتقل الى المشرق وانتشر بين العامة ، اذ رأوا فيه ما يغنيهم في التعبير عن احساساتهم بلغتهم الخاصة - شأنه في ذلك شأن المواليا - عن مشقة الأخذ بالأدب الفصيح وتكلف عناء الشعر ، وذلك ما ساعد على انتشار الزجل وجعله مادة أساسية للغناء حتى كادت القصائد والموشحات باللغة الفصحى تتوارى بازائه .

ويكاد ينفرد العصر المملوكي بكثرة الزجل والزجالين ، بحيث كان ينظم في اغراض عدة واوزان يصعب حصرها ، حيث كانت تختلف باختلاف الفاظه وطريقة نظمها ، وقد اشتهر بالزجل من المصريين في عصر الملك الناصر ، أبو عبد الله الغباري .

وغالبا ماكان الشعراء يجمعون بين نظم الشعر والزجل والبليق والآخر عبارة عن مقطوعات شعرية قصيرة كالزجل ، حتى اشتهر كثير منهم بالشاعر المزجال (٣١) ، ومن هؤلاء

عبد الكريم على السهروردي القوصي الأديب الشاعر الزجاجي
ويحكى انه طلب جوزة هدية من أحد التجار فلم يرسلها له ، فكتب
اليه زجلا بهذه المناسبة (٣٢) .

ومن ذلك يمكن التعرف على الجانب الترفيهي للناس في
عصر الماليك ، حتى الأدباء والشعراء الذين كانت لهم مجالس
أنس وتعاطى المكيفات وما يصحب ذلك من جلسات السمر والا
فلماذا يطلب ذلك الأديب أن تهدي اليه الجوزة التي لا يحلو
استخدامها الا مع جماعة حتى في عصرنا الحاضر .

وبرع كذلك من الشعراء الزجاجيين ، على بن مقبل بن عبد
الخالق الحموي التاجر الزجاجي (ت ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م) وتعاطى
الأدب ونظم الشعر وغلب عليه نظم الأزجال وجمع أزجاله في ديوان
في مجلدين وانتهت اليه الرياسة في هذا الفن وأنشد زجلا جيدا
في المؤيد صاحب حماة في حضرة ابن نباتة والصفى الحلبي .

وممن برع كذلك في هذا المجال ابراهيم المعمار الشاعر
(ت ٧٤٩ هـ / ١٢٤٨ م) وهو أديب ظريف عرف بسلام المورى
المصرى ، وتد برع في الأزجال والبلاليق بحيث كان غاية لاتدرك
وله ميل للمجون ، مما ينعكس على كثير من أزجاله التي تعف النفس
والقلم عن ذكرها .

وتعددت أغراض الزجل وتنوعت - كما سبقت الإشارة - حتى
أنه وجد من نظم في الرثاء زجلا طويلا ، وحتى الرثاء لم يخل من
الفكاهة وبث الضحك ، فمن أطراف الأزجال التي وصلتنا عن عصر
الماليك زجل رثى فيه بعض الزجاجيين الفيل « مرزوق » الذي أهده
تيمور لذك الى سلطان مصر (٣٣) . وهو ما يوضح تلك الروح

الفكرة لأدب العصر وكان من الزجل ما قيل فى وصف خروج السلطان الأشرف قايتباى الى الشام ثم عودته بعد غيبة دامت نحو أربعة أشهر (٣٤) من سنة ٨٨٢هـ / ١٤٨٧م لتأمين أحوال البلاد هناك فقال الشيخ بدر الدين محمد بن الزيتونى قطعة زجلية اعتبرت من محاسن هذا الفن ، كلها غرر وجناس تام ، وهى طويلة جدا تدور كلها حول مدح السلطان قايتباى وذكر مناقبه ووصف ما ألم به من مرض أثناء تلك السفارة ، وأشاد بما حققه فيها من انجازات .

ولابن الزيتونى مرثية فى السلطان قايتباى وفيها يعتذر لسامعيه من أصدقائه وأقربائه الذين يغشون مجالسه ويحلبون منه أن ينظم الزجل وهو لا يستطيع أن يقابى عليهم خوفا من أن يرموه بالعجز ، وهو يستحى أن يظهر الضعيف من نظمه وينسب جماله للقبه زيتونى ، ثم يطلب ممن يجد فيما يقول عيبا أن يستقر ذلك الغيب ويكسب ثواب ستره ، ملتصقا لنفسه العذر بأن العصمة لله تعالى (٣٥) . ويبدو أن هذا الأديب الزجال كانت تسيطر عليه تلك الفكرة دائما وهى الاعتذار لسامعيه وتجاوزهم عن زلاته فى النظم فيقول فى قطعة زجلية أخرى مايفيد نفس المعنى (٣٦) .

وله مرثية زجلية كان يرثى بها أهل مصر عندما وقع فيها الطاعون سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م ، وانتاجه من الزجل وفير ، لامجال للاستطراد معه ولكن أهمية زجله فى الغالب ترجع الى مايتضمنه من تصوير لحياة الناس فى عصر المماليك وتتبع سفرات السلاطين والأمراء وماكان يصدر عنهم من اجراءات تجاه الرعية فقد تناول بعض الأدباء تلك الاجراءات وتحدثوا عنها شعرا أو زجلا .

فمنهم من ذكر ماتم من توسيع الطرق الضيقة وكشف أبواب المساجد والمدارس وكذا الأمر باصلاح الأبواب ودهانها ، وفى ذلك

أيضا إشارة الى أن الناس كانوا يمثلون لتلك الأوامر فلا يعصيها أحد ومنهم من أشار الى تزيين المدن والأسواق في المناسبات - وهي كثيرة - واقامة الأسمطة ودق الكوسسات عند دخول مواكب السلاطين .

وقبل أن نفرغ من الحديث عن الزجل كلون من ألوان الترفيه الأدبي في عصر سلاطين المماليك لايفوتنا أن نسجل أن زجالي هذا العصر - كغيرهم من زجالي العصور السابقة - كانت لديهم روح فكهة خفيفة ، كما كانت لديهم لفتات ذهنية بديعة تجلت في انتاجهم الذي انتشر في ذلك العصر وقد عرضنا بعض الامثلة منها فيما سبق .

ونشير في هذا المقام الى شخصيتين من أكبر زجالي العصر ، كان الزجل الفكاهي والهزلي قاسما مشتركا بينهما ، كما أن كليهما نجح في رسم صورة واضحة لظروف عصره من خلال انتاجه الأدبي الذي حاز اعجاب الجمهور واستهوى أفئدة الناس وأولهما هو الشاعر الزجال ابن دانيال ، الذي صور في مسرحيته « طيف الخيال » الحياة الاجتماعية والثقافية بمصر في عصره تصويرا هزليا ساخرا وسوف نعرض لذلك بالتفصيل فيما بعد .

أما الثاني فهو ابن سودون الذي عرف أنه أكثر الشعراء الزجلين الذين غلب عليهم الزجل حتى ينسبه كثيرون اليه لا الى الشعر ، خاصة المزجل الهزلي الساخر الذي طبعست نفس ابن سودون عليه ، وله فيه باع طويل يكاد لا يدانيه فيه أحد وله ديوان باسم « نزهة النفوس ومضحك العبوس » وقد تنافس الظرفاء في الحصول على شعره الذي يذهب جميعه مذهب الضحك والفكاهة .

وعنى بجمع هذا الشعر في ديوانه ، بل أضاف اليه طائفة من الحكايات الفكهة . والحق أن ابن سودون شخصية طريفة في

تاريخ الأدب المصرى الشعبى ، لأنه يفصح عن مزاج المصريين فى هذا الجانب الفكاهى الذى اشتهرت به مصر فى عصورها المختلفة .

والواقع ان الشعر بصفة عامة كان بضاعة رائجة فى عصر سلاطين المماليك كان له أربابه الذين عج بهم ذلك العصر على اختلاف مستوياتهم الثقافية والعلمية وكان الناس يستحسنون من الشعر الحسن ويستهنون منه ما كان غير ذلك بمقاييس عصرهم مدركين الغث من السمين ، مقدرين لكل شاعر منزلته واجتهاده فكانوا يفاضلون بين شاعر وآخر ويضعون الشعاع فى المرتبة التى يستحقها .

حقا لقد كانت مجالس الشعراء واجتماعاتهم ومناظراتهم - التى كانت تقم فى اطار مجالس أدبية عامة أو خاصة - تقدح أفكارهم وتشحذ هممهم نحو الاجادة مستلهمين من تشجيع الحكام المماليك وجمهور المشجعين دافعا لهم وحافزا .

وكما سبقت الاشارة فان شعراء العصر المملوكى قد نظموا الشعر فى أغراض تقليدية عديدة فشملت الرصف والمديح والهجاء والرثاء وغيرها وفى ظل هذا المفهوم للشعر وذلك الاطار لم يكن الشاعر يشكل الصورة وفق ما يوافق هواه ، لأن ذلك يحتاج الى رؤية مغايرة ، وانما كان ينقل عناصرها ويقيسها على الصور السابقة ويقارن بها ، فليس للشاعر - بعد ذلك - فضل السبق والابتكار ، وانما له فضل التحوير والاضافة .

ويمكن أن نضيف انه فى عصر سلاطين المماليك قد تعددت أغراض الشعر بفنونه بتعدد واختلاف المواقف فى الحياة اليومية للناس ، فغالبا ماكان الشاعر يرتجل الشعر أو الزجل حسب المواقف التى قد يجد نفسه أمامها مهما كان موضوعها ومادتها .

وقبل أن نعرض لبعض أغراض الشعر في عصر الماليك فإن من الطريف أن نوضح رأيا من آراء بعض الشعراء المجيدين في الشعر ، فقد كان بعضهم يترفع عن هذا الفن - رغم حبهم له - ولم يرضوه بضاعة ، ولا اتخذوه صناعة ، بل دعاهم اليه - في رأيهم - محبة الأدب وسجية العرب ويدل على ذلك قول عمر بن عيسى مجير الدين بن الممطى وهو أمير شاعر (ت ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م) (٣٧) .

وجدير بالذكر أن المصادر التاريخية والأدبية تذخر بأمثلة كثيرة ونماذج متعددة من إنتاج هؤلاء الشعراء في العصر المملوكى متناولين أغراضا شتى مما أدى الى امكانية الاختيار وهذا فى نفس الوقت أمر ليس سهلا فكما نرى أن الوفرة أحيانا تستلزم حذرا وجهدا كالذى تتطلبه الندرة .

لاريب أن الوصف فى شعر العصر المملوكى كان من أهم أغراض ذلك الفن انتشارا ، فقد كان الشعراء يصفون معظم ماتقع عليه أعينهم عن طريق الارتجال فشمّل الوصف أشياء كثيرة حتى التافه منها كان مجالا لشعرهم (٣٨) .

وعبر بعض الشعراء عما يتمنون ويشتهون الحصول عليه حتى قال أحدهم وهو أبو الحزم القوصى شعرا يرجو فيه مروحة (٣٩) .

ووصف الشيخ بدر الدين الزيتونى ميدانا ومايجرى فيه من أسباب اللهو والسرور وصفا جميلا دقيقا يصور لنا مكانا من أماكن الفرجة والاستمتاع (٤٠) .

وتشير المصادر الى عادة تفشت فى العصور الوسطى وهى أن البعض من الناس على اختلاف مراكزهم كانوا يهوون غلمانا

ومردانا يشغفون بهم ويهيمون ، وكان ذلك مجالا يخوض فيه الشعراء بلطف ودعابة ، ولدينا الكثير من الأمثلة نذكر بعضها منها مع الاكتفاء بما كان عفيفا يقتصر على التلميح ، ونغض الطرف عن القول الصريح حياء . ومن ذلك ما قاله الحسن بن هبة الله الالفوى (ت ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م) وهو أديب شاعر (٤١) .

وقال عبد الملك بن العجمى الحلبي (ت ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م) يصف مليحا كان فى عنقه شامة اسمه العز حيث يتغزل فيه شعرا (٤٣) .

ومن قول الناصر محمد بن قرقماس الحنفى (ت ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧ م) فى وصف مليح من هواة ركوب الخيل يصفه كأنه ظبى (٤٣) .

واستغل أحدهم وهو فخر الدين ابراهيم بن لقمان (ت ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م) اسم مليح يدعى غلمش فقال فيه شعرا وقد باح باسمه لأول مرة حيث يبدو أنه كان يهواه (٤٤) .

وقد دأب بعض الشعراء على أن يتبادلوا النظم مطارحة فيما بينهم حتى أن البدر يوسف بن لولو (ت ٦٨٠ هـ / ١٢٨٢ م) وهو شاعر مشهور من شعراء الدولة الناصرية يكتب الى آخر كان يهوى غلاما اسمه جارج مستعملا التورية فيما يكتب (٤٥) .

وكان لبعض الشعراء تصانيف عديدة فى هذا المجال منها « حسن الاقتراح فى وصف الملاح » ذكر فيه مؤلفه ألف مليح وصفاتهم وقد تناول الوصف كذلك مجالات أخرى تتسم بالجد ، كما تناول جوانب أخرى من حياة الناس ، والافتخار بالوطن ومما قيل فى ذلك ما نظمه زين الدين عمر بن السوردي (ت ٧٩ هـ / ٧٨٨ م)

وهو يصف حسن مصر ، وكان بذلك يعارض ماقاله ابن زريق
الكاتب فى بغداد (٤٦) .

واجمالا يمكن القول بأن شعراء العصر المملوكى قد وصفوا
حياة الناس فى عصرهم حيث كانت الأعياد والمناسبات المختلفة وكذا
أنواع الرياضات المختلفة كالفرسية والعباب الكرة والسباحة
وغيرها من وسائل الترفيه فى عصرهم كالنرد والشطرنج وكذا
الصيد . وأماكن اللهو والمتنزهات وأماكن القصف والشرب
والولائم والأسمطة وسوف يحين تناول ذلك فى مواضع قادمة من
هذا البحث .

كما كانت المجاعات والأزمات والأوبئة التى اجتاحت البلاد
فى بعض الأحيان مجالا للشعراء عبروا عنها بأشعارهم وبأزجالهم .

وبالإضافة للوصف فقد برز المديح كغرض من أغراض الشعر
فى العصر المملوكى فأفردت له القصائد الطويلة واسترزق بعض
الشعراء من وراء ذلك ونالوا الأعطيات والهبات فى أغلب
الأحيان .

ونشير هنا الى نوع من المديح تناولته أقلام الشعراء تمشيا
مع تلك النزعة الدينية التى سادت فى عصر المماليك ونعنى بها
مدائح النبوية وهى قصائد طويلة عرفت بالبديعيات التى تناولت
مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) منها مابلغ ذروة البراعة فى
شعر البوصيرى (ت ٦٩٥ هـ / ٢٩٦ م) الذى عاش فى عصر
السلطان الظاهر بيبرس ، وامتناز شعره بالرصانة والجزالة ويكثر
فيه مراعاة البديع ، ومن شعره قصيدة البراءة أو البردة وهى من
أفضل مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم (٤٧) .

وقد نقشت البردة على جدران مسجده بالاسكندرية ،
وللبوصيرى قصيدة أخرى همزية فى مدح الرسول ، لا تقل عن
البردة فى نصاعتها وجودتها (٤٨) وقد توافقت نفس البوصيرى
وطبائعه مع ما كان ينظم من قصائد فى المدائح النبوية حتى انه
عندما نصرف فى مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم ، وبأشر بلبيس
قصة الشرقية لم ترق فى نظره هذه الوظيفة لما رآه من خيانة
بعض العمال وسلب أموال الدولة فقال فيهم قصيدة مشهورة (٤٩) .

ومن الشعراء من نظم مدائحه على حروف المعجم مثل قصيدة
نظمها محمد احمد بن عبد الرحمن الكندى الدشناوى (٥٠) .

وهناك شعراء غلبت على شعرهم المدائح النبوية ، حتى ان
بعضهم نظم منها ما يزيد على الألفى بيت ، ومنهم من أوصى أن
تدفن معه مدائحه وحرص البعض على جمع تلك المدائح فى مجلدات ،
حتى وجد فى تركته سبعون مجلدا وقيل خمسة وتسعون .

والى جانب تلك المدائح النبوية انتشر ايضا الشعر الوجدانى
الصوفى الذى كان ينظم ارتجالا . على أن السلاطين والأمراء
أنفسهم كانوا محل اطراء ومديح من جانب الشعراء ، ولدينا الكثير
من الأمثلة على ذلك نسوق منها بعض ما قيل فى السلطان الظاهر
بيبرس عندما عبر الفرات وهزم التتار سنة ٦٧١ هـ (٥١) .

وكذلك حظى السلطان الغورى بمدح كثير من الشعراء -
كغيرة من السلاطين - وان كان هو ايضا أكثر السلاطين هجوا
وسوف نوضح ذلك فيما بعد ، ومما قيل مدحا فى هذا السلطان
قصيدة طويلة كلها مدح واطراء للسلطان الغورى ، وهو صاحب
مجالس الأدب ، حيث واظب عليها وحضرها العلماء والأدباء (٥٢) .

وكثيرا ما كان الشعراء يمدحون السلاطين والأمراء كلما انتهى
أحدهم من عمارة مسجد أو مدرسة أو خانقاه ، فقد نظم الشعراء
شعرا أشادوا فيه بذكر السلطان بيبرس فى حفل افتتاح المدرسة
الظاهرية ، منهم الأديب أبو الحسين الجزار والسراج الوراق ،
والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب (٥٣) .

وقيل فى مناسبة مماثلة فى عهد السلطان الظاهر برقوق
عندما افتتح مدرسة بناها بين القصرين (٥٤) .

ونرى ابن اياس لا يفوته ان يثنى على السلطان الغورى بعد
فراغه من بناء مصطبة بالحدوش ليجلس فوقها للمحاكمات (٥٥) .

وان كان كثيرا ما لا يخلو شعر ابن اياس فى السلطان الغورى
من هجاء أو تندير ، وعندما سقطت إحدى منارات مسجد السلطان
حسن سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م) واعتبر الناس ذلك نذيرا بزوال
الدولة ، سارع الشيخ بهاء الدين أبو حامد بن على بن محمد
السبكى (ت ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م) ليجعل من ذلك بشير سعد
للسلطان والدولة (٥٦) .

وفى رمضان من سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م) عندما احترق المسجد
النبوى الشريف بفعل صاعقة الحقت به خسائر كبيرة قال بعضهم
فى ذلك شعرا (٥٧) .

ويقابل المدح فى الشعر الهجاء ، فقد هجا كثير من شعراء
العصر السلاطين والأمراء ، بل هجا الشعراء بعضهم بعضا فى
كثير من الأحيان وكثيرا ماتعرض الشعراء لمسخط السلاطين أو
الأمراء نتيجة لما نالهم من هجاء ، حتى ان الشاعر جمال الدين

السلمونى قد دخل السجن عندما هجا قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ثم أفرج عنه السلطان الغورى فى رمضان سنة ٩١٣ هـ / ١٥٠٨ م .

واشتهر كثير من الشعراء بالهجاء حتى أصبح أحدهم يلقب بالخطبة لكثرة هجائه وأدبه السلطان لذلك ونغاه .

وقد ورد فى بعض الأخبار أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من عاقب على الهجاء ، وكان بعض الشعراء ينكرون الهجاء ويلومون أصحابه شعرا كما حدث للشاعر جمال الدين السلمونى عندما هجا القاضى معين الدين بن شمس وكيل بيت المال (٥٨) .

وكان القاضى معين الدين قد شكى السلمونى الى السلطان الغورى لهجوه اياه فأمر السلطان بتأديبه فوضع فى الحديد وسيق الى بيت قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة « وادعى عليه ، فضربه عبد البر وعزره وشهره على حمار وهو مكشوف الرأس .

ومع ذلك لانتصور أن كل من هجا عوقب فكم من هجاء مقذع دون أن ينال صاحبه أدنى عقاب ، ويستبين لنا أنه فى هذا العصر قد أصبح القضاء والقضاة حينذاك محلا للتندر والنكتة ، بل لقد اتهم القضاء فى ذمتهم وقبول الرشوة اتهاما صريحا (٥٩) .

والواقع ان واقعة الشاعر السلمونى مع القاضى ابن الوكيل ما كانت لتستوجب ما ناله من عقاب بتلك الصورة المشينة من ضرب وتمزير وتشهير ، الا لأنه كما يفهم من المصادر كان كثير الهجاء حتى هجا القاضى عبد البر بن الشحنة نفسه واتهمه بكل كبيرة علانية دون موارد ، وكانت بينهما خصومة استغلها ابن الشحنة فى الانتقام منه ، وان كان السلطان الغورى له ميل وعناية بالسلمونى فى الباطن (٦٠) .

والمعروف أن السلطان الغورى كان عليلاً بعيذه ، فلما اشتد عليه المرض « سامح أرباب المصادرات بما عليهم من الأموال » ولم يتم ذلك بل عاد يطالبهم بها ، فكان ذلك محل تنذر وهجاء (٦١) .

وقد تعرض الأمير طشتمر المعروف بحمص أخضر لما أشيع « قتلته سنة ٧٤٣ هـ / ١٣٤٣ م للسخرية والتهكم من جانب الشعراء الذين استغلوا هذا الذنب أو هذا اللقب (٦٢) » .

ولا يخفى ما فى تلك الأبيات من تورية ، وإن كنا لنعجب إن معظم ما قيل من هجاء كان بعد موت من تعرضوا له ، خاصة إذا كانوا من السلاطين والأمراء .

ويبدو أن تلك هى طبيعة بعض الشعراء والأدباء وأرباب القلم فى كثير من العصور الذين يناون بأنفسهم خوفاً من تعرضهم للبطش والعقاب فيلجأون الى التورية فى كثير من الأحيان ، مستغلين مهارتهم فى اللعب بالألفاظ ، وقد أكثر شعراء العصر المملوكى من استخدام التوريات اللفظية واشتهر كثير منهم بذلك .

وقد ساعدتهم صناعتهم والقابهم كثيراً فى ذلك كالسراج الوراق والحمامى (ت ٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م) وأغلبهم كما نرى من أصحاب الحرف الذين يميلون للنكتة ، وبدخولهم فى آفاق الشعر قد مزجوه بروحهم الخفيفة .

وكتب نصير الدين بن الحمامى الى السراج الوراق ، وكان السراج مقيماً بالروضة يتنزه شيئاً من ذلك (٦٣) .

واتسعت التوريات فيما عرف بالألغاز والأحاجى التى انتشرت فى ذلك العصر ، وهى « باب من أبواب الصناعة المعنوية (الاستعارة) والصناعة اللفظية (التورية) مع شئ من التعمية فى سياق المعنى » .

ومن طريف ما جاء فى ذلك قول ابن الصائغ فى الشيخ علاء الدين بن دقيق العيد مستغلا اسمه ، متندرا على ذقنه (٦٤) . ويدل ذلك من بعض الوجوه على أن تلك الروح الفكهة الخفيفة كانت منتشرة بين الناس فى العصر المملوكى ، وكل شىء تقع عليه أعين الشعراء والأدباء كان مجالا لتورياتهم والغازهم ، فمن ذلك ما قاله نور الدولة على بن أبى المكارم المصرى الشاعر (ت ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م) وهو يلغز فى كوز الزير (٦٥) .

وهذا اللغز من نظم محبى الدين بن عبد الظاهر ، وهو يستغل ماتعطيه كلمات (الأذن ، والحب ، والصب) من معان متباينة . وكثيرا ما يدور اللغز حول صفات الشىء آتيا بدلالات غير ما تعارف عليه الناس (٦٦) .

ولكن برغم هذه التعمية ، فإن الشاعر قد يضع بعض المفاتيح تعين على فهم اللغز حتى لا يصبح حله مستحيلا أو يخضع للتخمين . ومن هذا النوع أيضا ما قاله أيمن أبو البركات محمد ملغزا فى مقصص (٦٧) .

وهو يقصد بذلك جزأى المقص ويورى فى بعض كلمات ، وهى لاشك صورة تدعو الى التفكير واعمال العقل وهذا ما وجد الناس فيه تسلية ومتعة .

والغز على بن محمد بن جعفر القنائى (ت ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م) حتى فى الكمون (٦٨) حتى اعضاء جسم الانسان كانت محلا ليث الألفاظ والأحاجى من جانب الشعراء فقال أحدهم وهو محمد بن جعفر القنائى (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م) ملغزا فى العين متضمنا تورية بعيدة بحيث يستشكل حله الا على من فطن (٦٩) .

وامتدت الألغاز الى المسائل العلمية من نحو وفقه الى آخر ذلك من معارف العصر ، كما حملت الرسائل بين الأدباء وأهل الظرف كثيرا من هذه الألغاز ولاظهار المقدرة والبراعة كان بعض الأدباء يجيب على اللغز شعرا .

ونورد هنا طرفا من هذه الألغاز والأحاجي . لأنها بلا شك توضح جانبا من جوانب الترفيه التي سادت العصر المملوكي (٧٠) .

وبشيء من التأمل يمكن ادراك ما يقصده الشاعر من اختلاف حركات الكلمة وقراءتها طردا وعكسا . ولدينا نماذج من تلك المحاورات الشعرية نظمها أصحابها في شكل الغاز ، منها ما أنشده شمس الدين محمد بن الخضسر الحلبي بالقاهرة لابن حجر العسقلاني منسويا الى على بن عيسى بن محمد بن أبي المهدي الفهدي اذ يقول ملغزا في « مسك » (٧١) .

فرد ابن حجر بالجواب شعرا أيضا بذلك (٧٢) .

ولدينا نموذج آخر كتبه احمد بن نصر الله بن باتكين القاهري محيي الدين (ت ٧١٠ هـ) ردا على ما كتبه اليه الحسين الجزار ملغزا في المشطرنج (٧٣) .

والغز الشيخ عبد القادر الدماصي (ت ٩١٥ هـ) في غزال وبعث به الى الشهاب المنصوري (٧٤) .

وكان ابن الدماميني (ت ٨٢٧ هـ) قد ساق لغزا في الغزال أيضا (٧٥) .

وبمقارنة هذا بقول الدماصي ندرك مدى التوافق بين أفكار الشعارين واتفاق لغزيهما نصا ومعنى الى حد كبير .

بتلك الطائف الأدبية سار هذا اللون من الوان الترفيه الذهني. الذي رأى فيه الناس شحذا للكاتهم الفكرية ، وتدريباً لهم على ارتياد غوامض الأمور وفك رموزها ، فضلاً عما يتيح لهم ذلك من قتل الفراغ وامتناع النفس فالألغاز والأحاجي قد مثلت في العصر المملوكي لونا ترفيهياً مهما شغف به عامة الناس وخاصتهم ولا سيما المتأدبون منهم ، ونادراً ما نجد شاعراً أو أديباً لم يخرب في هذا اللون بسهم .

ولاشك أن ذلك لقي رواجاً - كما قلنا - بين طبقات الشعب ، وقد يكون شغف الناس بالألغاز مجرد التلهية وقتل الفراغ ، وقد يكون الإنسان مدفوعاً بأسباب وجدانية في نفسه تتمثل في الرغبة في الانتصار على المجهول واستجلاء الغامض .

ولا ريب أن تلك الوسيلة من وسائل الترفيه قد أسهمت في نشر بعض معارف ذلك العصر بين جماهير الناس .

ولدينا أروع ما أنتج شعراً في مجال الألغاز والمعميات في العصر المملوكي ، وهو ما قصد إليه ابن سودون من نظم القصيدة الشعرية بشيء كبير من الطرافة ، معبراً عن ذلك برسم دوائر تحوى أبيات القصيدة مقطعة ويحتاج الأمر من القارئ إلى كثير من الدقة والتركيز والتتبع ، حتى تتم قراءتها ، ويحصل بذلك الاستمتاع والترفيه مع شحذ الذهن وأعمال العقل .

والواقع أن عصر المماليك كان فيه مما يشجع على هذا اللون من المعميات التي يمكن أن نشبهها اليوم بما تطالعنا به الصحف والمجلات من ذلك الذي نسميه الحروف المتقاطعة التي تجيء في جداول وتعبر عن كلمات ، وعلى القارئ أن يتتبعها ليعرف من أين يبدأ وإلى أين ينتهي .

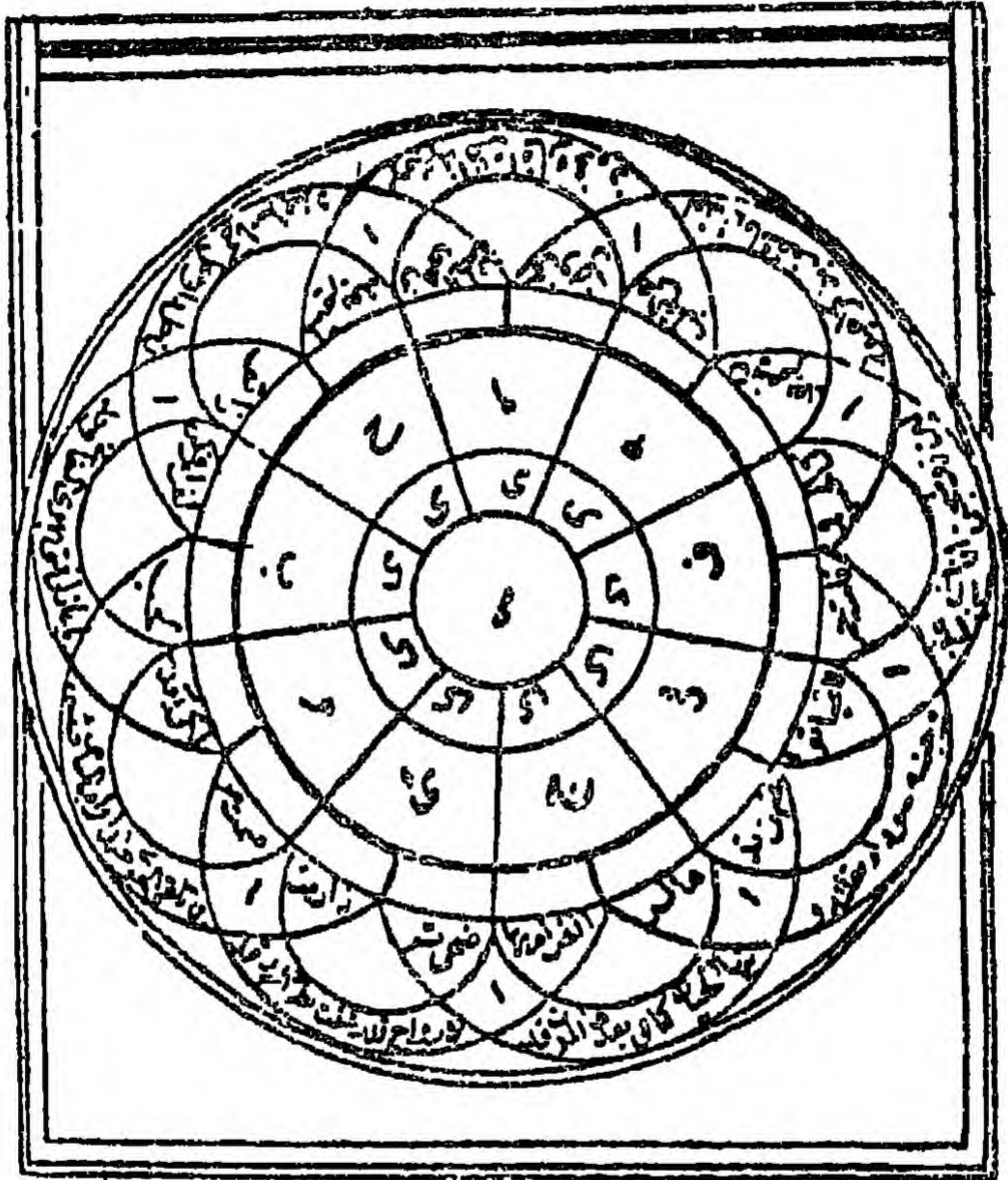
وقديما حاول بعض الشعراء الاتيان بشيء من هذا فنظموا قصائد على ألوان من الطرافة فمنها ما يقرأ طردا وعكسا ، والمعنى هو هو لم يتغير وما من شك فى أن هذا ليس من اليسير بمكان ، فمن الصعب أن يكون البيت أو القصيدة كلها تقرأ طردا كما تقرأ عكسا والكلمات هى هى ، وكذلك المعنى هو هو .

ومن هؤلاء الشعراء من لجأ الى طريقة مثل طريقة ابن سودون غير انها كانت أيسر من طريقة ابن سودون ، فقد حاول بعض الشعراء القدامى فى هذه المعميات أن يجعلوا الأبيات على شكل مربعات أو مثلثات أو متقاطعات من حيث تبدأ يستقيم لك الكلام والمعنى وهذا ان بدا صعبا غير ميسور فانه بالقياس الى ما اتبعه ابن سودون بعد هينا يسيرا .

فقد نظم ابن سودون قصيدة على نمط يخالف تلك الانمط جميعا فجعل أبيات القصيدة تبدأ بحرف الهاء التى جعلها مركز الدائرة الكبرى وأحاط المركز بدوائر متشعبة تتبع كل دائرة دوائر أخرى وجعل فى الدائرة التالية للمركز مباشرة - الذى فيه حرف الهاء - مقسمة الى اقسام يشمل كل قسم حرف الياء وهو الحرف الثانى من الكلمة ، ثم جعل الدائرة التى تلى الدائرة الثانية مقسمة كذلك الى اقسام يحوى كل قسم حرفا وهذه الحروف مختلفة ، وهى تمثل الحرف الثالث من الكلمة ، وهكذا اتبع تلك الدوائر بدوائر أخرى متوالية مقسمة هى الأخرى اقساما يحوى كل قسم منها كلمة أو عبارة ، وبقراءة مافى هذه الدوائر نخرج منها آخر الأمر بتلك الأبيات التى تنتظمها .

ويبدأ القارئ بالمركز ثم يمضى صاعدا فى أى جدول شاء الى نهايته ثم يعود من الجدول التالى الى أن ينتهى الى المركز ثم يصعد ثانية من المركز الى الجدول التالى الى أن ينتهى الى نهايته حتى اذا ما بلغ نهاية الجدول رجع فى الجدول الذى يليه الى المركز

ثم يصعد من المركز الى الجدول التالي ، وهكذا الى ان ينتهى من جميع الجداول فاذا هو قد استوت بين يديه القصيدة بأبياتها كلها وهذا رسم ذلك :



وعلى النحو السابق يمكن قراءتها . ولا شك بعد القراءة فى التوصل الى تلك الأبيات التى تتضمنها تلك الدوائر وهى :

هيجاء الغرام بها الارواح قد رشقت
يطرف أحور قد أصمت مراميه

هيمما لكى تعذر ايا عاذلى فتى
يهوى التفانى وجدا فى تواليه

هيل المتيم بعد الأمن منذ اقلت
أقماره فهو داهى القلب واهيه

هيهات يتعم بعد البين ذو شجن
ان لم تكن ساعة اللقيا تواسيه

هى ساعة فى قدانها الحياة كما
فى بعدها الموت قد اضحى قرائيه

هى اذا رمت ان تلقى الهوى جلد
واب المنام فبئس الحب آبيه

هيب الغرام فكن ان حل ذا وجل
كم باسل منه داهى الطرف داميه

هيم اخى وذل العذل ذا شغف
بذكر اهيف زاكى الحسن وافيه

هيفاء قامته حمراء وجنته
سوداء مقلته واهى اراجيه

ولعله بعد هذا يلمس جهد ابن سودون وكيف عنى نفسه نى
حبكها وكيف عنى القراء المجيدين فى حل هذه الاحجية • وترى كم
من الوقت بذل ابن سودون فى تكوين هذه الدائرة على هذا النحو
لتستقيم له الأبيات التسعة ؟ لا شك انه بذل وقتا طويلا وجهدا كبيرا •

وما من شك فى أن الأبيات التى تنظم بهذه الطريقة لا يكون
المعنى فيها جد مقصود ولا تكون ذات غرض متكامل فى الغالب ، ولكن

تجىء أبياتاً شبه مستقلة ، كل بيت مستقل بمعناه ، بحيث يمكن أن يعاد ترتيبها حسبما تكون المشيئة فلا يتأثر المعنى، وأبيات ابن سودون التسعة وإن كانت قليلة فإنها تساوى ديواناً بأكمله من حيث الجهد المبذول فيها والعناء الذى تحمله صاحبها والوقت الذى بذله ، ولكنها على أية حال متعة من المتع كان ذلك العصر الذى عاش فيه ابن سودون يتطلبها وينشد مثلها » .

مع أن ابن سودون لم يكن ليجهد نفسه فى كل مايقول دائماً على نحو ما فعل فى القطعة السابقة ، فقد نظم شعراً سهلاً ساذجاً يعتمد على ضروب من المفارقة والتباليه بذكر بديهات لا عمق فيها ولا معنى فكل ما يقوله قريب الى الحس ويجعل القارئ يشعر بما يشبه الصدمة بعد كل بيت لأنه يكاد لا يجد فيه معنى جديداً ، ولكن تلك الصدمة تدفعه للضحك دفعا أو على الأقل تجعل الابتسام يلم به على نحو ما نجد فى قوله (٧٦) .

ولدينا بعض محاولات الشعراء فى عصر الماليك حاولوا فيها نظم الشعر بحيث إذا حذف أعطى معنى مخالفاً فى غرض يختلف عما قيل فيه أولاً ، نسوق منها ما قاله شمس الدين محمد بن على المعروف بابن خطيب زرع (ت ٨١٠ هـ) الذى قال شعراً يقرأ مدحاً فإذا حذف كان هجواً (٧٧) .

ومنهم من نظم شعراً ليس فيه نقط كما فعل على بن عمر الهاشمى القوصى يقول فيها (٧٨) .

ولا يخفى ما يتطلبه ذلك من عناء وجهد لكى ينظم الشاعر نظماً ليس به كلمة واحدة بها نقط ، وذلك بلا شك يدل على البراعة وامتلاك ناصية الكلام حتى يستوى النص والمعنى معا .

والحق أن أدباء وشعراء العصر المملوكي قد شرحوا المجتمع المصري حينذاك وعبرت أشعارهم وانجالهم عن كل فئات المجتمع وثالت كل ظاهرة اجتماعية أو غيرها قسما من اهتمامهم ، فكثيرا ما تهكموا على طبائع الناس وفئات الشعب الذين هم في الغالب قد نبتوا منه ، وعاشوا الناس في افراحهم واقراحهم ، ولعل ذلك هو ما جعل قولهم صورة واضحة الى حد كبير للمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (٧٩) .

ومن المعروف أن البخل والبخلاء على مر العصور كانا مادة للظرفاء في كل عصر ، يهتبلون الفرصة دائما لاضحاك الناس على البخلاء ، ويشيع ذلك جوا من السرور والمرح بين الناس وكان ذلك ما حرص عليه شعراء العصر المملوكي .

ولا شك في أن نهر النيل وما ارتبط به من فيضان أو نقص ، كان محلا للشعراء فافردت فيه للقوائد الطويلة وما عرف عند الشعراء بمقطعات النيل فكانوا يتتبعون حال النيل زيادة أو نقصا ، وعبروا عن ذلك في اشعارهم أحسن تعبير ، وارتبط بنهر النيل احتفال مهم ، يجري كل عام يحضره السلطان أو من ينوب عنه والأمراء ، وأصبح ذلك مجالا واسعا للأدباء والشعراء ، وقد ازدحمت المصادر المملوكية بأمثلة عديدة مما قيل في النيل وتعلق الناس به (٨٠) .

وكان الناس يفرحون بوفاء النيل وتعم الفرحة أرجاء البلاد وتكتب بذلك البشائر الى الأقاليم ويبعث الناس أحيانا والسلاطان بالمقياس ، وتقام هناك مباحج وأسمطة ، وكان حد الوفاء للنيل ست عشرة ذراعا يخشاه الناس أن تعداها كثيرا . أو نقص عنها (٨١) .

وقال أحد الشعراء فى النيل طرفة ، تخيل النيل فيها شخصا يتحدث الى الناس ومن يستغل ماينجم عن نقصانه من غلاء ورفع الأسعار ، وفيها نقد وتهكم لهذه الشريعة من الناس (٨٢) .

ولم يتوقف الأمر ببعض الشعراء عند نظم الشعر فحسب ، بل كان منهم من ينشده «بنغمة طيبة ، وصوت شجى » . وبرغم أن كثيرا من الشعراء قد عاش على مدح الأمراء يكسبون بذلك حياتهم ووجودهم فانهم ربما كانوا مأخوذين الى حد ما بما حمل لواء هؤلاء الأمراء من كفاح وجهاد .

وتشير المصادر الى أنه كان من الشعراء من لايقول الشعر « الا لصلبة أسباب المودات ، لا لمواصلة الافادات » ، كما جاء على لسان بعضهم ، كما ترفع البعض منهم عن وظائف الدولة فى ديوان الانشاء .

وكان منهم من عرف بحامل لواء الشعر فى عصره ، - ابن نباتة - وأطلق على آخر وهو تقى الدين بن حجة (ت ٨٣٧ هـ / ١٤٣٤ م) شاعر العصر ، وقد أصبح من ندماء السلطان المؤيد شيخ الحمودى وشاعره ، ومنهم من برع نظما ونثرا فى أن واحد فكان يملئ على جماعة « يملئ على هذا نصف بيت ، وعلى آخر وثالث ثم يكمل للأول ثم للثانى ثم للثالث ، بحيث يسبق بنظمه كتابة المستملئ » كما حظى الشعراء بحب السلاطين وتقديرهم ، فقد كان السلطان الظاهر ططر (٢٨٤ هـ / ١٤٢١ م) « يحب انشاد الشعر بين يديه لا سيما باللغة التركية » .

ولم يقف الأمر عند تقدير السلاطين والأمراء للشعراء ، والافساح لهم فى مجالسهم ، بل نظم بعض السلاطين والأمراء

الشعر ، فنجد أحد الامراء وهو أحمد بن موسى بن يغمور السهمودي
(ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م) ينشد لنفسه ويدعو الى الفضيلة ومحاسن
الخلق ، فتدور فكرة أبياته حول الكرم وغض الطرف عن كل معيب
وصون العرض وستر ما يكون من نقصان عند الناس (٨٣) .

وحدث أن مدح شهاب الدين أبو العباس الشهير بابن القرقور
(ت ٩١١ هـ / ١٥٠٦ م) السلطان قنصوه الغوري بقصيدة طويلة
فلما سمعها السلطان ابتهج وقرأها بنفسه على من حضر وكافاه
عنها بقصيدة من نظمه وجهزها اليه (٨٤) .

وهكذا كان بعض السلاطين ينظمون شعرا بالعربية وكذا
الامراء ما يدل على حبهم للشعر وتقديرهم للشعراء في عصرهم .

وظهر في العصر المملوكي الى جانب الشعراء شاعرات أدبيات
!جدن الشعر ونظمه نذكر منهن مؤنسة بنت الشيخ محمد بن علي
ابن البيطار المقرئ (٨٥) .

ومنهن كذلك عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر ، وهي بنت
الباعوني المعروفة بالباعونية (ت ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) وقد برعت
علما وشعرا .

ويبدو أنه كان لدى الناس في عصر المماليك اعتقاد في منفعة
الشعر في درء الأمراض وحفظ النفس والدين والمال . وان كان ذلك
لا يرجع للشعر في حد ذاته انما يرجع في تصور أهل العصر الى
محتوياته (٨٦) .

هذا ويقول أبو الفدا المؤرخ المعروف أنه لما سمع هذا أنشد
مثله ينفع - حسب قوله - لحفظ النفس والدين والأهل والمال (٨٧) .

وهذا الاعتقاد لا يصح أن نحكم عليه بمقاييس عصرنا نحن فانه
غير مقبول ولا مستساغ ولكن يبدو أنه بمقاييس عصره كان متصورا

ومقبولا حتى من جانب المتنورين ولا أدل على ذلك من أن الراوى هو رجل مؤرخ له مكانته وسعة أفقه التى لا ينكرها أحد وهو أبو الفدا صاحب المختصر فى أخبار البشر .

ومع ذلك فإن هناك من يعظم الشعر ويصف شعراء العصر بأنهم متشاعرون أى من مدعى الشعر وهم ليسوا أهلا له ، كما يصف شعرهم بالجنون (٨٨) .

وأنشد محمد بن محمد بن الجبلى الفرجوطى (ت ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م) شعرا يسخر فيه من أحد الشعراء ويصفه بالجهل وسوء النظم (٨٩) .

ومع أن هذا القول قد ينم على تعال وظلم لكثير من الشعراء فإنه يبدو أن صاحبه كان مدفوعا بما يلمسه من ركافة وضعف فى المعانى فى إنتاج الشعراء ، خاصة أن بعض الشعراء كانوا أميين - وان أجادوا - ومنهم إبراهيم بن على بن خليل الأديب الشاعر أبو اسحاق الحرانى المعروف بعين يصل (ت ٧٠٩ هـ / ١٣١٠ م) .

وقد قيل مثل ذلك فى بعض الفقهاء مثل شمس الدين بن عوض (ت ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) وكان له طبع الفلاحين يتحدث بلهجتهم ويرتدى زيهم (٩٠) .

والقائل هنا استخدم القورية فى كلمتى « الدرس والدراية » وكل منهما من أعمال الفلاحة المعروفة .

وعلى النقيض من ذلك فإن بعض الشعراء قد رثى أحد العلماء وأشار الى خلو مكانه فى المجالس والمدارس ويشيد بخدمته للعلم (٩١) .

ولعل ذلك يدل على أن الشعر بكل فنونه لم يكن متخلفا في عصر سلاطين المماليك ، ولا جامدا ، ذلك لأن انتاج الشعراء في ذلك العصر كان يتمتع بشكل عام بروح شعرية عالية وكثير من المعانى المبتكرة .

وهكذا أدت مجالس الشعر والأدب في عصر المماليك وظيفتها في نشر الثقافة والترفيه على الناس في ذلك العصر الذى كان الناس فيه فى أشد الحاجة لمثل هذه الوسائل الترفيهية نظرا لظروف المجتمع فى ظل ذلك العصر .

أما مجالس الشراب والطرب وما تعلق بها من أمور اللهو والمجون فقد استحوذت على اهتمام الأدباء والشعراء فى العصر المملوكى ، وهذا هو ما سوف نتحدث عنه فى الفصل التالى .

هوامش الفصل الثانى

(١) على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ الممالك البحرية القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٤٢ ومن هؤلاء القاضى همس الدين ابراهيم بن القيسرائسى الذى كتب تفويض الخليفة الحاكم بأمر الله أمور البلاد للسلطان الناصر محمد سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م ، وشهاب الدين محمود الحلبي الذى كتب تفويض الملك المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ وكذا القاضى علاء الدين بن عبد الظاهر الذى كتب نص تفويض الخليفة المستكفى بالله أمور البلاد للسلطان بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٨ هـ .

(٢) هو القاضى مجد الدين اسماعيل بن ابراهيم بن محمد بن على بن موسى قاضى القضاة ، وكان فكه المحاضرة له يدنو النظم والنثر وله ديوان شعر فى مجلد ومنه .

ان كنت يوما كاتباً رقعة تبغى بها وصول الطلب
اياك ان تغرب الفاظها فتكتسى حرفة اهل الادب
(انظر ، ابن العماد ، شذرات ، ج ٧ ، ص ١٦) .

ويقول :

لا تحسبن الشعر فضلاً بارعاً ما الشعر الا محنة وخيال
فالهجو قذف والرثاء نياحة والعقب ضعف والمديح سؤال

(٣) موضوع المناظرات قديم فقد رأينا فيه شيئاً عند الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) فى وصف الكتاب وفى الموازنة بين الربيع والخريف وبين الديك والكلب (فى كتاب الحيوان) .

(٤) وما نظمه القاضى علاء الدين :

يترب لولا التراب بجسمه لم تبصر الابصار منه منظر
فكأنه بدر عليه سحابة والتراب ليل من سناه قبرا .

وكان الذى نظمه فخر الدين :
ومترب تربت يسدا من حازه
فكان طريقه ونسور جبينه
وكان الذى نظمه الثالث .

ومترب قد ظن ان جماله
فقد يضخمه فزاد ملاحه
وكانما الجسم الصقيل وتربة

(٥) ويقول :

ان انتصارك بالاخوان من عجب

(٦)

ادخلت فى منخره اصبعي
فقال لى مستعجلا : منخرى

(٧) وانشد لنفسه .

ومنذ لزممت الحمام صرت فى
اعرف حر الاشياء وباردها

(٨) ويقول :

رب راو عن النبى حديثا
قال قال النبى قولا صحيحا
فقهمت الذى السار اليه
قال لى يا اديب انت فقيه

فاجابه الوراق :

ان فعلا جعلته انت قولا
فابن منه مضارعا يظهر الخا
وتراه يبدو لعينك مقبلا
وهو فعل لم تاته انت يا شيطان

(٩) حيث قال :

اكافيك عن بعض الذى فعلته
بعثت خدودا مع نهود واعينا

كقضيبي تهر ضمخوه بعنبر
ليل اطل على صياح انور

سيصونه منا يترب اعفر
اذ قد حوى ليلا يصيح انور
كاثورة لطخت بمسك انفر

وهل رأى الناس منصورا بمنكر

وقلت : ماذا العضو سمي
قلت : انا ياسيدي فيه

خلا يد ارى من لايداريه
واخذ الماء من مجاريه

سند ثابتا كاملا فصيحيا
قلت قال النبى قولا صحيحا
وسمعت الذى رواه صريحا
قلت لا قال حزت ذهنا مليحا

لبس فيه يحتاج منك وضوحا
فى ويبدو الذى كقبت صريحا
وقد قلت فيه قولا صحيحا
فافهم مقالتي تسويحا

لان لولانا على حقوقنا
ولا غرو ان يجرى الصديق صديقا

(يقول :

هوه لمن يدعى زلاية وصح تشبيههم والاب برقوق
ناتهم للوز نسبته فان اسم ابيه نصفه قوق

(منها أيضا : انه دخل الى المدرسة فرأى الشيخ نجم الدين
، خارجا من الطهارة فقال يامولانا أنستم محلكم فقال له الشيخ
ن قبلك الله .

(فيحكى عن أحدهم وهو الشاعر الحسين بن محمد بن هبة الله
، المعروف بقطينة الاسفوني » انه طلع الى المصلى يوم عيد الاضحى
نبه شخص فلما ذكر الخطيب قصة الذبيح ، بكى ذلك الشخص
فالتفت اليه قطينة فقال له : ما هذا البكاء الطويل ؟ أما سمعت فى
ضى انه سلم وحا اصابه شيء ؟ » .

(من المعروف ان فنون الشعر كما يحددها اهل الادب : هى الموشح
، والسلسلة والموالي والزجل ، وكان وكان ، والقوما .

(منها :

الصب المعنى هل لك فى تلاقيه بوعد مظمع

(يقول :

فى هواه ولا أبالى ملاما
ت فى طلب الوصال غراما

(قال أحدهم وهو محمد بن فضل الله بن أبى الرضى ابن الكاتب
لديب الشاعر فى موشح اوله :

بنما فى السقم	والرسم كل فتاك
كالعندم	أو مرثف ابن تركى
ما لون السيدم	والريح ريح المسك
جرت ذا ألم	من كدر وضك
منه يصفو	والطيش يستخف
رور زحف	منه الهموم تهرب
ولو اقت فى الف	

انظر ، الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٦٠٩) .

(١٧) قيسارية جهاركس . بناها الامير فخر الدين جهاركس الناصري
الصلاحى سنة ٥٩٢ هـ وكان اكبر امراء الدولة الايوبية ، وموضعها الآن
مشغول بالمباني المشرقة على شارع المعز لدين الله
(انظر ، ابن تغرى بردى ، المهمل المصافى ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ،
حاشية ٢) .

(١٨) حيث يقول .
ياليلة الوصل وكاس العقار . دون اسرار ، علمانى كيف خلع العذار
اغتنم المذات قبل المذهب
وجر اذيسال الصببا والتسباب
واشرب فقد طابت كؤوس الشراب
على خدود نبت الجلفار ، ذات أحوار ، طررها الحسن بآس العذار
الراح لا شك حياة النفوس
نجل منها عاطلات الكؤوس
واستجلها بين الندامى عروس
تجلى على خطابها فى ازار ، من النضار ، حبابها قام مقام المنثار
(انظر ، ابن تغرى بردى ، المهمل المصافى ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج ١ ص ٣٤٠ -
٣٤٥) .

(١٩) الدوبيت مأخوذ من الفارسية والكلمة فارسية مركبة من مقطعين ،
المقطع الاول « دو » ويعنى اثنين ، والمقطع الثانى وهو « بيت » ويعنى هذا
الشطر من الشعر فالكلمة تعنى فى الفارسية المزدوج أو بمعنى آخر الشعر
النفاى .

(انظر ، محمد البقلى ذ الاوزان الموسيقية فى ازجال ابن سودون ،
القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٨٢) . وقيل الدوبيت نوع من المواليا ، وقال ابن
خلدون « كان لعامة بغداد أيضا فن من الشعر يسدونه المواليا ، وتحتة فنون
كثيرة ، يسمون منها ، القوما ، وكان ماكان) ودنه مفرد ، ومنه فى بيتين
ويسمونه : دوبيت .

(انظر ، الادقوى ، الطالع السعيد ، ص ٦٢٣ ، حاشية ٢) .

(٢٠) يقول :

حن بعد هراقكم جرت لى أشياء لا يمكن شرحها ليوم القيا
كم قلت لقلبي بدلا نال بمن والله ولا بكل من فى الدنيا
هو محمد بن جعفر بن حجون القنائى ، وهو فقيه شاعر توفى سنة
٧٢٨ هـ .

(انظر الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٥٠٥ ، ٥٠٦) .

وقال آخر فى دوبيت :

يا غاية منيتى ويا مقصودى قد صرت من السقام كالمفود
ان كان بدت منى ذنوب زلفت هبها لكريم عفوك المعهود
(انظر ، الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٦٢٣) .

(٢١ ، ٢٢) ابن سودون : هو نور الدين ابو الحسن على بن سودون العلانى
المشبهواوى ولد بالقاهرة سنة ٨١٠ هـ ، وكان أبوه قاضيا بمصر ، اشتهر
بالمزجل والشعر توفى بدمشق سنة ٨٦٨ هـ .

(٢٣)

والشمس والنجوم والقمر ان لاح خيالها بماء النهر
والشمس رغيف والنجمات بيوض والبدر كقرص جبن جاموسى طرى

(٢٤) حيث يقول :

ياناصرى سهم عزك فى العدى مرشوق
وانت منصور ومن حنت اليه النوق
اصبر فما دامت الشدة على مخلوق
غدا يجىء الخوخ تذهب دولة البرقوق

(٢٥) يقول :

ايبك تطنز يعقبو ببيرس ذو الاكمال
بعبدو قلاوون بعدو كذبا المفضال
لا جين ببيرس برقوق شيخ ذو الافضال
ططر برسباى جقمق ذو العلا اينال

(٢٦) ابن اياس ، بدائع الزهور . ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٦ .
يقول :

وخلقه قد علم عنه قل	يلبى ذوال الاحوال
تمر بغيا قيتبي	به الفضل ذوال الاقبال
وقنصوه جنبالا	ط خذ عنهما الاقوال
وبعده جاء طو	مان بى بالاقبال
وبعده قانصوه	الغورى ابو الاهوال
وبعده صار طومان	بى فى جبل جبال
واما سليم شياه	خادم سعدة عمال
ومذ ولى الملى	اعى امره الابطال
وانه بسعدة فى	غاية الاكمال
وبعده احمد الباشا	بسيقو جبال

(٢٧) يقول :

سلطاننا لو محاسن فيه موصوفة	ولو مواكب لها اوقات معروفة
مذ خف عنو الرمد بالطاق دحفوظة	اوكب لها اوقات مصر مصفوفة

(٢٨) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ص ١٢٤ ، ١٢٧ .
يقول :

البيدر والسعد ذا شيبوك وذا نجمك
والقصد واللحظ ذا رمحك وذا مسهمك
والبشخص والحب ذا قسسمى
والمسك والحسن ذا نالك وذا عمك

(٢٩) يقول :

رايت فى النوم غسل والموز فيه قد عام
كانو سمك فى يرك والقلب لوق هام
طلبت حا امسكو استنبهت اه مسادم
ضحكت على بقيت ايكى عنيه مائسام

(٣٠) ومنها :

انا احب الكفاة فى شراب نوفر
ولو رموا فوقها فستق على سكر

ألا تكن فى طبق والصحن أن فُشِر
وقال لك ملكك ملىح قل ذا ملىح واكبر

وقال أيضا :
التور والبقرة دى العام ومن قبله
فى مصر والشام وفى غزة مع الرمله
هذيك تحيل وتولد عجل او عجلة
ودك فى السقيا ياكسل بفرقله

(٣١) يقول :
جسار حببى فقلت : ذا الحجاج
لو عدل عشت يوم مسرور

جا يجور أو يزيد
ويكون الرشيد

(٣٢) حيث يقول :
طلبت منك جوزه
وكم طلبت زوجة

منعتنى من قريبها
منك فلم تبخل بها

(٣٣) وقيل
وقالت الفيلة امرأتو
سهم الفراق قد اصاب قلبى
ونا غريبة هندية
وكان هذا الفيل زوجى
واليوم كان آخر عمرو

من لى معين
يا مسلمين
قلبى حزين
لا معيره
فى القنطرة

(٣٤)
سلطاننا الاشرف خرج فى أربعين
ومن حلب عدى يروم الفسرات
فى مصر فرسان أربعين بالعدد
ورعيتهم ساكن قلوب الملوك

من العساكر حين سافر حماه
فاستقى الخيول ماء وريو حماه
لدورة المحمل يسوقوا الحيا
يردوا الخارج وأهل العناد

(٣٥)
اعتذارى لى سمع قولهمسى
يقصصونى ويطلبوا فسى

ان حببى والقرب ياتونى
ان تايست بالعجز يرمونى

استحي أن أظهر ضعيف نظمي
والنبي أبو النجبا العوفي
استر العيب وأربح ثواب سترى

(٣٦)

أهل فنى تجسأوزوا
تغلموا الأجر والثواب
الحسود قسط ما يسود
وعليش يحسدوا أديب
يابن زيتونسى مشتهر

(٣٧)

وما الشعر مما أرتضى كنىته به
ولا قلته كى أبتغى بمقاله
ولكن دعتنى شيمة مضرية

(٣٨)

وجمالسى نسيب لزيتونسى
ان تجد عيبا فيما أقول حاضر
جل من لا فيه عيب وهو الخافر

وأسروا العيب والزلل
والحسود عقلو فى خيل
والحسد ان عدل قتيل
ناسب النظم فانتسب
نجل عوفى اذا انتسب

لعمري ولا وصفى به فى المحافل
هنالك أن اجزى عليه بنائيل
الى قوله معروفة فى القبائل

فقد اهذى شخص الى أحدهم وهو
عبد الوهاب الادفوى بطيخة فنظم يقول :
أهدى لنا من نحبه كرما
كأن من سكر حلاوتهما
وقال آخر فيما يكتب على السيف :

بطيخة جل قدر باريهما
أو غسل أو رضاب مهديهما
فاعدته بالنصر يوما أبيضما
جعل الذكور من الاعادى حيضما

أنا أبيض كم جلت يوما أسودا
ذكر اذا ما أنسل يوم كريهة

(٣٩) حيث يقول :

مامنية النفس غير مروحية
تجور ولكسن بمسعد ولقسد

(٤٠)

ياحبذا الميسدان من جثة
أغصانه هب عليها الهوى
أطياره فى دوحها غردت
وكل من ضاحك مطسرب

مساكن الولدان والحنور
من كل محسود ومقصور
من كل مسموع وعصفور
وكل حسويه وزرور

(٤١)

ان المليحة والمليح كلاهما
والروض فتحت الصبا اكمامه
ومدامة تجلى الهموم فبادروا

(٤٢) ومنه :

العز يدرك ولكن ان شامته
واقما حبة القلب التي احترقت

(٤٣)

وخلبي من العرب الكرام سألته
اذا ابن الذي تمشى الملوك أمامه

(٤٤)

اسو وشي فيه من وشي
انا قد بحث باسمه

(٤٥)

قلبك اليوم طائر
كيف يرجي خلاصه
ولما بلغه أنه تركه كتب يقول :

خلصت طائر قلبك العاني الذي
ولقد يسر خلاصه ان كنت قد

وقال احدهم في مليح اسمه مالك :

ومليح قلت مسال
قلت صفا لي وجهك اليزا
فقال كالبندر وكالفص

حضرنا ومزمار هثاك وعود
فكانه مسك يفسوح وعود
واستغنموا فرص الزمان وعودوا

مسروقة من دجى صدغيه والغسق
فى حبه علقت للظلم فى العنق

لمن فى الورى تغرى فقال مؤنبي
اذا ماراوه راكبا يوم موكب

ما تسليت غلما
يقول الله ما يشا

عنك ام فى الجوانح
وهو فى كف جارح

من جارح يغيدو به ويروح
خلصته منه وفيه بسروح

لك حبيبى قال مالك
هى وصف حسن اعتدالك
من وما أشبه ذلك

(انظر ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ص ٣٩) .

(٤٦)

ديار مصر هى الدنيا وسادتها
ياصن يياهى ببغداد ودجلتها

هم الانام فقابلهما بتقبيل
مهسر مقدمة والشرح للنيل

(٤٧) يقول :

أمن تذكر جيران يذى مسلم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة

(٤٨) وأولها :

كيف ترقى رقيق الانبياء
لم يدانوك فى علاك وقدحا
انما مثلوا صفاتك للناس
انت مصباح كل ضوء فما تصا

(انظر ، جمال سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، ص ١٥٩) .

(٤٩) وأولها :

نقدت طوائف المستخدمينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم

(٥٠)

أبيت سوى مدح خير الورى
بروحى صفات تحلى القريض
تعين القريحة أنى ونبت
شراء الغيد امتداح البشير
جمعت السرور لسرى به

(٥١) وهو :

الملك الظاهر سلطاننا
اقتحم الماء ليطفى بسنه

(انظر ، ابن الرد ، شذرات ، ج ٥ ، ص ٣٣٣)

كما مدحه محيى الدين بن عبد الظاهر ، عندما استولى على حصن عكار
بقوله :

ياملك الارض بشمسحرا
ان عكار يقيننا هسى

(٥٢) ويقول ابن اياس

بالاسرف الغورى المفسدا

مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
وأومض البرق فى الظلماء من اضم

يا سماء ما طاولتها سماء
ل سنا منك دونهم وسناء
س كما مثل النجوم المساء
سدر الا عن ضوئك الاضواء

فلم أر فيهم رجلا اميننا
مع التجريب من عمرى سنيانا

فأصبح نظمى وثيق العرا
وتسبكه ذهبيا أحمررا
وتبرز الفاظها جوهرا
فهمها اطرا المدح فيه طرا
فأضحى به العيش لى أخضرا

نفديه بالامسوال والاهل
حرارة القلب من الغسل

ك قسدت نلست الارادة
عكسار وزيادة

أصبح ثغر الزمان باسم

ياقائنصوه العلى قـدرا فقت على من مضى وقـدام
فكل يوم تـراه عـيدا به قـاوقاتنا مواسـم

ومما قيل فى مدح الملك الاشرف برسباى بعد فتح قبرص :
بشراك ياملك الملوك الاشرف يفتح قبرص بالحسام المشرف
فتح بشهد الصوم ثم قتاله من اشرف فى اشرف فى اشرف
قالت وما تلك البلاد وقد عفا انجيلهم اهلا باهل المصحف

واستمر حتى قال .

لم تخلف الايام مثلك فاتكـا ملكا ومثلى شاعرا لم تخلف
(انظر ، ابن العماد ، شذرات ، ج ٧ ، ص ١٨٧) .

(٥٣)

ويقول ابو الحسين الجزار فى هذا المقام :
الا هكذا يبنى المدارس من بنى ومن يتغالى فى الثواب وفى المذا
لقد ظهرت للظاهر الملك همـة بها اليوم فى الدارين قد بلغ المذا
تجمع فيها كل حسن مفـرق فراقـت قلوبا للانام واعينـا

وقال الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب فى ذات المناسبة :

قصـد الملوك حماك والخلفاء فافخر بان محل الجوزاء
انت الذى امرأؤه بين الورى مثل الملوك وجنده امراء
ملك تزينت الممالك باسمه وتجملت بمديحه العصماء
وترفعت لعلاه خير مدارس حلت بها العلماء والفضلاء

(٥٤) ويقول :

قد انشأ الظاهر السلطان مدرسة فافت على ارم مع سرعة العمل
يكفى الخليلى ان جاءت لخدمته هم الجبال له تسعى على عجل
والخليلى هذا هو الذى كان يباشر عبارتها .

وقال السراج الوراق ايضا :

ملك له فى العلم حب وأهله قلبه حب ليس فيه ملام
فشيدها للعلم مدرسة غدا عراق اليها شقيق وشمام

(انظر الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٤٩٩) .

(٥٥) يقول :

قد جدد الاشرف سلطاننا
رخامها شبيهت ألوانه
يجلس للموكب من فوقها
فماق ملوك القرك فيما مضى

(٥٦) يقول :

أبشر قسعدك ياسلطان مصر أتى
ان المنارة لم تسقط لنقصه
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت

(٥٧) منه :

لم يحترق حرم النبى لريية
لكنما أيدى الروافض لامست

(٥٨)

وشاعر قد هجا شخصا فحل به
فاشهره وجازوه بفعلته

مصنعية أوصافها تحكه
جواهر فى عقد مشتيكه
يظهر فى احكامه فتكه
ولم يضاه ملكهم ملكه

بشير بهقال سار كالثلل
ولكن لسر خفى قد تبين لى
نلوجد فى الحال أداها الى الميل

تخلى عليه وما به من عار
تلك الرسوم فظهرت بالنار

من حاكم الشرع نربخ وتعزير
تباله شاعر بالهجو مشهور

(٥٩) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٩٢ ، محمود رزق سليم ،
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والادبى ، القاهرة ١٩٤٧ ، ج ١ ق ٢ ،
ص ٨٥ .

الى جدال بحكم غير منفصل
جهرا ويقبل سرا بكرة الجمل

صفات قاضينا التى تطرب
يتسم يقضى بالهوى يكذب

(انظر ابن اياس بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٩٢ .

(٦٠) ومما قاله :

فشا الزور فى مصر وفى جنباها
اذا جاءه الدينار من وجه رشوة
اجاز أمورا لاتصل بملسة

ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها
يرى انه حل على شبيهاتها
بخسل وبرم مظهرها منكراتها

(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١١٣ ، ١١٤ ، محمود
رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ، ص ٨٥) .

(٦١) قال ابن اياس :

سلطاننا مذ كان في ضعفه
قصه شفاه الله من دالسه

يمنحنا عدلا واحسنا
أحدث ظلمنا فوق ما كانا

(٦٢) قال :

أوردت نفسك ذلا
وبالرشا حزت حالا
وكم عليك قلوب

ورد النفوس المهانة
مالت منه الخزائنة
ياحمص خضر ملانسه

وقال فيه ايضا :

جنت بالملك لما
وقد أمنت الليالى

أتيناك بالبسط ما
ياحمص أخضر وداجين

وفيه يقول بعضهم مداعبا وقد رجع من سفرة :

لما رجعت اليئسا
خلفاك تحنو علينا

من بعد ذا البعد والبين
ياحمص أخضر بقلبين

ويقول آخر :

طوى الردى طشتمر بعد ما
عهدى يدكان شديد القوى
ألم تقولوا حمصا أخضرا

بالغ في دفع الاذى واحترس
اشجع من يركب ظهر فرس
تعجبوا بالله كيف اندرس

(٦٣) قيل :

وكم ترودت للباب الكريم لكى
وأنتنى خائبا فيما أومله

أهل شوقي واجبى مبت اشعارى
فانت فى روضة والقلب فى نار

(٦٤) قال :

لعلاء الدين ذقن
فاعمل المخل منها

تملا الكف وتفضل
(لدقيق العيد) وانخل

وقال أحدهم موريا :

واختتم احاديث الهوى بيننا

ففى خلال الروض نمام !

والتورية هنا فى لفظ « نمام » أى الذى ينقل الحديث الى من لا يجوز

نقله اليهم كما يعنى نوعا من الازمار ، كما نلاحظ التورية ايضاً فى كلمة

« من » فيما يأتى :

يا عاذلى فيه ، قل لى
يمر بى كل حنين
عن حبه كيف أسلو ؟
وكلمها مر يحلو
(انظر ، عمر فروخ ، تاريخ الادب العربى ، ج ٢ ، ص ٦٢١)

(٦٥) حيث يقول :
وذى اذن بسلا سمع
اذا استوى على صب
له جسم بسلا قلب
فقل ماشئت فى الصب

(٦٦) قال فى رمح :
ما عجز كبيرة بلغت عمرا طويلا
قد علا جسمها صفار ولم تشك
ولها فى البنين قدر وسهم
وتبتغيها الرجـال
سقاما ولو عراها هزال
وبنوها كبار قدر نبـال

(٦٧)
نحن محبين ما رأينا
فمن حل بيننا نبادر
فى الحب أشفى من العناق
يقطعه خشية الفراق

(٦٨)
يا أيها العطار اعرب لنا
تبصره بالعين فى يقظه
عن اسم شىء قل فى سومك
كما ترى بالقلب فى نومك

(٦٩)
ومحبوبة عند المنام ضمنتها
لنيزة ضم لا اطيعق فراقها
احس بها لكذنى ما نظرتها
ورب ليال فى هواها سهرتها

(٧٠) يقول ابن الشقيقة المحدث نجيب الدين ابو الفتح نصر الله
(ت ٦٥٦ هـ) ملفزا فى الواو واليم والنون :

اوله أخـره
ثلاثه حروفه
ان شئت ان تعكسه
وبعضه جميعه
وواحد مجموعه
فانت تستطيعه

وقال : علاء الدين ابو الحسن (ت ٩٢٥ هـ) ملفزا فى النحو :
يا اماما فى النحو شرقا وغربا
ايما اسم قد جاء ممنوع صرف
من له باب سره المكنون
واتسى الجرفيه والتنوين

وأجاب هو عنه بقوله :

علم كان للمؤنت جمعاً
وقال في اجابة على بعض فضلاء النحو :

سلم على شيخ النحاة وقل له
أنا ان شككت وجدتموني جازماً
قل في الجواب يان ان في شرطها
واذا بحزم الحكم ان شرطية
(انظر ، ابن العماد ، بذرات ، ج ٥ ، ص ١٣٧) .

كذلك يقول سيف الدين المشد ملغزا في كلمة « فرح » :

ما اسم اذا ما فتحت آخره
وهو حبيب لمن تأملته
أصبح فعلاً مقلوبه حرف
وليس فيما شرحته خلف
(انظر : فوزى أمين ، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى ، ص ٢٣٠ .

(٧١) يقول :

كتبت رموزاً ولم تكتبوا
فما اسم جرى ذكره فى الكتاب
ففيها مصحف مقلوبية
وليس بغادية فافهموا
لهذا (كهذا) الذى سببه واضحة
فان شئتم قاقراوا الفاتحة
يجبر عن حالة صالحة
ولكنها أبدا رالحة

(٧٢) حيث يقول :

قرأنا الكتاب جهارا وقد
وجدناه من قبل تصحيفه
وسل قبل تسع قبيل البروج
بتغيير ثانيه مع قلبه
تبدي له السر فى الفاتحة
سهل له سببه الواضحة
يرى ثم كالانجم اللائحة
ومع حذفه ثم بالرائحة
(انظر ، ابن حجر : الدرر ، ج ٣ ، ص ٩٣) .

(٧٣) هو يقول :

وما شاء له نفس ونفس
يود به الفتى ادراك سؤال
وهى طويلة فاجاب محيى الدين بابيات منها :
لقد اهديت لى لغزا بديعا
واحكمته درا فضيرا
فحسب اللفز خماس ثلاث
ويؤكل عظمه ويحك جوده
وقد يلقي به مالا يوده
يضل عن الليب لديه رشده
يشغف مسمعى بالدر عقده
للفزك ان ترد لى احده

(٧٤) يقول :

مولاي ما اسم لوحش ناقر انسى
حروشه اربع لكنها عجب
فاجابه الشهاب المنصوري :

مولاي الخربت فيما ناب عن قمرى
فالبعض لام حكمت لامات سالفه

(٧٥) حيث يقول :

ان من قد هويته
فماذا زال ربه

(٧٦) حيث يقول :

البحر بحر والنخيل نخيل
والارض ارض والسما خالفها
واذا تعاصفت الرياح بروضة
والماء يمشى فوق رمل قاعد

(انظر (شوقي ضيف ، الفاكهة فى مصر ، ص ٩٤) .

(٧٧) حيث يقول :

التاج بالحق فوق الرأس يرفعه
فضلا ويزلا وصنعا قاضرا وسخا
وتصديفه يكون هجوا كما قال :

الباخ بالخف فوق الرأس يرفعه
فضلا ونذلا وضيعا فاجرا وسخا

(انظر ، ابن العماد ، شذرات ، ج ٧ ، ص ٩٤) .

(٧٨) منها :

اطاع مسمعه الاصم ملاما
كلا واحسور كالمهاة مصارم
واعد غام وصالة لك ساعة
امحرما ومسيلا اراه محلبلا

فى ماربى منه اشياء جمعت فيه
ان زال اول حرف زال باقيه

جيذا او حاكى سوادا فى اماقيه
وبعضه قد غزا فى الله باقيه

محبتى فسى وقوفه
زال باقى حى حروفه

والفيل فيل والزراف طويل
والطير فيما بينهم يجرول
فالارض تثبت والقصور تميل
ويجى له مهما مشى سيلول

اذا كان فردا حوى وصفا مجالسه
واسال الله يبقيه ويخرسه

اذا كان قردا حضوى وضعا مخالبه
فاسال الله ينقيه ويخرسه

ام هل نراه اعاره الماما
كل اطاع له هواه وهامما
واعد ساعة صده لك عامما
ومحلبلا مسيدا اراه حرامما

(٧٩) ففى البخل قال بعضهم :

يفلى البخل بجمع المال مدته
كدودة القز ما تبنيه تهدمه
وللحوادث والايمان ما تدع
وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

وعرف السلطان الغورى بالبخل حتى قال فيه البعض :

لا تعجبوا ان سعى كريم
فانه كالخلاء حتما
لحاجة فى يدي بخيل
لا يد فيه من الدخول

ومن اطرف ما قيل فى البخل والشح .

ورب جار لنا شحيح
اعظم شئ تراه منه
ليس له بالجميل عادة
مساكم الله بالسعادة
(انظر ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٩٨) .

(٨٠) ومما قيل فى وفاء النيل :

قد وفا النيل رابعا عشرين مسرى
جاء فى وقته اذا قلت اهلا
فملا بشره قلوب العباد
بحبيب قد جاء فى الميعاد

قال بعض الشعراء فى ذلك .
قد قلت لما تزايد نيلنا
يا نيل يا ملك المياه باسرها

وقيل فى نقصانه :

تقاصر النيل عنا
حتى قنعنا اضطرارا
تقاصر المتتابع
منه بمصر الاصابع

(٨٢)

النيل قال وقوله
فى غيض من طلب الغلا
وعيونهم بعد الوفا
وقال بعضهم :
اذا قال ملء مسامعى
عم البلاد منافعى
قلعتها باصابعى

كان النيل ذرفهم ولب
فياتسى عند حاجتهم اليه
لما يبدو ولعين الناس منه
ويمضى حين يستغنون عنه

(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٦) .

(٨٣) يقول :

إذا حللت ديار قوم فأكسبها
واغضض وحن طرفا وفرجا واحترن
تكن السعيد مبعلا ومعظما

حسلا من الاكرام والاحسان
لتطأ وزد في كثرة الكتمان
متحليا بمحاسن الايمان

(٨٤) يتول مطلعها

اجاد لنا القاضي ابن فرفور احمد
وقاضي قضاة الشام جاء يزورنا
وهي طويلة ايضا ووصفت بانها احسن من الاولى .

مديحا به اثنى عليه واحمد
ويثبت دعوى حبنا ويؤكد

(٨٥) ومما قالته :

مودة شراب السلاف مداعة
إذا جئتكم يوما ارفع ملمة
لهم صديقه لروح فيها تأنها

تعيد بهم عند انقضاء المجالس
رجعت بامول من الفضل ايس
شبيهة التصاوير التي في الكنائس

(٨٦) هذان البيتان منسوبان للامام الشافعي (انظر ، ابو الفدا ،
المختصر في اخبار البشر ، ج ٤ ، ص ١٤٠) .

ومن ذلك ما قيل لحفظ البصر :

يا ناظري ببيتوب أعينكمما
قميص يوسف الناد علي بحدري

بما استعاذ به إذ خافه البصر
يشير يوسف قاذب أيها الضرر

(٨٧) يقول ابو الفدا :

امروت كذا سبحت فيها الحصى
على معاشي ومعادي وعلى

وروت الركب بساء طاهر
ذريتي وباطني وظاهري

(٨٨) ابن حجر ، الدرر ، ج ١ ، ص ١٢٢ . ١٢٣ . وقائل البيتين هو
احمد بن الحسن بن الدمشقي مجت الدين بن الخياط ، له ديوان شعر في
عدة مجلدات (ت ٧٣٥ هـ) .

فيقول .

وفي مقترع عري عسري اناس
يظنون القريض قيسام وزن

اقل صفات شعرهم بالجنون
وقافية وما شاعرت تكون

(٨٩) فيقول :

وثأعر يزعم من غيرة
يصنف الشعر ولكنـه

وفرط جهل أنه يشعر
يحدث من فيه ولا يشعر

(٩٠)

ورب قحف قد اتسى
سالت عنه قيل لسي

لنا به الدهر غلـط
هـذا من النخل سقط

وقال آخر في المعنى :

فقيه ريف يقول : انسى
فقلت : لاشك انت عنـدى

برعت في العلم والرواية
تصلح للـدرس والدرايسة

(٩١) يقول ابو الفدا في هذا المعنى وهو يرثى ابن جملة :

بكت المجالس والمدارس جملة
فاصعد الى درج العلا واسعد فمن

لك يا ابن جملة حين فاجاك الردى
خدم العلوم جزاؤه أن يصعدا

* * *

الفصل الثالث

مجالس الشراپ والطرب

غناء ٠٠ موسيقى ٠٠ رقص

مجالس الشراب

الواقع أنه مع تطور فنون الطرب ووسائله وانغماس الناس فيه من ذوى الجاه والشأن فإن ذلك أدى الى الاعمان فى الاستزاده من المتعة والتلذذ ، فارتبط الطرب بمظاهر ترفيحية أخرى مصاحبة كالشراب وغيرها ، فأصبحت تقام مجالس للشراب والطرب ، تدار فيها الكتوس بالخمير ، ومايصحبها من لهو ومجون .

وتشير المصادر الى اهتمام حكام المساميين على مر العصور بعقد مجالس الشراب والطرب وأسرفوا فى ذلك حتى جاهر الناس بالشراب ، وقيل ان أحدهم اتخذ بركة فى قصره كان يملؤها خمرا ثم ينزع ثيابه ويغتسل فيها ويشرب منها ، ويظل هكذا حتى يظهر النقص فى البركة .

وعلى الرغم من ذلك فإن نفس المصادر تشير الى أن بعض خلفاء المسلمين لم يشربوا الخمر ، ولم توضع على موائدهم .

وأصبحت مجالس الشراب والطرب من الأمور المألوفة فى العصور الوسطى ، فقد شغف بها كثير من حكام مصر ، حتى عصر المماليك الذين اظهروا بذخا كبيرا فى هذه المجالس ، فقد اعتادوا أن يكون لكل سلطان أو ملك جوقة من المغانى فى داره .

وأدى ذلك ببعض سلاطين المماليك الى تقريب أرباب الموسيقى والغناء الى مجالسهم ، وكانوا اذا سمع أحدهم بمغن ، أرسل في طلبه ، وكلفه بتعليم جواريه الغناء ، كما فعل الناصر بن قلاوون مع المغنى كتيلة بن قرانغان ، الذى تخرج على يده كثير منهم ، وكان حسن الطرب بالجنك العجمى .

وكذا فان الأمير تنكز قرب اليه المغنى عمر بن خضر بن جعفر بن زاده الدشتى جمال الدين ابو سعيد ، وجعله يعلم الجوارى عنده . وعندما علم الناصر بخبره استدعاه اليه ورتب له راتبا .

ورغم هذا التلازم بين الشراب والطرب فقد عوانا على أن يظهر كل منهما على حدة ، حتى يكون ذلك أدعى للتركيز ، ولأن كلا منهما يستحق أن يفرد له مكان بمفرده ، وهو ما سار عليه البحث فى هذا الفصل .

وعرف عن المماليك اقبالهم على اللهو والطرب ، فهذا الملك السعيد محمد بن الملك الظاهر بيبرس (٦٧٧ - ٦٧٨ هـ / ١٢٧٨ - ١٢٧٩ م) - بعد أن أرسل جيشا الى سويس - أخذ الى الراحة « وأخذ فى اللهو والملاعب » ومايجرى فيهما من مسرة وشرب وغناء مما يدل على انتشار تلك المجالس حتى أصبحت مجالا للشعراء وظاهرة لا يمكن تجاهلها (١) .

وقد دعا الأمير سيف الدين على بن سابق الدين قزل المعروف بالمشد (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) الى معاقرة الشراب وحضور مجلس شرابه وطربه ، واصفا اياها بأنها تخفف الهموم ، مؤكدا ذلك بتجربته الخاصة ، وهذا هو يصف الساقى فى هذه المجالس بما يتفق مع الموقف (٢) . وله كذلك نظم فيمن يشربون الخمر وقد سماهم أهل الهوى يصفهم وهم ساهيون (٣) .

وانتشر هذا اللون من الشعر وصفا لمجالس الشراب والطرب
واللهو حتى بلغ الأمر بأحد الشعراء أن يجمع لكتابا ضمنه شعرا ونثرا
فى الخلاعة والمجون سماه « الزرجون فى الخلاعة والمجون » (٤) .

وكان المماليك بطبيعتهم يقبلون على الشراب ، حتى أصبح ذلك
من عاداتهم المرعية حتى السلاطين كانوا يشربون الخمر مع أمرائهم
وعرف من أنواع المشروبات ، شراب القمز أو القراقمز ، وهو عبارة
عن لبن الفرس المحمض وقد عرف المماليك شربه فى موطنهم الأصلي
ويعتقد أنه كان غير معروف فى مصر قبلهم والبوظة أو البوزة ،
وهى تصنع من الدقيق أو التمر أو غيرهما ، وتلك قد عرفوا شربها
من مصر .

كما شربوا أيضا المزر ، وهو شراب يتخذ من الذرة ، ويبدو
أنه كان منه نوعان ، فقد وجد نوع منه يصنع من القمح عرف بالمزر
الأبيض ، وكان العامة يشربونه ، حتى أن اثمان القمح كانت ترتفع
أحيانا بسبب ذلك مما دفع بعض الولاة الى كبر أوانى الشراب .

ويبدو أن شراب المزر هذا هو (البوظة) فليل أن أهل
السودان بمصر كانوا يصنعونه ، ويعرف عندهم بالمريس ، حيث
أن المنطقة التى كانوا يسكنون بها - بين القاهرة ومصر - كانت
تعرف بهذا الاسم .

ومنع النساء من أن تتعمم وتتزيى بزي الرجال ، وحبس
المفسدات حتى يتزوجن وعم المنع مصر والشام ، فظهرت جميع
البقاع ، وعندما وصل المرسوم بذلك الى الاسكندرية ، قال القاضى
ناصر الدين بن المنير قاضى الاسكندرية فى ذلك شعرا به تورية
لطيفة (٥) .

وقد وصل الأمر بالسلطان الظاهر بيبرس الى أن يصلب أحد شاربى الخمر يدعى بابن الكازرونى ، ليكون عبرة لغيره ، وكان ذلك التشدد مثارا لتعليقات الشعراء ، فكان منهم المستحسن ومنهم المتهكم فى خبث .

هذا وان كان الظاهر بيبرس قد استدعى الأمير عز الدين الدمياطى فى جمادى الآخرة سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م - بعد أن أفرج عنه - وشرب معه القمز وحضر ذلك أكابر الأمراء .

ويبدو أن شرب الخمر كان منتشرا حتى بين المسنين ، فهذا قطب الدين عبد الحق بن سبعين المرسى الصوفى وكان فيلسوفا (ت ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م) كان يشرب الراح يستر شيبته بخضاب رأسه ولحيته .

وتشير المصادر الى أن السلطان الظاهر بيبرس - ان قبل موته قد عقد مجلسا لشرب القمز فى المحرم من سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧١ م وعظم سروره وفرحه ، فأكثر من الشرب ، وبعد انقضاء المجلس ، توعدك وظل حتى مات .

ولعل السلطان بيبرس كان يرى أن شراب القمز ليس خمرا - مع انه مسكر - بدليل انه كان يواظب على شربه هو والأمراء ، حتى فى أيام منع المنكرات .

وكما قال الشعراء فى الخمر ، قالوا فى الحشيش ، فمنهم من ينكر تحريمه ومنهم من يذمها (٦) .

وكان السلطان الأشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م) يميل الى شرب الراح وحب الملاح .

والسلطان المنصور لاجين الحسامى (٦٩٧ - ٦٩٨ هـ / ١٢٩٧ - ١٢٩٨ م) عرف عنه فى صباه أنه انهمك فى الشرب « حتى

صار وهو بدمشق يعاقر أعيان أهلها وينعم فى مجالس اللهو عليهم .
وكان من عاداته أن يصطحب معه فى سرحات الصيد أرباب الملاهى ،
هذا وإن كان لاجبن قد شدد نهما بعد فى منع المحرمات وحدنى
الخمير بعض أولاد الأمراء ، حتى أصبح يصوم رجب وشعبان ،
ويقوم الليل ويكثر من الصدقات .

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فقد أمر فى جمادى
الآخرة سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م بإدارة الخمارة بدار ابن جرادة ،
ويقصد بها حانة الخمير والفسوق فظهرت الخمور والفواحش
« وضمنت فى كل يوم بألف درهم » .

ويبدو أن الحشيشة كانت منتشرة فى عهد السلطان الناصر
محمد بن قلاوون حتى أن أحد الشعراء ، وهو أحمد بن الثقفى
(ت ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م) يسوق شعرا موضحا مضارها وأثرها
السيئ على متعاطيها (٧) .

هذا وقد أبطل فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون
الاحتفال بعيد الشهيد (٨) ، عند النصارى ، حيث أقام الأمير بيبرس
الجاشنكير فى إبطاله ، وكان يباع فى ذلك اليوم من الخمير « بنحو
مائة ألف درهم ، حتى أنه فى سنة ياع رجل نصرانى بمائتين
وعشرين ألف درهم خمرا ، فكان أهل شبرا يوفون الخراج من ثمن
الخمير » .

وكان من عادة الممالك كذلك أن يقدموا فى بعض المناسبات
مشروبات بريئة الى الناس عبارة عن شراب السكر والليمون الذى
يجهز فى أحواض لهذا الغرض ، كما حدث عند قدوم السلطان من
الشام بعد هزيمة التتار فى شوال سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣ م وزينت
القاهرة ، كما كان يقدم مثل هذا عادة بعد الأسمطة .

ويبدو أن السلطان الناصر محمد هو أول من رتب المواكب بالقصر الكبير وشرب السكر بعد السماط ، وسار على ذلك من جاء بعده من السلاطين .

وتشير المصادر إلى أن أهل الأدب كانوا أكثر الناس ميلا للشرب والطرب فقل أن عبد الرحيم بن محمد بن يوسف السهمودي (ت ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م) وكان ظريفا خفيف الروح « جاريا على مذهب أهل الأدب في حب الشرب والشباب والطرب » .

ولعل كثرة ما قيل من نظم في الخمر يدل على ذلك ، حتى قال أحدهم وهو الأديب ابن بيلبك المحسنى (ت ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م - في الخمر أبيات ماجنة يصف فيها الساقى والخمر (٩) .

ولعل ذلك يدل على أن شرب الخمر كان منتشرا ليس في القاهرة وحدها بل كان كذلك في الأقاليم .

وكان بعضهم يفاضل بين الخمر والحشيش ويفضل الخمر على الحشيشة (١٠) .

وفي فترة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثالثة ، حدث في بغداد مثلما حدث في القاهرة في عهد الظاهر بيبرس ، من تنويب الخواطي وتزويجهن « حتى لم يبق في البلد خاطئة » ، وأريق الشرب « حتى لو صب في دجله لغرق بغداد كثرة » ، كما منع الناس من عصر العنب ، ونودي « أن من تخلف عنده شيء من الشرب يكون ماله ودمه للسلطان » وقيل قتل بسبب ذلك جماعة .

ويبدو أن هذا المنع لم يكن ليستمر طويلا ، فسرعان ما كان الناس يعودون إلى سابق عهدهم في الشرب ، حتى أنه في عصر السلطان الكامل شعبان (ت ٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م) اضطر الأمير

سيف الدين أرقطاي الذى عين نائبا فى حلب أن يبطل الخمر والفجور « بعد اشتهاها » .

أما السلطان أبو بكر بن الناصر محمد ، فلم يبق فى الحكم إلا شهرين الا يوما (٧٤١ - ٧٤٢ هـ / ١٣٤٠ - ١٣٤١ م) حيث خلعه الأمير الكبير قوصون نائب السلطنة لفساده وشره الخمر ونفى هو وأخوته الى قوص ، وتولى أخوه أحمد بن الناصر محمد الذى خلعه هو الآخر لاشتغاله بملذاته وانعكافه على اللهو وبقي بقلعة الكرك حتى قتل سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م ليتولى أخوه الصالح اسماعيل ورغم انه قد سار من قبل على صراط مستقيم ، فأنه افتتن بالملك وشغف بحب الجوارى .

وفى عهد الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد الذى تولى الحكم سنة (٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م) فقد خربت بلاد كثيرة على الرغم من قصر فترة حكمه ، ويرجع ذلك « لشغفه باللهو ، وعكوفه على معاورة الخمر وسماع الأغاني » .

والسلطان المظفر حاجى بن الناصر محمد فقد « انعكس مزاج الناس عليه بلعبه واقباله على اللهو والشغف بالنساء » .

وكان السلطان الناصر حسن يحب اللهو والطرب ، ويميل الى شرب الراح وحب القيان من النساء الملاح .

هذا وذكر أن الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى قد « انهمك على شرب الخمر ، وسماع الآلات والزمور ، واشتغل بذلك عن أمور المملكة ، فخلعه الأمير يلبغا العمرى وسجنه بدور الحریم بالقلعة واستمر فى لذاته فكان فى مدة سجنه بالقلعة « يسلى نفسه عن الملك بشرب الراح وسماع المغاني ومشاهدة الملاح ، فكان لا يصحو من السكر ليلا ونهارا » .

والسلطان الظاهر برقوق الذى عرف عنه عدم رغبته فى اللهو والطرب كان « بعض الأوقات يوم الأحد والأربعاء ، يشرب القمزمع بعض خواصه من الأمراء ، لاجل انشراح صدره وازهاب غمه »

وفى سنة ٧٩٧ هـ / ١٣٩٥ م من عهد السلطان الظاهر برقوق ، أحدث الأمير تمرغا المنجلى شرابا من الزبيب ، يعمل لكل عشرة أرطال من الزبيب أربعون رطلا من الماء ، ويدفن فى جرار بزيل الخيل أياما ، ثم يشرب فيسكر .

« وصار يقال له التمرغاوى » وأقبل السلطان على الشرب منه والامراء ولم يعرف عنه أنه يتعاطى المسكر قبل ذلك .

وفى عهد المنصور عبد العزيز ، تولى الاتابك بيبرس أمور السلطنة مع عدم أهليته لتصرف أمور الدولة « لانهماكه فى اللذات ولا تعكفه على اللهو والطرب عمره كله ، لا يميل لغير ذلك ، ومنذ مات خاله الملك الظاهر برقوق لم يدخل بنفسه فى أمر غير هذا المعنى المذكور(١١) .

وكان السلطان الناصر فرج مسرفا على نفسه منهماكا على شرب الخمر وسماع الزمرور . وفى سنة ٨٠١ هـ / ١٢٩٩ م عاد السلطان فرج الى قصوره بعد أن ركب للعب الكرة « فعكف على شرب الخمر » ، وكان يخرج للتنزه الى بر الجيزة ويطلع الى القلعة ، كل ذلك وهو لا يملك نفسه على فرسه ، من شدة السكر وكان يستقبل زواره وهو فى مجلس شرابه ويشربون معه .

ومن أن لآخر درج شعراء العصر أن يصفوا لنا مجالس الشراب . والقائمى عليها ، فهذا أحدهم وهو على بن أبيك بن عبد الله الدمشقى الشاعر (٨٠١ هـ / ١٢٩٩ م) يسوق لنا نظما . فى هذا المجال(١٢) .

هذا وقد اُقيِل العامة على شرب الخمر ، لذا فقد ارتبط بذلك انتشار بعض الخرافات ، والاعتقادات المتعاقبة بها ، كما هي عادة العوام فى سرعة انتشار مثل ذلك ، فقد قيل انه اجتمع رجالان من العوام بدمشق فشربا الخمر ، فأصبحا محروقين دون أثر للنار فى غير بدنهما ، وبعض ثيابهما ، وانتشر ذلك بين الناس فاقبلوا أفواجا لرؤيتهما للاعتبار .

ومهما يبدو فى مثل هذه الروايات من سخافة ، وبعد عن الواقع فانها توضح لنا جانبا مهما من حياة الناس فى ذلك العصر ، فبرغم الاقبال على شرب المنكرات وتفشيها ، فان الناس لم ينسوا ذلك الوازع الدينى والضمير الحى الذى ينكر ذلك .

ويستمر الشعراء فى وصف الخمر وشاربيها والقائمين على سقايتها فهذا محب الدين أبو الوليد محمد (ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) ابن الشحنة يتغزل فى الساقى غزلا مكشوفيا ، ويبدو ان ذلك كان من طبيعة العصر ، حيث كان الساقى يتمتع بشغف الشاربين ورواد المجالس ، ويظهر أن السقاة كانوا يختارون من ذوى الجمال وحسن السميت (١٣) .

وأدى انتشار الخمر بهذه الصورة الى ان بعض القضاة (١٤) اثناء مباشرتهم أعمالهم لم يتورعوا عن اراقعة الخمر وازالة المنكرات ، وقد يتعرضون نتيجة لذلك لتعصب البعض عليهم ، وقد يصل الأمر الى عزلهم .

والغالب أن منع الخمر والمنكرات كان مرتبطا بما يحدث من أزمات كانت البلاد تتعرض لها ، فكان المعاصرون يفسرون تلك الأزمات والايوثة التى تحل بهم فى ضوء فساد الناس وخروجهم

عن طاعة الله واسرافهم فى المعاصى مثل شرب الخمر وغير ذلك
لذا نجد أن الدعوة الى التوبة الى الله تعالى فى اوقات تلك الازمان
فيسارع الناس الى اراقة الخمر ، والبعد عن السيئات ، عسى
أن يكشف الله عنهم الغمة ، وذلك مثلما حدث سنى ٧٠٩ و ٧٨١ ،
٨٣١ و ٩٢٢ فقد منعت الخمر وحرم تعاطيها فى انحاء البلاد .

ولكن كما سبقت الاشارة فان تلك الأوامر لم تكن ليستمر
مفعولها طويلا ، اذ لا يلبث أن يعود الناس الى سابق عهدهم .

وقيل انه فى عصر الأشرف قايتباى قبض على شخص وهو
سكران فى رمضان فضرب بالمقارع- وشهر به فى القاهرة . كما
أخذ رجل آخر سكران وهو يشرب الخمر فى النهار « فضرب الحد
وطيف به ، فثار به عامة الصليبية فقتلوه ثم أججوا نارا فألقوه
فيها » .

وفى عهد الأشرف قايتباى ايضا قبض الوالى على جماعة
من المماليك الأروام وهم يشربون الخمر فى نهار رمضان فضربهم
وأشهرهم فى القاهرة ثم سجنهم .

أما السلطان المؤيد شيخ المحمودى فكان يميل الى شرب
الراح ، ففى عهده « ألزم التاج الوالى بالقاهرة اليهود والنصارى
بحمل الخمر فوزعت على الأسارى وغيرهم » .

وعرف عن السلطان الظاهر ططر عفته عن سائر المنكرات .
وكذا السلطان الظاهر جقمق ، فقد كان على خلاف من سبقوه من
السلطين ينفر بطبعه من اللهو والمجون والطرب .

وتشير المصادر كذلك الى أن السلطان الناصر محمد بن
قايتباى « وكان متقيا فى نفسه ، لم يشرب قط خمر » ولا كان

يستعمل شيئاً من الأشياء المخدرة » • وله اشتغال بالعلم كثير .
المطالعة فى الكتب •

أما السلطان قنصوه الغورى ، فلم تشر المصادر انه شرب
خمرا - برغم كثرة متنزهاته ومجالسه - بل نودى فى عهده « بقنع
النبيذ والحشيش والبوزة ومنع النساء الخواطى من عمل الفاحشة
واستمر يشهر المنادة بذلك ثلاثة أيام متوالية » • بل لقد أمر
السلطان الوالى بما فحواه « كل من وجدته من الفقهاء وهو سكران
فاقبض عليه • • »

ويبدو ان ذلك كان أيام تزايد الطاعون ، وكان ذلك مما تعارف
عليه الناس فى ذلك العصر كما سبقت الإشارة •

وحكى أن أحد الشعراء مر على قوم جلوس للشرب ، وكان
معروفا لهم ، فدعوه عندهم يذاكرهم ، وبينما هم كذلك ان جاء
جماعة الوالى فأخذوهم وأخذوه معهم ، فلما عرضوا على القاضى
عرفه فوجه اليه اللوم (١٥) •

وكان السلطان الغورى مغرماً بتقديم الفاكهة والحلوى
لمجالسيه وكذا شراب السكر والليمون مع انه كان مغرماً بالطرب
والغناء وهذا ما سوف نوضحه فيما بعد •

واعتماد الممالك بعد رمى القبق ان يدعى الأمراء والمشترون
لشرب سكر مذاب وهم جالسون فى خيمة تقام خصيصاً لهذا
الغرض ، فيمر السقاة على الأمراء بالأوانى المصنوعة من الذهب
والفضة والبلور • أما الأجناد فتشرب من أحواض قد يبلغ عددها
المائة حوض •

وقد كان لبعض السلاطين مضحكون ، يضحكونهم فى
مجالسهم ومحافلهم فكان للسلطان الغورى نديم يضحكه يدعى

« الشنقجي العجمي » يلعب بالصدقون النحاسية والجريد ، كما أن
الناصر محمد بن قلاوون كان له مضحك يسليه في مجالسه .

ويبدو أن هذا التقليد قد استمر بعد عصر الماليك حتى
العصر العثماني بدليل أنه وصلتنا تصويرة من مخطوط المهرجان
« سور نامه » مدفوزة بمتحف طوبقا بسرأي ، تمثل السلطان أحمد
الثالث في مجلس طرب وأنس يحضره بعض المضحكين يبدون في
أسفل الصورة ، وهم يقومون ببعض الحركات المضحكة .

وبلغ من اهتمام سلاطين الماليك بمجالس الشراب
ومستلزماتها إلى أن أنشأوا دارا ضمن الدور السلطانية تعرف
بالشراب خاناه « يعين لها موظف من الأمراء يدير شئونها من يعرف
بشهاد الشراب خاناه يختار عادة من بين أمراء المثين أو أمراء
الطبلخاناه ، وهو المسئول عن الأصناف الواردة إلى خزانة الشراب
من السكر والفواكه والحلوى والشراب ونحوها .

وبلغ من أهمية هذا الموظف ما يوضحه قول ابن آياس عن
متولى هذه الوظيفة في عهد الناصر محمد فيقول « فلما بقي شهاد
الشراب خاناه اجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب الحل والعقد
بالديار المصرية ، وصار السعي لأرباب الوظائف من بابه ، وعولت
الناس على اشغالها في رد جوابه .

وقد نال هذا الموظف رعاية السلاطين ، فحظي بانعاماتهم ،
فالسultan الأشرف قايتباي « قد أنعم على برقوق شد الشراب خاناه
بتقديمه ألف » ثم كان هناك موظف آخر يختص بالشراب خاناه وهو
مهتار الشراب خاناه (١٦) ، وهو يرأس طائفة الشراب دارية وهم
الغلمان المكلفون بالخدمة في تلك الدار .

هذا وقد ورد فى المصادر المعاصرة أن السقاة الذين يوكل اليهم أمر المشروب ، عليهم النصيح حسبما تقتضيه وظائفهم ، وعلى الساقى أن يراعى أمرين :

الأول : الا يحضر لمخدومه منكرا يشربه ، وعليه أعمال الذكر والحيلة فى سد هذا الباب وابعاده عن الأمير بقدر طاقته ، وله فى ذلك أن يكذب أما اذا كان الأمير جبارا فعليه التوسط ودفع المنكر ما أمكنه خاصة فى الأوقات التى يجلس فيها الأمير للحكم بين الناس خشية ان يحكم وهو سكران .

الأمر الثانى : هو ان يحفظ حقوق مخدومه والخشية عليه من أن يدس له فى المشروب ما يهلكه من سم ونحوه . ويقال ان جماعة من المماليك السقاه قتلوا مخدوميهم لأغراض الدنيا ، فلم يحصلوا على شىء مما أملوه .

ومع ذلك فإن لدينا خبرا مؤداه ان السلطان الناصر قتل الأمير بكتمر بالسم والمعروف أن بكتمر كان هو ساقى الملك الناصر .

وتجدر الإشارة الى ان مجالس الشراب - كما اشيرنا فى البداية - كانت مرتبطة فى غالب الأمر بأسباب الطرب من غناء وموسيقى ورقص أحيانا فقيما قيل : ان « غناء بلا شراب كحفلة بلا عطية ، وهدية بلا نية ، ورعى بلا مطر ، وشجر بلا ثمر ، وحذاء بلا بعير ، وروضة بلا غدير . قال الرشيد : النكس الذى يشرب على غير سماع .

ذلك ما كان يجرى زمن سلاطين المماليك ، فكثيرا ما صاحب الشرب غناء ، ولهو ومجون فى بعض الأحيان ، وان كان بعض السلاطين قد عقدوا مجالس للطرب خالية من الشراب الا غير

مسكر ، كما وجد من السلاطين من لم يعاقر الخمر ، ومع ذلك كان مولعا بمجالس الطرب غناء وموسيقى .

ولوحظ كذلك - من خلال المصادر - اقتران اسماء كثير من الشخصيات فى العصر المملوكى بمجالس الطرب أكثر من اقترانها بمجالس الشراب .

ولعل ذلك هو ما أوجب أن يفرد للطرب حديث يتناول مجالسه وهو ما نعرض له فيما يلى .

مجالس الطرب :

قيل فى الطرب والأسباب الباعثة عليه انه ما استفز الانسان من الفرح والحزن ، وليس يختص بالغناء وحده ولا بالملاهى ، بل يستفز الانسان للشعر والحديث ولذكر الجود وللمواضع الحسنة ، ولكل منظر رايق وحديقة مونقة . ومنه ما يعرض عند الخوف ، وذكر الموت ، والفجيرة ، والنعي والفراق ، والصلة السيئة ، ولقاء المحبوب .

فلكل حاسة من حواس الانسان ادراك ، وان فى مدركات كل حاسة ما يستلذ ويكره ، فلذة حاسة البصر - مثلا - « فى المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجارى والوجه الحسن ، وسائر الألوان الجميلة وهى فى مقابلة ما يكره من الألوان الكدرية والقيحة » .

الغناء :

أما الطرب للغناء ، فطرب كل انسان على ما يوافقه ، ويأتى على ما فى نفسه « وكأما علت معرفة الانسان بالغناء قل طريقه ، لقلبة ما يعجبه وإطلاعه على الخلل والزلل والنقص والتبديل » .

وقيل : فضل الغناء على الكلام كفضل الكلام على الخرس .

ويرى البعض أن الالحان ، والموسيقى ، - وهى مصاحبة للغناء - ليس الهدف من وضعها الالتذان بسماعها فحسب ، وإنما قصد بها ضروب من المداواة والسياسة والتخيل « لاحالة البخيل الى السخاء والساخط الى الرضا والقاسى الى الرقة ، والجبان الى الشجاعة ونقل النفس من حال الى حال » .

وقال حجة الاسلام ابو حامد الغزالى (رضى الله عنه) الطرب يسوق النفوس الى موطنها الاصلى ، فاذا انساقنا النفوس الى موطنها طلبت عنصرها ، فيعقبها عن ذلك البدن الكثيف فتتهوى راجعة ، وهو غناء الأرواح وله أثر فى البدن . . .

وحدث أن أحد المطربين مر على جماعة من مثله ولما غنى عليهم أطربهم وتغيرت أحوالهم بتغييره عليهم حتى ضحكوا ضحكا شديدا ثم غير عليهم فبكوا بكاء شديدا واستمر بغير عليهم حتى تاموا جميعا .

وتلك الرواية تشير الى استخدام آلات الطرب مع الغناء ، وأن من تلك الآلات ما كان معقدا ، كما توضح أثر الطرب فى النفوس فممنه المضحك ومنه المبكى ، والمنوم ، ويتوقف ذلك على مهارة العازف والمطرب ، وتهيئة نفوس السامعين ، وقيل الرقص (سبب فى تحريك السرور والنشاط) واظهار « السرور بالانغمات والشعر والرقص والحركات محمود » .

وما من شك فى أن وسائل الطرب ومجالسه ، قد اختلفت باهتمام الناس على مر العصور ، فلكل عصر وسائله فى تحقيق الطرب وإن تشابهت فى معظم العصور ، مع اختلاف اقتضايته سببه التطور ، وأفرزته المدينة والتحضر .

وكان المماليك يقبلون على الاستمتاع بالحياة ، وخصوصا
ان مصر بغناها وثروتها جعلت نفوسهم تميل نحو الابتهاج بالحياة
لذلك اقبلوا على الملاهى وأحاطوا أنفسهم بأربابها . فكان بعض
السلاطين يميلون الى سماع الموسيقى والغناء ، وأقاموا لذلك
المجالس الحافلة والليالى الملوكية النادرة .

وقد ذكر ان اصول الملاذ (اللذات) فى الدنيا ثلاثة ، وقيل
أربعة وهى « الأكل والمشروب ، والنكاح (المنكوح) والمسموع
الطيب ، والمنظر الحسن ، وهى بمصر أكمل من غيرها » .

وكما شغف السلاطين المماليك ، شغف ايضا الناس فى ذلك
العصر بسماع الموسيقى والغناء ، ومما جعل للموسيقى والغناء
اهمية كبيرة فى ذلك العصر ، تشجيع السلاطين واغداقهم على
المغنين والمغنيات ، ثم انتقال الأغاني الى الناس عن طريق السماع
ومع ذلك كان هناك من ينفر من الغناء ولا يحضر مجلسه (١٧) .

وتطالعنا المصادر المعاصرة بأخبار بعض السلاطين والأمراء
الذين اضطهدوا المغنين والمغنيات ، كالمك الظاهر بيبرس
الذى أمر سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م باغلاق الحانات ، ولاسيما ماكان
منتشرا منها بالاسكندرية ، وكذا أرباب الملاهى والخلاعة والمجون ،
حتى ضاقت بهؤلاء سبل العيش ، فى عهده وقل عددهم ، واستراحت
البلاد من مفاسدهم .

وقد ضرب هذا السلطان المثل فى السلوك والقدوة ، حتى انه
فى حفل ختان ابنه الامير نجم الدين خضر سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٥ م
لم يقبل من أحد هدية ، ولا مقدمة ، ولم يبق من يشمله احسانه من
سائر الطوائف الا المغانى وأرباب الملاهى ، فانه لم تنفق لهم فى
طول ايامه سلعة ولا نالهم منه رزق البتة .

ولا شك في ان الألدان تكسب النشاط والحركة ، وانجساز
الاعمال في أيسر مدة ، وأدرك سلاطين الماليك ذلك فحدث انه عندما
خرج السلطان المنصور قلاوون الى جهة البحيرة ، لحفر البحر
المعروف بالطيرية من أجل منقعة البلاد ، وبأشر العمل بنفسه هو
وأولاده ومماليكه واستأجروا جماعة ممن أظهروا الهمة ، وحضر
اليه جمع غفير من الناس بالطبخانات « وحضرت مغنى العرب
وغيرهم من كل جهة ، فنجز العمل في أيسر مدة » .

وبرغم اظهار بعض السلاطين الاضطهاد للغناء وأربابه ،
فان الناس ظلوا على شغفهم بالطرب والغناء ، حتى بعض الفقهاء
ورجال العلم لم يتورعوا أن يظهرُوا ميلهم لتلك الفنون فان أحد
الصوفية وهو الشيخ عبد الله بن كتيلة وهو من شيوخ العراق
(ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) كان - مع علو قدره - « يترنم ويغنى
لنفسه في بعض الأوقات » .

وبلغ الأمر أن بعضهم (١٨) وكان « مرتاضا محبا للسمع ،
أوصى أن تخرج جنازته بالدفوف والشبابية ، وتمنع النائحات
والباقيات عليه » .

وكان بعض الوعاظ يحضرون السماع وهو حلقات الذكر
التي تقيمها الصوفية يتناشدون فيها الأشعار بانتظام وحركات
خاصة ، ويتظاهر فيها البعض بالتواجد .

وشارك العوام في الغناء في مناسبات كثيرة ، منها ما حدث
عندما رسم السلطان المظفر بيبرس الى شنكير سنة ٧٠٩ هـ بفتح
السد من غير وئاء ، وقد نقص عن الوفاء ثلاث أصابع « فصنف
أهل مصر كلاما ولجنوه وصاروا يغنون به ، في أماكن المفترجات
وغيرها وهم يسخرون من السلطان » (١٩) .

ولما سمع السلطان بذلك أمر الوالى بالقبض على جماعة من
العوام فضرب بعضهم بالمقارع واشهرهم فى القاهرة على جمال ،
كما رسم بقطع السنة بعضهم .

ويدل ذلك على أن العوام فى العصر المملوكى ، عبروا عن
سخريتهم وسخطهم عن طريق الغناء التلقائى الذى ينقدون فيه
أوضاع الدولة كما تظهر جانب الشدة فى معاملة الناس عند بعض
السلاطين .

وحدث أن استأذنت احدى المغنيات تدعى النصيفة للدخول
على جماعة كان معهم الأديب حجازى بن أحمد صفى الدين
(ت ٧٠١ هـ) ، وكانت تغنى شعره فأجابها على الفور شعرا وطلب
منها الغناء (٢٠) .

وكان السلطان المنصور لاجين « يصحب معه فى متصيداته
أرباب الملاهى » ، وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون كذلك
شغوفاً بحب الجوارى والمولدات والسود بحيث بلغت عدتهن عنده
ما يزيد على ألفين ومائتى وصيفة ، وكان يستدعى من يعلمهن
الغناء كما سبقت الإشارة وعندما سمع عن المغنى على بن عبد الله
الماردينى - وكان من مماليك صاحب ماردى ، واشتهر بضرب
العود - استهداه من صاحبه ، فأرسله اليه وحظى عنده الى الغاية
« فلما مات الناصر تاب من ضرب العود وكسر آلاته مع انه كان
لا نظير له فيه » .

كما اشتهر من مغنى مصر فى عصر الناصر محمد بن قلاوون
المغنى عبد العزيز المعروف بابن الفصيح (ت ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م)
الذى « كان اعجوبة زمانه فى صناعة الغناء » (٢١) .

ولما عاد السلطان الناصر محمد من الشام بعد عودته من الحج « فزينت له القاهرة ولاقته القضاة الأربعة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير ، ولاقته المغاني » .

وعندما اتم الناصر محمد عمارة القصر الكبير المعروف بالقصر الأبلق جمع القضاة الأربعة والأمراء ، وقرأ ختمة ، ومد سباطا حافلا وملا الفسقية التي بالقصر سكرًا وإيمونا ، وشرب الناس بالطاسات ، كما أخلع السلطان على جميع الطوائف الذين اشتركوا في البناء ، وفرق على الفقراء في ذلك اليوم نحو خمسين ألف دينار « ثم أحضر آخر الليل المغاني وأرباب الآلات ، ووقد بها وقدة عظيمة ، وبات بالقصر تلك الليلة ، وكانت ليلة ملوكية » .

وقد فرضت الدولة على المغنين والمغنيات في ذلك العصر ضريبة عرفت باسم « ضمان المغاني » ويذكر ابن اياس أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد أبطل ضمان المغاني وكان « عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا ، وذلك لو خرجت أجل امرأة من نساء القاهرة تقصد البغاء ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة ، وقامت بما يلزمها من القدر الذي يتعين عليها ، فما قدر أكبر من في الحكام يمنعها عن البغاء وعمل الفاحشة ، وكان يحصل من ذلك لنساء أعيان مصر ، وبناتهم ، غاية الفساد » . وكان ضمان المغاني يمثل مصدرا كبيرا للاموال بالنسبة للدولة .

ويبدو أن ابطال ضمان المغاني في عهد هذا السلطان قد ارتبط بابطال البغاء فيقول ابن اياس « فأبطل هذه الفاحشة العظيمة من مصر » .

وحديث ابن اياس عن البغاء يدل على ما كانت عليه بعض النسوة فى مصر ، وما كانت تتمتع به المرأة المصرية فى ذلك العصر من حرية خارج المنزل فى شوارع القاهرة وأسواقها ومنتزهاتها ، وبطبيعة الحال لم تكن كلهن يستئن استغلال تلك الحرية انما هى على أكبر الظن فئة محدودة عرفها التاريخ فى كل العصور وكل الأمم .

هذا ويذكر بعض المؤرخين أن سانوتو (Sanuto) وهو رحالة أجنبى زار القاهرة فى عصر المماليك ، لاحظ هو وغيره ما كان بعض النسوة عليه فكن يتغيبن عن منازلهن فى أوقات كثيرة من النهار ورغم ذلك قلما يتعرضن للوم أزواجهن وان كان هذا القول فيه ظلم كبير لكثير من النسوة فى ذلك العصر .

هذا وقد حظى المغنون والمغنيات وأيضا العازفون على الآلات الموسيقية باهتمام الشعراء فى عصرهم فنظموا فيهم كثيرا من أشعارهم (٢٢) .

وكانت طوائف كثيرة من الشعب لها المام بالموسيقى ، حتى الوعاظ ، كان لبعضهم ميل نحو الموسيقى ، كما كان الشيخ شرف الدين عيسى بن محمد بن محمد السهرودى (ت ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م) يعرف الموسيقى وسوف نشير الى امثله اخرى عند الحديث عن الموسيقى فى هذا الفصل .

أما السلطان ابو بكر بن الناصر محمد فكان منكبا على اللهو ومعاقرة الخمر بشكل بخس حرمة الملك ، بحيث صار « يطلب الغلمان فى الليل ويبعثهم لاحضار المغانى » فيطلعون اليه رجسالا ونساء .

واعتماد الممالك فى المناسبات أن يضربوا الكوسسات (٢٣)
وطبلخانات الأمراء فى مناسبات كثيرة مع اقامة الزينة فى مصر
والقاهرة ، مثلما حدث بعد أن عوفى السلطان أبو بكر من مرض
الم به حيث « ضربت الكوسسات وطبلخانات الأمراء يومين » وأقيمت
الزينة عشرة أيام .

ولاشك أن تلك المناسبات كانت مجالا رحبا للناس فى عصر
الممالك للفرجة يجدون فيها متنفسا لهم وترفيها ، بما يعزف من
موسيقى وما يقام من زينة وإن كانت تلك الزينة قد مثلت عبئا على
الناس لكثرتها كما سبقت الإشارة .

وعرف عن السلطان الصالح اسماعيل شغفه بحب الجوارى
السود « وأفرط فى محبة اتفاق العوادة ، وفى العطاء لها ، وقرب
أرباب الملاهى وأعرض عن تدبير الملك بأقباله على النساء
والمطربين » .

هذا وقد أعيد فى أيام الملك الكامل شعبان بن الناصر
« ضمان أرباب الملاعب وعدة مكوس » كما شاعت محبته الزائدة
لاتفاق العوادة التى قيل أن قيمة عصبتها التى على رأسها بلغت
مائة الف دينار .

والسلطان المظفر حاجى قد شغف أيضا بمحبة اتفاق العوادة
المذكورة وصارت محظيته ، وسمع المغنى اسكندر بن كتيلة الجنكى
وكذا دبيعة مغنية عرب الجيزة ، وكانت من المخالين بالقلعة .

ومن محظياته أيضا : سلمى والكركية وكيدا ، وقيل أنه كان
لا يفارق كيدا هذه .

كذلك كان السلطان الناصر حسن « كان يحب اللهو والطرب »
ويميل الى شرب الراح ، وحب القيان من النساء الملاح ، وكان

يميل الى سماع الآلات ، ويقرب المغاني ، ويحب أرباب الفن من
المغاني قاطبة .

كما كان يتخذ من مغن اسمه « عطط » نديما له ، والى
جانب نديم آخر يدعى « الدخان » المشبب وكان يحضر فى مجلسه .

وفى عهد الناصر حسن كثر اقتناء الجوارى لدى الأمراء
ورجال الدولة حتى أن الوزير فخر الدين ماجد بن خصيب كان لديه
« سبعمائه جارية » ، وكان عنده جارتان برسم المطبخ ، تحسن
كل واحدة منهما ثمانين لونا من الثقالى سوى بقية ألوان الطعام .

ويحكى أن محمد بن عيسى حسن بن كر البغدادى الذى ولى
مشيخة الزاوية التى بجوار المشهد الحسينى (ت ٧٦٣ هـ /
١٣٦٢ م) قد أخذ علم الموسيقى عن غير واحد ، وفاق الأقران ،
وصنف فيه تصنيفا بديعا « وصار فى فنه لا يلحق ونقل مذاهب
القدماء وحررها ، وأخذ نفسه بالألا يمر به صوت مما ذكره أبو
الفرج الاصفهاني الا يجيء به على وجهه » : وقبل انه لم بتكسب
بصناعة الموسيقى « وكان يغنى فأضحك ثم غنى فأبكى فنوم » وقال
ابن الصائغ الدنفى : « مر بن كر على قوم يغنون فحرك بغلته حتى
مشيت على ايقاعهم » .

وحدث عند دخول الملك الصالح صلاح الدين الى القاهرة
عائدا من دمشق سنة (٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م) اقيمت الزينة فى موكب
حافل « واصطفى له المغاني ، من الرجال والنساء على الدكاكين
وكذلك الطبول والزمور » .

والسلطان المنصور محمد بن المظفر حاجى عزل بسبب انشغاله
عن أمور المملكة بشرب الخمر وسماع الآلات والزمور ، « وكان

عنده جوقة مغان نحو عشر جوار ، يزفون بالطارات عند الصباح وعند المساء » . ويبدو أن ذلك كان من عادات الاكابر من اهل مصر ، حيث تقف عندهم الجوارى المغانى ولكن ذلك أبطل .

وقيل « لما مات الملك المنصور ، استمرت جواريه المغانى يعملن الأفراح للناس وكن يعرفن بجوقة المنصور » (٢٤) .

وفى عهد الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ، أسقط ضمان المغانى ، وذلك بعد أن اجتمع به قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم بن جماعة والشيخ سراج الدين عمر البلقينى « وعرفاه ما فى ضمان المغانى من المفاصد والقبايح » فأمر السلطان بإبطال ضمان المغانى والأفراح بجميع اعمال مصر من أسوان الى العريش ويذكر المقرئ أن وزراء السوء كانوا قد أعادوه « لكثرة ما يتحصل منه » .

وكان يدفع للضامنة من اهل العرس - حسب حالهم - مبلغ خمسمائة درهم أو يزيد ، وكان على كل مغنية قطيعة تحملها الى الضامنة ، « فان باتت فى بيتها قامت بمال للضامنة » وكانت تراقب المغنيات بواسطة جماعة خصصوا لذلك « فتدور فى كل ليلة على بيوت المغانى جماعة من جهة الضامنة لمعرفة من باتت منهن خارج بيتها » ، كما كان يفرض على البغايا ضرائب مقررة .

ويبدو أن ذلك لم يكن مقصورا على القاهرة وحدها ، بل انه امتد الى بلاد الصعيد والوجه القبلى ، حيث كانت تفرد حارات للمغانى والبغايا « تقوم كل واحدة منهن بمال مقرر » .

وبطبيعة الحال أدى ذلك التساهل من جانب الحكومة ، مع هؤلاء البغايا الى التجاهر بالزنا وشرب الخمر ، حتى انه « لو مر غريب بتلك المواضع - دون أن يقصد الزنا - لألزم بأن يأتى بغيا

من تلك البغايا ويكره على ذلك ، أو يفتدى بمال يدفعه اليها « حتى تقوم بما عليها من الضريبة » .

هذا وقد أهدى الى السلطان الأشرف شعبان من صاحب استانبول هدية فيها « صندوق عمل بمحركات هندسية ، فاذا مضت ساعة من الليل والنهار أخرجت تماثيل بنى آدم ، وضربت بصنوج فى أيديها ، وأنواع من آلات الملاهى معها ، واذا مضت درجة سقطت بندقة » .

ويبدو أن تلك الهدية كانت عبارة عن ساعة كبيرة شبيهة بما تراه اليوم على أشكال مختلفة وحيل متباينة .

هذا وقد كان لبعض المغنصات دور كبير فى حياة بعض السلاطين فالسلطان الأشرف شعبان أبان صراعه مع كبار الأمراء قد اختفى فى بيت إحدى المغنيات وهى المغنية آمنة بنت عبد الله امرأة ابن المتولى ، بحارة الجودية وكان يعرئها قبل ذلك .

ويبدو انه فى عصر المماليك كان هناك لون من الغناء الجماعى الذى تمثل فى أغانى العمل . وقد سبقت الإشارة الى بعضها عند حفر البحر المعروف بالطيرية فى عهد السلطان المنصور قلاوون .

وهذا نموذج آخر من عهد الملك الأشرف شعبان ، عندما حاول السلطان جر عمودين عظيمين الى عمارته تحت القلعة وعجز الناس عن جرهما ، ولكن استطاعوا بعد جهد تحقيق ذلك فى عدة أيام « وكان للعامة فيها اجتماعات بطبولهم وزمورهم وقالوا من نزهاتهم فى جر العمود غناء تداولته ألسنتهم عدة سنين » .

ويبدو أنهم اهتموا بتسجيل تلك الواقعة ، فظهر بالاسكندرية قماش يسمى « جر العمود » وهو من حرير خصص لليس الفياض .

ونذكر انه فى عهد السلطان المنصور على أعيد جمال الدين محمود العجمى الى حسبة القاهرة ، ففرح العامة بذلك كثيرا « وكادوا يحملون بغلته وهو عليها بالخلعة .. وبالغوا فى اشعال الشموع والقناديل بالقاهرة ، ووقفت له المغانى تزفه اذا مر بها فى مواضع عديدة » .

وحدث ايضا ان الأمير الكبير برقوق قد أمر بإبطال ضمان المغانى فى نواح عديدة من مصر والشام ، كمدن حماة والكرك والشوبك ، ويبدو أنها كانت قد عادت فى مصر فى بعض النواحي حتى أمر بإبطالها كذلك فى ناحية منية ابن خصيب من أراضى مصر ، وفى ناحية زفتا (٢٥) .

وكان المحتسب يراعى تنفيذ تلك الأوامر بمنع المغانى والمنكرات حتى ان المحتسب الأمير جمال الدين محمود قبض على جماعة وقدمهم الى والى القاهرة الذى فرض عليهم غرامة مالية كبيرة وصلت الى مائة ألف درهم « وذلك أنهم ضربوا خيمه على جانب البحر يتفرجون فيها وعندهم مغان » .

مع انه عندما حدثت واقعة سرقة ابن القماح وهو أحد التجار بقيسارية جهاركس لحوانيت القيسارية ، محتالا على الحارس ، قبض عليه وعلى ولده وحمل المال المسروق على عدة حمالين « وسار بهم والمغانى تزفهم الى الأمير الكبير ، والعمله من ورائهم على رؤوس الحمالين والمغانى تزفهم فى شوارع القاهرة » .

وأحيانا يكون التشهير على جمل والمغانى تزفه ويطوفون به البلد كما حدث لشخص فى ولاية دمياط فى عهد المؤيد شيخ .

ولعل ذلك يوضح استخدام المغانى فى غير غرضها وهو الطرب وانما استخدمت فى التشهير أو التجريس بمفهوم ذلك العصر .

أما فى عهد السلطان الظاهر برقوق فقد تعرض بعض المغنين المشهورين لمصادره لقوا فيه مصرعهم ، فتشير المصادر المعاصرة الى ان السلطان برقوق أقام احتفالا بمناسبة المولد النبوى عام (٧٩٠ هـ / ١٣٩٠ م) وحضره ابراهيم ابن الجمال رئيس المغنين وشقيقه خليل رئيس المشبيين وعملا السماع بحضرة السلطان — كما جرت العادة — وبعدها حضرا حفلا آخر دعيا اليه بطيخة فى رحبة الخروب ، وبعد فراغ المولد وعمل السماع طلع الناس الى ايوان الطيخة ، وغنوا ورقصوا ، وبينما هم كذلك ، سقط سقف القاعة ، ومات ابن الجمال وشقيقه « وهما رئيسا صناعتهما » • ومعهم ستة غيرهم •

وتوفى — بغير ذلك السبب — سليمان القرافى المصرى الملقب بعلم الدين المادح وكان « رئيس اهل صناعته فى المدح والغناء » • وكذا المعلم اسماعيل الدجيجانى (٢٦) •

وعندما طالب الناس السلطان باعادة الأمير حسام الدين حسين ابن الكورانى (ت ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م) الى ولاية القاهرة ، فاعادة « ففرح الناس به فرحا شديدا ، وتلقوه المغانى بالقاهرة » وأوقد أصحاب الحوانيت إلقناديل ، كما أوقد اليهود النصارى الشموع •

أما السلطان المؤيد شيخ فكان يحب التنزه والمفرجات ، فكثيرا ما كان يخرج الى مواضع متعددة كسرياقوس والجيزة والريدانية ويقيم هناك مدة طويلة ، ويعمل أوقاتا بالقراء والمغنين ، والسماعات ويفرق على أهل الخانقاوات ، وعرف عنه أيضا معرفته الفن الموسيقى ونظم الشعر (٢٧) •

وركب مرة الى خانقاه سرياقوس ، وعمل هناك مجتمعا
حضره « عشر جوق من قراء القرآن ، وعدة من المنشدين » . ومدت
لهم اسمطة جليلة وبعد فراغ القراء والمنشدين اقيم السماع طول
الليل ، وانعم على المنشدين وصوفية الخانقاه بمائة الف درهم .

واشتهر من المغنين فى عهده ، صارم الدين بن باباي العواد
وصار من ندماء الملك المؤيد شيخ ومغنيه « وكان أعجوبة زمانه فى
ضرب العود والغناء » رغم أنه لم يكن جيد الصوت « ولكن فاقت
شهرته فى آلة العود وفى فن الموسيقى ، وانتهت اليه الرئاسة فى
ذلك ، ولم يخلف بعده مثله .

ويبدو أن مثل هؤلاء المغنين من ذوى الحظوة عند السلاطين
قد حصلوا ثروات طائلة من وراء فنهم ، حتى انهم كانوا دائما
عرضة للمصادرات من جانب بعض السلاطين والأمراء فى حالة
نقمتهم عليهم ، وذكر أن باباي هذا « جدد عمارة بستان المحلى
المطل على النيل ، وخلف مالا جزيلا » .

وقد ركب السلطان المؤيد من قلعة الجبل بأمرائه ومماليكه ،
ووجه دولته ، وسار الى حيث العمل فى حفر البحر تجاه منشأة
المهراني (٢٨) « ونزل فى خيم نصبت له هناك ونودى بخروج الناس
للحفير ، فخرج الناس طوائف ، ومع كل طائفة الطبول
والزمر ، وهم فى لهو ولعب » .

وركب السلطان بعد العصر وقدمت اسمطة جليلة « فكان
يوما بالهزل واللهو اشبه منه بالجد » . وكان على الأمراء مقطوعة
يحفرها كل منهم واستمر ذلك كل يوم .

وكان بعض الأمراء يصطحبون معهم - الى جانب مماليكهم
بعض الحيوانات كالفيل والزرافة بعدة طبول وزمر ، « واجتمع

هناك معظم الناس من الرجال والنساء للفرجة ، فكثرت سخريتهم
وتضاحك بعضهم على بعض » .

أما السلطان الظاهر ططر ، فكان « يحب انشاد الشعر بين
يديه لا سيما باللغة التركية ويميل الى الصوت الحسن ،
ولسماع الوتر ، مع عفقه عن سائر المنكرات » وسبقت الإشارة الى
ذلك .

هذا وقد كسدت في ايام السلطان الظاهر جقمق احوال ارباب
الملاهي والمغاني لكونه كان يكرهه وينفر منه بطبعه ، ومن كل ألوان
اللهو والمجون والطرب كما سبقت الإشارة .

والسلطان الأشرف قايتباي كان كثير الخروج والتنزه ،
تصحبه المغاني من رجال ونساء ، وكذا الأوزان والشعراء والشبابية
السلطانية ، وتصطف له جوق المغاني من النساء .

فتشير المصادر الى انه ركب لصلاة الجمعة - وكان له مدة
لم يركب بسبب كسر ساقه - « فلما ركب لاقته المغاني من بساب
الجامع وكان يوما مشهورا بالقلعة » ونودي بالزينة من أجل
ذلك .

وبلغ من شغفه للتنزه « ان توجه الى الأهرام وهو حاش
وحوله الأمراء وعملات هناك اسمطة حافلة ، وصار ابن رحاب
المغني عمال في كل ليلة وبقية مغاني البلدي » .

وكثيرا ما كان يخرج السلطان الى قبة الأمير ششباك
بالمطرية في موكب حافل ، فتلاقيه الأوزان والشعراء والشبابية
السلطانية وابن رحاب المغني « وتصطف له جوق المغاني من
النساء » .

وشارك الأمراء سلطانهم فى ذلك فاظهروا التجميل والبهجة
فى مواكبهم فقد شق الأمير يشبك من القاهرة ، وهو فى موكب
حافل وقدامه الأمراء ، وسارت الأطلاب امامه شيئاً فشيئاً « وبقيته
المغنى من رجال ونساء من باب النصر الى سلم المدرج ، والكوسات
عمالة بالقلعة والطبل والزمر مصفوف على الدكاكين » .

وثمة مظهر آخر من مظاهر الغناء الدينى ، كان شائعاً أيام
المماليك عند الخروج للج أو العودة منه ، فعندما خرجت خوند
فاطمة - زوجه السلطان الأشرف قايتباى - وهى ابنة العللى على
بن خاص بك ، عندما خرجت للحج سنة (٨٧٩ هـ / ١٤٧٥ م)
وأمامها جميع ارباب الدولة وغيرهم من المباشرين ، وأعيان الخدام
« بايدهم العصى وقدامهم من الحدادة أربعة منهم : إبراهيم بن
الجندى المغنى وابو الفوز الواعظ » .

وعند رجوعها من الحج فى المحرم من سنة ٨٨٠ هـ /
١٤٧٦ م ، لاقاها الأمراء والقضاة وهى فى تجميل زائد فى المحفة
« ولاقاها المغنى بالطارات » . ثم طلعت الى القلعة .

وفى عهد السلطان قايتباى كان كل من المغنى الموسيقى محمد
المعروف ببرقوق التونسى (ت ٨٧٥ هـ / ١٤٧١ م) « وكان بارعا
فى الغناء والانشاد وله شهرة طائلة » . وابو المواهب محمد بن
أحمد ويعرف بابن زغدان البرلسى (ت ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧ م) « وله
مؤلفات فى حل سماع العود » .

كذا ابو الفدا ، الواعظ الناشد المادح (ت ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م)
« وكان من أعيان دواخل مصر فى حسن الصوت وجودة الغناء » .

وكذا المنشد المطرب الواعظ المادح ، شمس الدين محمد بن
حلة (ت ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م) « وكان من مشاهير الوعاظ وله نظم
جيد » . والمغنية خديجة الرحابية (ت ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م) .

ويبدو أن الأمراء المماليك كانوا يستكثرون على عامة الناس أن تستمتع بما يجرى حولهم من فنون وطرب ، حتى أصبح مما يؤخذ على المغنى أن يقصد الى ترفيه الشعب ، وكان هؤلاء المطربين والمطربات متاعا لهؤلاء الحكام وأشياعهم ، دون غيرهم .

ففى عهد السلطان قايتباى قبض الأمير يشبك بن حيدر والى القاهرة على « خديجة الرحابية » وهى تغنى فى بعض الافراح بتهمة افساد عقول الناس ، وكان ذلك فى شعبان سنة ٨٨٦ هـ ١٤٨١ م . وأمر بضربها بين يديه نحو خمسين عصا ، وقررت عليها غرامة مالية ، كما كتب عليها تعهدا بعدم مزاولة مهنتها . وقد لبثت بعد هذه الحادثة مريضة حتى ماتت ولم تتجاوز من العمر ثلاثين عاما .

وخديجة الرحابية هذه ، كانت من اعيان مغانى مصر وكان أصلها من مغانى العرب ، عظم امرها « وحظيت عند ارباب الدولة ورؤساء مصر ، وكانت جميلة الشكل ، حسنة الغناء فاقتن بها الكثير من الناس (٢٩) » .

أما السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، فقد توجه الى قبة يشبك بالمطرية - السابق الاشارة اليها - وبات بها ، ثم شق من القاهرة فى موكب حافل « وجعل قدامه طبليين وزمرين ، وعبيدا سودا ترمى بالنقوط قدامه » .

أما السلطان قانصوه الغورى ، فقد افاضت المصادر المعاصرة فى ذكر صفاته وما انطوى عليه من ميل للتنزه ، كما كان له نظم باللغة التركية ، وعرف بولعه بسماع الموسيقى والغناء ومعرفته بهما ، حتى « كثرت المغانى فى أيامه لكثرة ما يصفى اليهم » .

وكثير ماتوجه السلطان الى الفيوم والأهرام ، ويقيم فى
الوطاق (٣٠) الذى ينصب له هناك عدة ايام ، وكان من عادته ان
ياخذ معه جماعة من المغانى وأرباب الآلات ، منهم محمد بن عويضة
العواد وجلال السنطيرى والبواقلة وابن الليمون وغير ذلك من
المغانى ، وكان ينعم على من يصطحبه فى رحلته من المغانى لكل
واحد منهم بعشرين دينارا وحنين صوف بسنجاب ، كما حدث فى
رحلة الفيوم فى ذى الحجة سنة ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م) .

وكان غالبا ما ينزل ويتوجه نحو المقياس ويجلس فى قصره
هناك ثم يعود من يومه ، ومعه جماعة من الامراء « وانشرح فى
ذلك اليوم الى الغاية ومد هناك اسمطة حافلة ، واحضر بين يديه
المغانى وأرباب الآلات . كما تسلى بمشاهدة مضحك يقال له على
باى الذى كان يعمل عفريتاً فى المحمل .

وكانت جزيرة الروضة من المواضع المفضلة عند السلاطين
المماليك خاصة السلطان الغورى ، حيث كان ينصب له خيام على
خرطوم الروضة ويبيت هناك ويمد له الامراء اسمطه حافلة « وطاب
له ذلك المكان وانشرح به وكان صحبتته المغانى وأرباب الآلات » .

وكانت قبة الأمير يشبك التى بالمطرية مقصدا لكثير من
السلاطين قبل السلطان الغورى ، الذى كان يتوجه اليها ويبيت
بها خاصة فى الليالى المقمرة « وحضر عند السلطان مغانى وأرباب
الات وانشرح هناك الى الغاية واقام فى القبة يومين » .

كما حظيت الاسكندرية بزيارة السلاطين على امتداد العصر ،
فقد توجه اليها السلطان الغورى سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) وصحبته
جماعة من المغانى وأرباب الآلات من دواخل البلد فى الغناء .

وكان السلطان قد انشأ بستاناً بميدان القلعة ويذهب إليه ويطلق ماء البحرة وينثر فيها الورود والياسمين ، ويضاء البستان بمصابيح من اشكال متنوعة ، وتحضر اليه مغاني البلد وأرباب الآلات الدواخل ويحيى بذلك ليالى حافلة عرفت بالليالى الملوكية (٣١) وقال فيها بعض الشعراء يصف ليلة من تلك الليالى .

ويدل هذا النظم على ان مجلس طرب السلطان الغورى كان يصحبه شراب ، فيذكر الساقى والندامى ، كل ذلك يدور فى جو عبق بالزهور والرياحين .

وتشير المصادر أن السلطان كان له عادة فى الخروج عند ابتداء موسم ضرب الكرة فى الميدان وأن يجتمع له سائر الأمراء المقدمين وهم بالشاش والقماش - أى بملابسهم الرسمية . « والأوزان عمال والمغاني على جارى العادة » .

وكان بعض الأمراء والقضاة يضيفون السلطان الغورى عندهم ، كما فعل القاضى كاتب السر محمود بن آجا ، حيث يقيم ببولاقي ، واصطحب السلطان ابنه معه « وانشرح السلطان هناك للمغاية واحضر بين يديه المغاني وأرباب الآلات ، وظهر القاضى كاتب السر انواع العظمة من الفرش الفاخرة والأواني الصينى والنداس المكفت » .

وثمة ملاحظة وهى أن السلطان الغورى كان يصطحب معه جماعات من المغاني وأرباب الآلات ، اينما توجه فى متنزهاته ، التى كانت كثيرة ومتقاربة ، وبدل ذلك على شدة حبه للغناء والموسيقى .

وفى عهد هذا السلطان انتشرت مظاهر الطرب الى حد كبير حتى شارك فيه الشعب بفتاته ، فبرغم استحواذ الممالك على كسار

المغنين والمغنيات وأرباب الآلات ، فان الشعب لم يكن محروما من تلك المتعة ، حيث كان لديه - بلا شك - المنشدون والمغنون والمغنيات من طبقات الشعب القريبة من عامة الناس من حيث المستوى الاجتماعي فالمغنون كانوا من طبقات شتى ، ويختلف منبع غنائهم ، فبعضهم من طبقة راقية مثقفة ، وبعضهم من طبقة شعبية .

ويدو انه كانت هناك جماعات للانشاد الجماعي ، يقود كل جماعة منها شيخ له دراية بهذا الفن ، فقل ان الشيخ صالح . محمد بن الخياط المدني المؤذن وجماعته كانوا ينشدون ، فأطرب الحاضرين وتباكى غالبهم .

كما كان السلطان يصطحب معه في الغالب صبيانا ينشدون حتى انه بعد صلاة احدى الجمع في الجامع الاموى ، ولما فرغ الناس من التسبيح عقيب الصلاة « انشد الصبيان الذين كانوا مع السلطان ، واجتمع الناس حولهم حتى كادوا يقتتلون » .

وفي عهد السلطان الغورى كان عدد من مشاهير المغنين والمغنيات وعازفى الآلات ، والريسات ممن كان لهم شأن كبير في مجال الطرب في تلك الحقبة الأخيرة من عصر المماليك . كان أشهرهم الرئيس نور الدين على بن رحاب (٩٠٥ هـ / ١٥٠٠ م) « المغنى المنشد المادح ، فريد عصره ، ووحيد دهره ، وكان من نوادر الزمان ، ينظم الشعر ، ويركز الخفائف بالالحن الغريبة وكان آخر مغانى الدكة في الدخول والطرب ، ولم يجرى بعده أحد مثله في الدخول » (٣٢) .

وكان الأمير طومان باى قد سبق له ان قبض على ابن رحاب في شهر ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ / ١٤٩٩ م ، وضربه بالمقارع .

وشهر به فى القاهرة وهو عريان ، مكشوف الرأس على حمار ،
وكان ذلك على أثر وشاية اتصلت بالأمير عنه .

وكذا الأستاذ على بن غانم الذى كان علامة فى ضرب
الطنبورة ، ومعرفة الأنغام « وهو الذى أظهر الخفاف النجدية
بمصر ولحنها فى التلاحين الغربية حتى أبطل بها فن الموسيقى » .

وفى عهده سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م توفى الناصرى محمد بن
قجق نديم السلطان « وكان علامة فى ضرب الطنبورة ، عارفا
بصناعة الأنغام ، ومشى فى جنازته أعيان الناس حتى أعيان مغانى
البلد والآلاتية ، فانه كان شيخهم » .

ومن المغنيات والريسات عزيزة بنت السطحى (ت ٩٠٦ هـ /
١٥٠١ م) وهى من أعيان مغانى مصر « فريدة عصرها فى النشيد ،
مع حسن الصوت وفصاحة بأعراب الشعر ، فلم يخلفها من بعد
أحد من النساء المغانى » ورأت من العز والعظمة ما لم يره غيرها
من أرباب هذا الفن (٣٣) .

وفى ربيع الآخر سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م توفيت الرئيسة
انعام ، رئيسة خوند الخاصكية « وكانت من أعيان مغانى البلد » ،
وكذا الرئيسة خديجة أم خوخة (ت ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م) « وكانت
من أعيان مغانى الدكة ، ولها فى هذا الفن اليد الطويلة » والرئيسة
بدرية بنت جريعة « وكانت من أعيان المغانى أيضا ولها شهرة بين
المغانى بذلك » .

وكما سبقت الإشارة فان كثيرا من المغنين والمغنيات
تعرضوا للاضطهاد من جانب بعض السلاطين والامراء ، فهذا هو
السلطان الغورى يأمر بالقبض على المغنية « هيفة اللذيذة » فى
رمضان من سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م وكانت رئيسة المغانى ، وذلك

بسبب وشاية بعض أعدائها والكيد لها عند السلطان بان لها دائرة كبيرة من المال ، ولها حلة للكرى ، فتعرضت للضرب ، وقرر عليها خمسة آلاف دينار ، قباعت كل ما تملك فما حصلت غير ألف دينار ، وسعى لها القاضى بركات بن موسى بأنها لا تملك غير ذلك ، فقرر عليها خمسمائة دينار تورد كل شهر مائة دينار على كل جامكية .

على ان سلاطين الممالك وأمراءهم لم يتركوا مناسبة من المناسبات الا استمتعوا فيها بالطرب فى مجالسهم غناء وموسيقى ورقصا ، بيد أنهم اختلقوا مناسبات كثيرة ، ليفسح لهم مجال للهو والطرب الى أبعد حد حتى فى المناسبات الدينية التى أصبحت فى عرف الناس من المناسبات المهمة والتى كان أهمها : الاحتفال بالمولد النبوى ، وموالد الأولياء ، ورحلات الحج ذهابا وعودة ، وأحياء ليالى رمضان ، والاحتفال برؤية الهلال ، ورأس السنة الهجرية وصعود القضاة والعلماء لتهنئة السلطان بهذه المناسبة .

وعنى الممالك كذلك بكثير من الحفلات الخاصة التى اقيمت فى مناسبات عديدة ، كحفلات قدوم مولود ، وحفلات السبوع أو العقيقة ، وحفلات الختان وحفلات الزواج ، ورغم ان هذه كانت حفلات خاصة بالسلاطين والأمراء فانها لم تخل من المشـاركة الشعبية فيها بصورة أو بأخرى .

هذا علاوة على الاحتفالات التى ترتبط بمواكب السلاطين والأمراء كالمخرج للعب الكرة أو لكسر الخليج عند وفاء النيل ومثل ذلك من المناسبات التى حرص الممالك على ان تبدو ابهة الملك واضحة من خلالها .

فبرغم ان شهر رمضان كان شهر عبادة وطرب طول ايامه فان احتفال المماليك برؤية الهلال فى أوله ، واحتفالهم بانتهائه وحلول عيد الفطر قد نالت اهتماما كبيرا وعبرت عن مظاهر البهجة والسرور .

وهذا ما كان عليه الحال ايام الفاطميين . ففى عيد الفطر يقام احتفال فخم ضخم ، وينزل السلطان بأيهته وعظمتيه ، ومن حوله الأمراء والعظماء الى المسجد ، وبين يديه الملاعبون والزامرون والمنشدون ، حتى يصلى العيد . وهكذا كان يحدث فى عيد الاضحى وان اختلف الأمر فيما يقدم من أسباب اللهو والطرب . وكان السلطان فى الغالب يخرج فى العيد من باب القصر الوسطانى .

واعتاد الناس يوم العيد وما بعده الخروج الى القرافة خارج القاهرة وخرطوم الجزيرة ببولاق ، ويقبلون على اللهو والمسرات ويتفننون فى أنواع الملهيات .

أما الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، فقد صار فى عصر المماليك من الأمور التى ألفها الناس كل عام ، بحيث لا يمكن التخلي عنها ، لذلك فقد كان الشعب يصرف عنايته الى الاحتفال بهذه المناسبة من تلقاء نفسه .

ولم يقتصر هذا الاحتفال على ليلة واحدة كما كان فى أيام الفاطميين بل أصبحت ايام المماليك تستوعب ايام الشهر كله .

وكان من عادة السلاطين المشاركة فى هذا الاحتفال ، فتتصب خيمة كبيرة فى الحوش ، يتصدر السلطان المجلس ثم أرباب الدولة ، ويقرأ القرآن ثم يعظ الوعاظ ، وتمد الأسمطة « ويقام السماع من بعد ثلث الليل الى قريب الفجر » .

واعتاد الممالك ايضا الاحتفال بموالد الاولياء والصالحين ، ولعلهم هم الذين ابتدعوا الاحتفال بمولد السيدة نفيسة ، حيث كان من فعل ذلك من الممالك هو السلطان قيتباى فى ربيع الأول سنة ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م بالمشهد النفيسى « وصار يقال له مولد الخليفة » وكان يقام فى نفس موعد الاحتفال بالمولد النبوى الشريف .

كما احتفل الممالك بمولد سيدى اسماعيل يوسف الانبائى فى زاويته بناحية امباية تجاه بولاق ، فكانت تضرب الخيام فى الجزيرة التى ببولاق ، بلغ عددها خمسمائة خيمة ، وقد عنى السلطان الغورى على الأخص بهذا الولي ، ومولده .

وكانت هذه الاحتفالات مجالا للفرجة والقصف لعامة الناس ، كما تدل على أمان الناس ورخائهم ، وكانت تقع مفاصد كثيرة فى هذه الموالد « من كثرة النساء والفساق » حتى أشيع انهم وجدوا فى الزرع مائة وخمسين فارغة من جرار الخمر فى ليلة مولد الشيخ الانبائى .

كما كانت هذه المناسبات مجالا لزواج فن الغناء والموسيقى ، خاصة الانشاد الدينى وغناء الشعر الوجدانى .

أما الاحتفال بعقد القرآن أو الزواج فكان من الاحتفالات المهمة عند الممالك ، وعند الأهالى ، حيث تدعى المغانى وأرباب الآلات ، لأحياء هذه الحفلات ، ويبدو فيها الاسراف بلا حدود ، خاصة إذا كان صاحب الحفل من السلاطين أو الامراء أو أبنائهم أو من يدور فى فلکهم .

ففى ربيع الآخر سنة ٨١٢ هـ / ١٤١٠ م ، عقد قرآن الأمير بکتمر فزفته المغانى حتى دخل دار السعادة « ثم عقد العقد بحضور السلطان المؤيد الذى تولى العقد بنفسه .

ففى المحرم سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ، أقيم الاحتفال بعرس الأمير فخر الدين باحدى جوارى السلطان « وعمل فرح جليل ذبح فيه ثمانية وعشرين فرسا ، وأغناما بلغ زنة لحمها عشرة آلاف رطل ومن الدجاج ألفين ومائة طائر ومن الأوز ثلاثة آلاف طائر ، ومن الدقيق ستة وخمسين قنطارا ، ومن الزبيب خمسين قنطارا عملت مشروباً » .

ولم يدع الممالك مناسبة مولد طفل لسلطان أو لأمير إلا احتفلوا بهذه المناسبة ، فعندما يولد للسلطان ولد تدق له البشائر ثلاثة أيام وتزين القاهرة لولادته ، وعلى سبيل المثال ، حدث ذلك عندما ولد للسلطان الأشرف شعبان مولود أسماه أحمد وآخر أسماه رمضان .

حتى حفلات السبوع أو العقيقة كان يهتم بها الممالك ، مثلما حدث فى عقيقة الأمير أبى المعالى محمد بن السلطان المؤيد شيخ ، وطلع على الامراء وأركبوا الخيل بالقماش الذهب « فتجاوز المصروف عليها خمسة عشر ألف دينار » .

حتى الختان كان يحتفل به فى العصر المملوكى ، احتفالاً يتناسب مع حال صاحبه ، فقد اقيم مهم حائل بمناسبة ختان اولاد الملك المنصور عثمان ابن الظاهر جقمق سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٦ م ، وكان الختان بثغر دمياط « فبعث السلطان اليه بألفى دينار احتياج المهم ، وتوجه اليه ابن رحاب المغنى ومشى فى الزفة » .

هذا ولدينا وصف لابن اياس لحفل ختان اولاد القاضى كاتب السر ابن مزهر سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م الذى أقامه فى بركة الرطلى (٣٤) .

ويبدو أن الناس كانوا يستغلون هذه المناسبات فى التنزه واللهو والفرجة الى ابعد حد ، فقد بلغ كرى كل مركب « أربعة اشرفية » واستمر ذلك الحفل ثلاث ليال متوالية (٣٥) .

ثم كان ختان ولد الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال بثغر الاسكندرية « فأرسل يطلب على بن رحاب المغنى بسبب الزفة » .

واحتفل ايضا بختان ولد السلطان المقر الناصرى محمد الذى تسلطن بعده وعمره نحو من سبع سنين وأشهر « وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية وكان من نوادر المهمات فاجتمع سائر مغانى البلد ورسم السلطان بان تزين القاهرة ، فزينت زينة حافلة ، حتى زينوا داخل الأسواق . . »

وقبلها ركب ابن السلطان فى موكب من قاعة البحرة الى باب الستارة والسلطان جالس فى المقعد ينظر اليه « ولاقاه المغانى ودخل قاعة البيسرية فكان الختان بها ، وتختن معه كثير من اولاد الأمراء والخاصكية » فكانوا زيادة على أربعين ولدا .

وقد ذكر العصر المملوكى بكثير من المغنيات والمغنين الذين ذاعت شهرتهم بين الناس فى ذلك العصر ، وحظى كثير منهم عند السلاطين والامراء .

ولعل من أشهر تلك الأسماء من المغنيات ، المغنية زهرة واغلنية اتفاق ، والريسة دنيا البغدادية ، والمغنية خوى العوادة ، والمغنية بياض ، والمغنية الشهيرة خديجة الرحابية ، وخليفتها المغنية هيفة اللذيذة والمغنية عزيزة بنت السطحى ، ومغنية تدعى النصيفية وغيرهن .

وبطبيعة الحال ليس هذا حصرا لمن برع فى فن الغناء من النساء فى عصر المماليك ، ولكن هذا اكثر من لمع من الاسماء ،

فلا بد انه كان هناك غيرهن الكثيرات اللاتي كن اقل شهرة من هؤلاء وطواهن التاريخ ، وربما ساعد على بروز تلك الاسماء ارقباطهن بقصور وحفلات السلاطين والامراء ، فكان ذاك بمثابة الاعلام بهن .

وقد ورد ذكر هؤلاء المغنيات فى مواضع متفرقة ، ولكن لا بأس من أن نشير الى اكل منهن بنبذة قصيرة لزيادة التعريف بهن .

فالمغنية زهرة وزميلتها اتفاق قد استأثر بهما قصر الناصر محمد أتوك بن محمد بن قلاوون ، ولما بلغ السلطان ذلك « أمر بمنعهما منه » . وأما اتفاق فقد نشأت عند ضامنة المغانى ببلييس ، ثم انتقلت الى ضامنة المغانى بمصر ، فعلمتها ضرب العود على يد المعلم عيد على العجمى ، ففاقت فيه للغاية ، وعندما قدمتها الضامنة لبیت الناصر حظيت عند ابنه الصالح اسماعيل وولع بها « وولدت منه » ثم شغف بها بعده أخوه الكامل وولدت منه أيضا .

ولعل زواج اولاد الناصر من هذه المغنية السمراء ، يدل على ما كان للمغنيات من منزلة فى تلك البيئة ، ويقال ان ثلاثة من ملوك ذلك العهد اخوة تنافسوا على حب تلك المغنية اتفاق .

ويقول المؤرخون انها لم تكن جميلة ، وانما تقدمت بالغناء ، ومهما كان الأمر فليس هناك شك فى أن حسن غنائها هو الذى قدمها أولا وأوقع هؤلاء السلاطين الثلاثة فى هواها .

والريسة دنيا البغدادية ، كانت من أجل حظاها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وقيل انها كانت زوجته ، وعرفت بالريسة لأنها كانت حاذقة فى الغناء ، توفيت سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٤ م .

أما عن المغنية خوبى العوادة . فكانت مغنية فائقة فى ضرب العود اشتراها بكثر الساقى عشرة آلاف دينار مصرية ، ويقال

« انه لم يدخل مصر لها نظير » ويحكى أنه بعد موت بكتمر كسرت عودها ، فباعها الناصر لبشتاك بستة آلاف دينار فلم تحظ عنده « وماتت بعد الأربعين » .

واشتهرت فى هذه الفترة كذلك مغنية اسمها بياض ، وعرفت باسم (قومة) وكانت تجيد الغناء ، ويأنس الناس بها فى مجالسهم ولما علم السلطان الناصر خبرها ، طلبها واختص بها ، واصبحت من محظياته ، وولدت له ابنه أحمد ، ثم تزوجها الأمير بكتمر بعد ذلك فى حياة الناصر .

أما عن المغنية خديجة الرحابية ، فكانت من أشهر المغنيات فى عصرها ، وكان أصلها من مغانى العرب ، وحظيت عند ارباب الدولة كما سبقت الإشارة ، ومدحها بعض الشعراء ، ولكن لم يطب لها الحال فقد قبض عليها الأمير يشبك والى القاهرة ، بتهمة افساد عقول الناس ، وتعرضت للضرب والغرامة ، وسبقت الإشارة الى ذلك .

كذلك المغنية هيفه اللذيذة ، وكانت رئيسة المغنيات فى عهد السلطان المغورى ، ومن الطريف ان البعض يعلل اسمها هذا ، فيقول قد يكون هيفاء ثم خففت الى « هيفة » أو انها كانت فى حياتها الأولى ليست على شىء فتندر الناس بها واطلقوا عليها لقب « هيفة » بمعنى السذاجة ولكن لم يجزم الأمر بهذا أو ذاك .

وغالبا ما تكون الأسماء غير معللة ، وان كنا نتوقع ان هذا كان لقبا ، وليس اسما حقيقيا لها ، فكل ما ذكر عنها لم يزد على « هيفة اللذيذة » .

ويبدو أن ذلك كان لقبا فنيا ، كما يحلو لبعض مغنى ومغنيات

عصرنا فى اختيار اسم فنى يكون ادعى للشهرة وسرعة الانتشار
بين الناس .

وعلى أية حال فقد أصابت هذه المغنية ثروة كبيرة فى عصرها
مما حرك عدااء خصومها ، فحقدوا عليها ووشوا بها عند السلطان
فأمر بتعذيبها ثم سجنها وتغريمها كما سبقت الإشارة الى ذلك .

أما المغنية عزيزة بنت السطحى فقيل انها : « فريدة عصرها »
فى النشيد ، مع حسن الصوت ، وحظيت بمدح الشعراء ، وكانت
على قدر كبير من الثقافة والفصاحة . ومنهن أيضا المغنية جارية
النطاع وأصيل القلعية ومن الريسات : الريسة انعام ، وبدرية ،
وأم خوخة .

والى جانب هؤلاء المغنيات والريسات ، كان هناك لفيف من
المغنين الرجال ، الذين ذاعت شهرتهم وطبقت الأفاق ، وشاركوا
مشاركة كبيرة فى احياء مجالس الطرب والسُرور ، فى كل
المناسبات ، ونالوا تقدير السلاطين والأمراء حتى اتخذوا منهم
الندماء . منهم على سبيل المثال لا الحصر :

المغنى سليمان المادح ، والمعلم اسماعيل الدجيجانى ، ونور
الدين على بن رحاب ، الذى بلغ قصور السلاطين ، وكان نجما
متألقا . ولكن لم تصف له الأيام كما سبقت الإشارة .

واشتهر كذلك من المغنين ، صارم الدين بن باباي ، وصار
من ندماء السلطان المؤيد شيخ ومغنيه « وكان أعجوبة زمانه فى
ضرب العود والغناء وكذا الناصر محمد بن قجق ، الذى كان نديم
السلطان الغورى علامة فى ضرب الطنبور ، عارفا بصناعة
الأنغام .

وبطبيعة الحال فان مجالس الطرب قد اشتملت على فن الغناء في كل المناسبات ، يصاحبه في كثير من الأحوال وبالضرورة ألوان من التلحين الموسيقى كما كانت تضم ايضا بعض الراقصين والراقصات . فقد نرى غناء بمفرده ، ولكن نادرا في ذلك العصر ماكان بحى موسيقى حفلا بمفرده ، فالموسيقى كانت تشكل وسيلة مهمة من وسائل الترفيه في ذلك العصر وبرز فيها الكثيرون - سبقت الاشارة الى بعضهم - سيأتى ذكرهم فيما يلى :

الموسيقى :

ان فن الموسيقى وقن الغناء يرتبطان أحدهما بالآخر ارتباطا وثيقا فكثيرا ما كان الموسيقى هو الشاعر والمغنى والملحن في أن واحد ، خاصة في العصور الغابرة ، ثم مرت الموسيقى بمراحل مختلفة حتى أصبحت فنا قائما بذاته . وأصبحت قصائد الشعراء تغنى من قبل موسيقى مرافق أو بواسطة مغن أو مغنية بمصاحبة موسيقى . وتساهم الآلات الموسيقية في اخراج التحفة الفنية لا لتلعب على مسرحها الدور الرئيسى ، بل لتقوم بوظيفة المرافق للصوت أو الضابط للإيقاع .

ومما يدل على هذا الارتباط بين الغناء والموسيقى ان كثيرا من المغنين كان موسيقيا ، ومن الموسيقيين من كان مغنيا ، وان كانت هذه المشاركة ليست على اطلاقها ، فقد كان لفئة من الموسيقيين بعينها القدرة على المشاركة في الغناء خاصة من كانوا يستخدمون آلات معينة مثل العود والطنبور ولم نسمع عن زمار مثلا حاول الغناء ، فالتة الموسيقية تحول بينه وبين الغناء وقد يكون مثله الطبال .

وقد أوردت المصادر المملوكية أخبار التلحين والموسيقى متناثرة فذكرتها عرضاً مع ذكر المغنين والمغنيات ، وفي تراجم الأدباء والفقهاء وغيرهم ، كما أوردت أسماء بعض الآلات الموسيقية كالطبل والمزمار والعود والطنبور والجنك والدف ، ونسب اليها بعض أصحابها ، فقليل : الطبال ، والمزمار والعود وهكذا . وكثيراً ما نلاحظ نسبة بعض المغنيات الى ماكانت تجيده من آلة موسيقية خاصة العود ، فقليل العزادة والطبالة . وان دل ذلك على شيء فانما يدل على وجود نوع من التخصص في آلة بعينها ، وان وجد من نسب الى الموسيقى دونما تحديد لنوع ما يجيد من آلة فيقال : الموسيقى ، والعازف ، وهكذا .

ولا شك أن الموسيقى كانت من أهم وسائل الطرب والسرور فيقول ابن خلدون : « ان النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب » .

ويبدو انه في عصر المماليك كان هناك ما يعرف بالانتساب الى معلم يعلم الموسيقى ، فيقول ابن خلكان : « لما اتقنت العلوم الرياضية ، تاهت نفسى الى الاجتماع بالشيخ كمال الدين بن يونس فسافرت الى الموصل واجتمعت به وعرفته قصدي فقال : تريد أى الفنون ؟ فقلت الموسيقى ، فقال : منصلحة فقرأت عليه أكثر من أربعين كتاباً في مقدار سنة ، وكنت عارفاً بها ، لكن كان غرضى الانتساب اليه » .

وكان كمال الدين الادفوى وهو صاحب كتاب الطالع السعيد وكتاب الامتاع في احكام السماع ، وهو من الفقهاء « له خبرة بالموسيقى وميل الى سماع » .

وقيل عن شهاب الدين الانرعى الامام (ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٧ م)
الذى أصبح من ندماء الملك المؤيد شيخ « وكان يجيد قراءة المحراب
الى الغابة وكان لصوته نداوة وشجاة ، وكان يشارك فى نادى
الموسيقى » . كذلك ممن عرف الموسيقى من الأئمة كمال الدين محمد
بن عبد الواحد ، المعروف بابن الهمام (ت ٨٦١ هـ / ١٤٥٧ م) .

هذا وقد أوصى أحد الصوفية وهو محمد بن عبد الله الصوفى
بهاء الدين الكازرونى (ت ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م) بأن يخرجوا به
الى قبره بالدف والشبابة ، كما عرف الموسيقى بعض من كانوا
يقرأون على القبور فذكر ان صالح بن محمد بن عريشاه الهمزانى
(ت ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م) « متواضع يدرى الموسيقى » .

وكان بعض الأدباء والشعراء يتعلمون الموسيقى ، ويبدو ان
ذلك كان بغرض الامام بأعراف العصر ، وكنسوع من الهوايات
المبهجة .

بل كان منهم من يعرف الموسيقى وينظم الشعر ويلحنه ، مثل
شمس الدين محمد بن على بن عمر المازنى الدهان (ت ٧٢١ هـ /
١٣٢١ م) .

كذا أحمد بن كامل الثعلبى القوصى المنعوت بالصالح
(ت ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م) « وكان يعرف شيئاً من الموسيقى ، وله
أبيات لحنها ونظمها وغنى بها (٣٦) » .

وممن حذق فى الموسيقى يحيى بن عبد الرحمن الجعبرى -
قيل الجعفرى - نظام الدين المعروف بابن النور الحكيم (ت ٧٠٧ هـ /
١٣٠٨ م) « وكان حاذقاً بالموسيقى فكان قوصون يستدعى ذلك
منه خلوة » .

وكان ابن حبيب الصفدي (ت ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م) « مستترا بالخلاعة ، والنفخ في المواويل والضرب على الدف حينما كان في الأسواق والمحافل » .

وقيل ان القان غياث الدين أحمد بن الشيخ أويس صاحب بغداد « يحب اللهو والطرب ، ويحسن تأدي الموسيقى الى الغابة ، وله فيه أيضا التصانيف اللطيفة » .

ومن الوعاظ شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن المساح المعروف بالقرداح أو ابن القرداح (ت ٨٤١ هـ / ١٤٣٨ م) « كان طيب النغمة عارفا بالموسيقى يجيد الأعمال ويتقنها ، ولا ينشده غالبا الا معربا ٠٠٠ وكان يعمل الألحان وينقل كثيرا منها الى ما ينظمه فاذا اشتهر وكثر استعمل غيره » . كما اشتغل بالموسيقى وعرف منها شيئا صالح بن عيد القوى بن علي الاسنائي المعروف بالتقي ابن الثقة الاسنائي (ت ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م) .

وفي سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م مات الاستاذ ابراهيم بن باباي العواد « وقد انتهت اليه الرياسة في الضرب بالعود ، وكان أبى النفس من ندماء السلطان » المؤيد شيخ مقربا عنده .

وممن كان يضرب العود أيضا ولكن سرا الطبيب الأديب محمد بن محمد بن عبد الله بن صغير ناصر الدين (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) .

كما عانى ضرب العود أيضا محمد بن عبد الله بن محمد بن الصائغ (ت ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م) فنبغ فيه . وكان الأمير ملكتمر الناصري الحجازي « يحب اللهو ويعزف الموسيقى » . كما اتقن الموسيقى كذلك أحمد بن يحيى شمس الدين السهروردي (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤١ م) .

ولعل من أشهر من ضرب العود فى عهد السلطان الناصر بن قلاوون هو على بن عبد الله الماردينى ، وكان من ممالك صاحب ماردين » وكان يضرب العود فبلغ الناصر بن قلاوون خبره فاستهداه من صاحبه فى سنة ٧٢٨ هـ فحظى عنده الى الغاية ، فلما مات الناصر تاب من ضرب العود وكسر آلاته مع أنه كان لا نظير له فيه .

ويذكر الادفوى فى ترجمة ابراهيم بن محمد الثعلبى الادفوى (ت ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م) انه « كان فى عتقوان شبابه يضرب بالوتر ويغنى بين أصحابه غناء يشجى السامع ويطرب السامع » (٣٧) . ونظنه العود لأنه من أكثر الآلات الوترية انتشارا .

وكان بعض السلاطين أنفسهم يحسنون العزف كالسلطان المؤيد شيخ الذى كان يحسن أداء الموسيقى . والسلطان الناصر محمد بن قلاوون والسلطان الغورى الذى كان اذا أراد الاستراحة من عناء الملك ، خرج الى قياس الروضة أو قبة الأمير يشبهه وأحضر خواصه وبعض المغنين والعازفين حتى انه من شغفه بالغناء والموسيقى ألف بعض الموشحات والالحان ، التى كان يغنى بها فى عصره (٣٨) .

وفى سنة (٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م) ، توفى أحمد جريبات « وكان استاذا فى فن الموسيقى ، وعنده فكاكة وحسن محاضرة » ، كما توفى سنة ٩١٣ هـ / ١٥٠٨ م ، الأستاذ على بن غانم « وكان علامه فى ضرب الطنبور ومعرفة الأنغام ، وهو الذى اظهر الخفائف النجدية ولحنها فى التلاحين المغربية حتى أبطل بها فن الموسيقى » كما سبقنا الإشارة الى ذلك .

واتضح من خلال المصادر أن العود كان هو الآلة السائدة في ذلك العصر وربما كان ذلك لأنها هي الآلة التي يمكن أن يضرب عليها كل من الموسيقى والغنى والمغنية ، وذلك مما لا يتوافر لآلة أخرى حيث لا يستطيع المغنون والمغنيات استخدامها ، بل تحتاج إلى موسيقى يعزف عليها .

والشائع فيما أوردته المصادر عن الموسيقى ، أنها لا تحدد نوع الآلة التي برع فيها الموسيقى في الغالب إلا فيما ورد في بعض الآلات كالعود والطنبورة على سبيل المثال (٣٩) .

وانشئت هذه الأبيات على ابن دقيق العيد فاستحسنها .

ويستبين مما سبق أن العود كان له شأن كبير في موسيقى ذلك العصر ، حتى خصصت له بعض المؤلفات فصولا كاملة في ذكر العود وتسوية أوتاره ، واستخراج الأدوار منه ، وقيل أن العود الذي يكون خشبه خفيفا ، وطربه رقيقا ، وأوتاره قليلة ، ويستوى دوره ومداره يكون هو العود الكامل .

وقد اعتبر الأقدمون أن أصلح الأخشاب لصناعة العود أربعة هي : الزان والدردار والشريين والجوز . هذا وقد أورد ابن الطحان طريقة صنع العود .

ومما لوحظ أن الموسيقى استخدمت في أغراض متعددة في عصر المماليك بالإضافة إلى الجانب الترفيهي بمصاحبة الغناء أو منفردة في بعض الأحيان بالإضافة إلى اتخاذها وسيلة للترفيه عن المرضى في المارستانات ، كما حدث في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، حيث كانت هناك فرقة موسيقية للترفيه عن المرضى .

والسلطان المنصور قلاوون بعد أن أتم عمارة « البيمارستان للنصوري » « اشترط في وقفه أنه في كل ليلة يحضر من أرباب

الآلات أربعة ، يضرّبون بالعود حتى يساهروا الضعفاء ، وأجرى عليهم الجوامك فى كل شهر » .

ويبدو أن بعض الآلات كانت تستخدم فى حلقات الذكر بالزوايا مما دفع السلطان الظاهر جقمق بأن يأمر بعدم استخدامها فى الزوايا كالمزمار والطار والشعبية ، وهى عبارة عن قصبة قديمة العهد مكونة من أضلاع مضمومة وملتصقة ، وتمتاز برقة الطرب وسرعة المأخذ وحلاوة الصوت (٤٠) . فأصدر السلطان مرسوماً بذلك سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م)

وكان الممالك يشجعون الموسيقى العسكرية ، فكانت تدق فى أنحاء القصر بنظام خاص ، وهو ما عرف بنوبة خاتون ، وهم جماعة يدقون الموسيقى ويرأسهم أمير فى يده عصا .

هذا وقد أجزل العطاء لهؤلاء الموسيقيين فكانوا يحصلون على رواتب مرتفعة ، حتى انه قيل ان قارع الطبول كان يصل دخله الى حوالى ستة عشر الف جنيه فى العام . وان كان فى ذلك مبالغة واضحة فان له دلالة على ارتفاع مستوى هؤلاء ومنزلتهم عند السلاطين والامراء .

وكانت الموسيقى تصحب الجيوش وقت القتال ، فتوزع الفرق الموسيقية فى أنحاء المعسكرات ، لما فى ذلك من تحميس للجند وبعث روح الشجاعة فيهم .

وفى أيام السلم تحفظ الطبول فى الطبلخانة ويشرف أمير علم على شئون الموسيقى فى السفر ، ولها مهتار يعرف باسم مهتار الطبلخانة ، تحفظ فى عهده جميع الآلات الموسيقية .

وقيل ان اتخاذ الموسيقى فى الجند قديم والأصل فيه « اشارة حاسيات الجند فى اوقات الحرب أو شغل أذهانهم عن الافتكار بالأخطار التى يتوقعونها » .

وكانت الطبول والبوقات تضرب عند استقبال العظماء من ارباب الدولة أو من خارجها . كما كانت الموسيقى تصاحب السلاطين والأمراء أثناء لعب الكرة .

هذا ولم يكن العصر المملوكى عصرا قد شهد الآلات الموسيقية فى تطويرها الحديث ، ولكنه كان على ايه حال عصرا تكاملت فيه آلات موسيقية لا تزال الى اليوم عماد الموسيقى منها العود والطنبور والرباب والبربط (٤١) والكمنجة والكنارة (السمسمية) والقانون أو السنطير وتلك جميعا من آلات الطرب الوترية التى استخدمت فى العصر المملوكى .

هذا الى جانب استخدام آلات أخرى كالطبل والمزمار والرق والساجات والنقارات والشبابة أو القصبة ، والشعبية السايق الاشارة اليها .

وهكذا كانت هذه الآلات كلها وغيرها مما هو قريب منها مستخدمة فى العصر المملوكى لم يبتدعها هو وانما ورثها عن عصور سالفة ولكن هذا لا يعنى انها كانت هى بحجمها وهيئتها ، فلا شك ان العصر المملوكى ذا الترف والجاه والبذخ قد اضاف اليها جديدا . وهذا هو ما لم تسعفنا به المصادر المعاصرة ولا تكاد ترى فيها غير اسماء الآلات الموسيقية التى كانت مستعملة فى ذلك العصر المملوكى ، ولا نرى اسما غريبا لآلة من بينها لم تكن من قبل . وينبىء باحتمال الاضافة على ما تمتع به العصر من جاه وميل شديد للطرب وآلاته واربابه .

ويستبين من ذلك ان مصر قد اكتسبت شهرة واسعة في مجال الطرب في عصر المماليك ، بدليل ما ذكر من المطربين وأرباب الآلات الذين وفدوا اليها فقد قدم اليها « كل استاذ صاحب آلة من المطربين وامثالهم من المغاني والملاهي » وثمة دليل آخر ، وهو ما كان ينعم به السلطان على قصاده من الملوك واصطحاب هؤلاء لبعض أرباب الملاهي من مصر الى بلادهم .

وهكذا كانت الموسيقى هي احدى فروع الطرب بعد الغناء فقد أدت دورها الى جانب الغناء في اطاراب الناس واستمتاعهم في عصر سلاطين المماليك الى جانب فرع آخر من فروع الطرب وهو الرقص وهذا ما نتناوله فيما يلي .

الرقص :

اما الرقص فكان من وسائل الترفيه التي ارتبطت بمجالس الشراب والطرب في كثير من الأحيان ، فما من شك في أن الرقص كانت لا تخلو منه في الأكثر مجالس الغناء ، غير انا لم نعلم القليل عن غنين ورقصن ، ولكن الرقص كان شيئاً مقصوراً على فئات بعينها تخصصت فيه ، ذلك ما يدل عليه شعر الشعراء في بعض الرقصات ، فهذا صفي الدين الحلبي وهو من شعراء ذلك العصر يصف راقصة تعودت أن ترقص والشراب في يدها .

وما يدل على شيوع الرقص في عصر المماليك أن ابن تيمية قد أشار الى تحريمه (٤٢) وأورد ذلك الشبغ بدر الدين أبو عبد الله بن علي الحنبلي المتوفى سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٦ م .

ورغم انه كان هناك راقصات يرقصن في مجالس الطرب ، وحظين بمدح الشعراء ، لكن المصادر لم تبح باسم واحدة منهن ،

وانشغل الشعراء بمدح الراقصات ووصفهن دون الاشارة
لاسمائهن .

وكان هناك الى جانب الراقصات ، راقصون من الرجال
تمتلىء بهم مجالس الطرب ، فكان كثير من الناس يرقصون ، حتى
لو لم تكن حرفتهم الرقص ، وانما يرقصون جلبا للمبهجة والطرب
ومع ذلك يبدو انه كان هناك من الراقصين من الرجال من اتخذه
حرفة له ، يرقص عند الحكام ويتعيشون من ذلك فلدينا حكاية
طريفة تشير الى ذلك (٤٣) .

ولعل ذلك يشير الى احترام بعض الرجال للرقص ، في
مجالس الحكام كما يشير الى النظرة الى الرقص واعتباره حراما
حتى لو كان من الرجال .

وقال على بن مقاتل بن عبد الخالق الحموي المتاجر الزجال
(٧٦١ هـ / ١٣٦٥ م) نظما في راقص مطرب يجمع بين الرقص
والغناء في المجالس (٤٤) .

وقيل ان طاجار المارديني الناصري الذي تمكن في عهد
المنصور ابي بكر « كان مغرما بالرقص ، حتى قيل انه كان ينزل
من الخدمة فيعمل سماعا ويرقص الى ان يجيء وقت الخدمة ،
فيطلع الى القلعة » وقيل انه كان يركب للبريد فاذا نزل ليستريح
قام يرقص الى ان يركب .

ونذكر ان ولي الدين الديباجي المعروف بالمنفلوطي وايضا بابن
خطيب ملوي الفقيه المتصوف (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) كان يحضر
السماعات ويرقص احيانا . وكذا الصوفي ضياء الدين المعدي
(ت ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م) كان يرقص في السماع .

وكان قنبر بن عبد الله العجمي الشـرواني (ت ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م) وقد تصدر بالجامع الأزهر يحب السماع والرقص وقيل : كان « يميل الى سماع المغاني واللهو والرقص » .

على انه يمكن القول بأن رقص الصوفية ومريديهم انما كان رقصا يدور فى حلقات الذكر وهو ما عرف بالسماع ، فى شكل مجالس ذكر ، وهم قيام يتميّلون فيها بأجسامهم مرددين كلمات الذكر وفى وسطهم كبيرهم ينشد المدائح ، ولعل هذا أشبه بما يحدث فى عصرنا فى موالد بعض الأولياء من اتباع الطرّق الصوفية حتى اليوم .

ويقال ان الشيخ مبارك بن عبد الله الحبشى الدمشقى القابونى (ت ٩٤٣ هـ / ١٥٣٧ م) هو الذى احدث ما عرف « باللهجة » فى الذكر ، وحقيقتها انهم يذكرون الى أن يقتصر من لفظ اللجالة على الهمزة والهاء ، لكنهم يبدلون الهاء حاء مهمة فيقولون أح أح ، وما زلنا نرى مثل ذلك فيما يقام من حضرات « مجالس الذكر » فى ريفنا حتى اليوم .

ويظهر انه كان للماليك رقص فولكلورى - اى اقليمى - فنسمع بأن الخاصكية ، وهى حاشية السلطان ، قامت بالرقص فى احدى حفلات السلطان .

كما كان للعامة رقصاتهم التلقائية التى يتندرون فيها على بعض الاوضاع أو ارتفاع الاسعار ، أو تسخيرهم فى الاعمال ، كما حدث فى عهد السلطان قايتباى فى سنة (٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م) عندما اشتد غلاء الدقيق والقمح وبيع خبز الذرة ، ولم يكن يباع من قبل فصنف العوام رقصة يرقصونها وهم يتندرون (٤٥) .

ومثل ذلك حدث أيام السلطان الغورى عندما أكثر المماليك من تخزين الدريس - وهو علف المواشى الجاف - وكانوا يمسون

الناس غصوا بها لنقل الدريس ، وتعطلت أحوال الناس بسبب ذلك (٤٦) .

وتلك بلا شك صورة تبعث على الأسى والضحك ، خاصة إذا ماتصورنا ظروف العصر ، وما كان يجرى فيه من تلك الأمور ، التي تدل على العسف من جانب الحكومة والسخرية والتهكم من جانب الشعب وتلك من أهم خصائص الشعب المصري منذ القدم فهو شعب مرح يواجه مشاكله - وان عظمت - بشكل يدعو الى التفاؤل والأمل في الخلاص .

كما صنف العوام رقصة أخرى وهم يتفرجون على دوران المحمل والسلطان الغورى جالس فى الخرجاء المطلة على الرملة ، وخرج الناس للفرجة على الرماحة وهم يرقصون (٤٧) .

وتلك اغان راقصة لم يعلم لها مؤلف سوى الشعب ، خرجت تلقائية حسب الموقف فى ذلك الوقت ، وذلك يكون ادعى لانتشار مثل هذه الاغنيات لأنها تكون نابعة من الشعب ببساطة شديدة فهو واضعها وملحنها ومغنيها .

وكان السلطان الغورى الى جانب حبه للغناء والموسيقى فانه يحب الرقص أيضا وينعم على من يقوم بذلك بين يديه ، فى موكب العيد من سنة ٩١٥ هـ / ١٥١٩ م عندما خرج السلطان الى قبسة الأمير يشبك الدواidar بالمطرية ، انشرح هناك ومد اسمطة حافلة وحضر عنده جماعة من المغانى وأرباب الآلات ، ورسوم لبعض الأمراء بأن يرقص فقام ورقص بين يدي السلطان فرسم له بمائة دينار .

وكما سبقت الإشارة الى ان السلطان الغورى كان قد نزل الى المقياس وجلس فى القصر الذى انشأه هناك واستدعى المغانى وأرباب الآلات وانشراح للفساية وفى هذا المجلس رقص بعض

الحاضرين بين يدي السلطان وكان منهم بعض كبار الدولة
والسلطان يضحك على ذلك (٤٨) .

ويمكن ان نتصور ذلك المجلس وما فيه من رقص وصخب
اشترك فيه ارباب الدولة وعلى رأسهم السلطان يشاركونهم
ويستمتع بما يعرض أمامه من رقصات ، وما يصحب ذلك من
مواقف نادرة تدعو للابتهاج والانشراح .

حتى الفقهاء والشعراء نظموا الشعر في استحسان هذه
المجالس فهذا هو زكريا بن يحيى الدشناوى (ت ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م)
وكان فقيها أديبا يقول في راقص شعرا يدل على إعجابه به وما
يقدمه من رقص وغناء (٤٩) .

وهكذا استمتع المماليك بالرقص ، وجلبوا الراقصات من
اليهوديات والأرمن ، وضموهن الى الحاشية ، فتسمع عن راقصة
خاصة لزوج طومان باي كما عرف المماليك الرقص الجماعي ، ربما
في الحفلات الرسمية . وبذلك اكتملت أسباب الطرب في عصر
المماليك وهم بلا شك قد اقبلوا على الاستمتاع بمباهج الحياة ثقافة
وأدبا وطربا ولهوا .

وعلى كل حال فقد شارك الشعب حكامه في كثير من متعهم
في مجالس الطرب غناء وموسيقى ورقصا ، فقد كان معظم هذه
المجالس مفتوحة تقام في مواضع المتنزهات والفرجة ، مما أتاح
لكثير من أفراد الشعب ان يشاهدوا ما يجري من مباهج في تلك
الاجتماعات ، كما انه لا يستبعد ان يكون لأفراد الشعب مجالسهم،
 واجتماعاتهم بعيدا عن ذلك الجو الرسمي في حضور السلاطين
والأمراء ، مما جعل الكل في ذلك العصر ينال قسطا لا بأس به من
الترفيه مهما اختلفت الوسيلة .

هوامش الفصل الثالث

(١) يقول في ذلك :

وشرب اراقوا بينهم دم كرمية
ويائت اباريق المدام لديهم
وقد جعلوا قول العراقي حجة
وغنى بها ساق اغن فزادهم
يلعب فيهم بالكلام تلعبسا
ويائت عليها عين راووقهم تبكى
تقهقه من فرط المسرة بالضحك
وتم يرجعوا فيها الى مذهب المكي
سرورا بشعر لائق حسن السبك
كما تفعل الامواج في البحر بالفلك
(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٠) .

(٢) يقول :

باكر كؤوس المدام واشرب
ولا تخف للهموم داء
من يد ساق له رضاء
(انظر ، ابن الوردى ، تاريخ ابن الوردى ، ١٢٨٥ هـ ، ج ٢ ، ص ٢٠٠)

(٣)

يشرى لاهل الهوى عاشوا به سعدا
شعارهم رقة الشكوى ومذهبهم
عيونهم فى ظلام الليل ساهرة
تجرعوا كأس خمر الحب مترعة
وان يمروا فهم من جملة الشهداء
ان الضلالة تبه فى الغرام هدى
مبرى بانفاسهم تحت الدجى جددا
ظنوا سكارى فظنوا عيشهم رشدا

(٤) من شعره :

من خليج غدا اديبا فقيها
لمدة العمر خمسة فاقتنيها
ومدام وسبب من لام فيها
فى نديم وقينة وحبيب

قائل هذين البيتين هو ، النور أبو بكر بن محمد بن محمد بن عبد العزيز
الشاعر (ت ٦٥٦ هـ) ، (انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص
٢١٢) .

(٥) ومما قاله ابن المنير :
ليس لا بليس عندنا أرب
حرمته الخمر والحشيش منا
ويقول أبو الحسن الجزار :
قد عطل الكوب من حبابه
وأصبح الشيخ وهو يبكى
(انظر ، المقرئ ، السلوك ، ص ٥٥٣) .

(٦) ابن العماد ، شذرات ، ج ٥ ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٥ .
يقول ابن الصحاب (ت ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) فى الحشيشة :
يا أهل العقول والافهام
فى خمار الحشيش معنى مرامى
وحرما من غير عقل ونقل
وحرما تحريم غير الحرام
ويقول شمس الدين محمد بن الشيخ التلمسانى (ت ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) :
ما فى الحشيشة فضل عند أكلها
لكنه غير مصروف الى رثائه
صفراء فى وجهه سوداء فى كبده
حمراء فى عينيه خضراء فى يده
ويقول عز الدين بن السويدي (ت ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م) يسجل اعتراضه
على تحريم الخمر :

ومسدام حرمتهما لصيام
واقاموا الحدود فيها بلا ح
قد توالى على فى رمضان
سد فدامت ندامة التدماء

(٧) ومما قيل فى ذلك :
محس الله الحشيش وأكلها
كما تصبى كذا تصنى وتلقى
وأصدر دائها والداء جسم
لقد خبثت كما طاب السلاف
لاكلها وغايتها انصراف
بغاء أو جنون أو قتلاف
(انظر ابن العماد ، شذرات ، ج ٦ ، ص ٢) .

(٨) كان عند النصارى تابوت فيه اصبع يزعمون انه أصبح بعض
شهادتهم وأن النيل لايزيد مالم يرم فيه هذا التابوت ، فتجتمع نصارى مصر

من سائر الجهات الى ناحية شبرا ويخرج أهل الناضرة ويحضر ويتحدثون
المغاني ويقصف الناس في الفرجة في ذلك اليوم .

(انظر المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٤١) .
(٩) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .
يقول :

لله ساق رشيق القد أهيفه
يسقى معتقه تحكى شمالكه
حياتها ثغره والطعم ريتته
كأنما صيغ من در ومن ذهب
أنوارها تزدري بالسبعة الشهب
ولونها لون ذاك الخد شى الذهب

وقال أديب من الاسكندرية يدعو الى شرب الخمر فى الروضة فيتول .
قم نفقرع بكر الدامة بكرة
فالأراح سيف قاطع لهمومنا
فى روضة حسنت وراقت منالما
(انظر ، ابن حجر ، الدرر ، ج ٤ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩) .

(١٠) فيقول مستخدما التورية .

غنى يا ساقى الراح بهما
وأمل لى حتى ترانى ميتا
راحت الخضراء تحكى فعلتها
ليس يفنى فاقتى الا غناها
ان موت السكر للنفس حياها
قتلوها بعد تقطيع قفاها

(١١) ويلاحظ ان بعض المؤرخين قد نسبوا ذلك الملهو والانهماك فى
اللذات الى الملك المنصور عبد العزيز نفسه والصحيح حسب قول ابن تغرى
بردى أن المقصود هو الاتابك بيبرس متولى أمور السلطنة (انظر ، ابن
تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٣ ، ص ٤٤ ، ٤٥ ، نبيل محمد عبد العزيز ،
الطرب وآلاته ، ص ٣٥) .

يقول :

خلى الملوك تسطو بالملك والسلاح
انى قنعت منهم بالراح والملاح
(انظر ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٣ ، ص ٤٥) .
(١٢) يقول :

كأن الراح لها راح يسمى
سقا المريخ فى كف الثريا
ومنه يقول :

مليح قام يجذب غصن بان
وميل الغصن نحو اخيه طيح
فمال الغصن منعطفاً عليه
وشبهه الشئ منجذب اليه

(١٣) حديث يقول

ماقى المدام دع المدام فكل ما
هل المدام ولونها رذاذها
فى الناس من وصف المدام فيك
نسى قلبك ووجدك رقيقا ما

(١٤) حدث ذلك فى عصر السلطان المؤيد شيخ على يد القاضى جمال
لدين محمد ابن عر الفوارى (ت ٨١٦ هـ) .

(١٥) قال :

الله ما كنت رقيقا لهم ولا دعنى للهوى داعية
انما بالشعر نادمهم لاجل ذا ضمنى القافية

(١٦) المهتار : لقب يطلق على كبير كل طائفة من علماء أو خدم البيوت
لسلطانية وهو يترتب من كلمتين .

أولهما : مه ومعناها بالفارسية « الكبرى » وتار بمعنى أفعل
التفعيل ، فيكون المهتار « الأكبر » (انظر القلقشندى ، صبح
الاعش ، ج ٥ ، ص ٤٧٠) .

(١٧) فيحكى ان زهير الادفوى - وكان فاضلا عارفا بالعلوم - اجتمع
مع بعض أصحابه بادفو ، وقبلتهم مغنية تغنى فى عرس ، وعندما أبدى
عض الجماعة رغبتهم فى سماعها ، فاعتزل عنهم لحظة ، واذا بالمغنية قد
حضرت عندهم وهم يشاهدونها ، وببدها الدف وهى تغنى .

(انظر الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٢٥١)

(١٨) هو عبد القوى بن محمد بن جعفر الاسنائى (ت ٦٩٨ هـ)
يعرف بابن معين وناب فى الحكم ودرس بالمدرسة الافرمية بمدينة قوص .

(١٩) يقول العوام :

سسلطانا ركسين	وناييو دقسين
يجينا الماء	من أين
هاتوا لنا الاعرج	يجى الماء يدحرج

والمقصود بركين هو السلطان حيث هو لقب ببيرس الجاشنكير وهو
كن الدين أما دقين فيقصد بها ، الامير سالر الذى سماه العوام برذا الاسم
أما الاعرج فيعنون به الملك الناصر محمد فقد كان به بعض عرج فسماه
العامة الاعرج .

(٢٠) وقال فى ذلك :

ادخلنى تدخلى علينا سرورا
لا تميلى الى الخروج سريعا
انت والله نزهة العشاق
تخرجى عن مكارم الاخلاق

(٢١) وفى ليلة من ليالى طرب هذا المغنى يقول علاء الدين الوداعى :
وليلة ما لها نظير
كم نوبة للفصيح فيها
فى الطيب لو ساعفت بطول
اطرب من نوبة الخليل

(٢٢) يقول فى جارية مغنية :

وجارية مغنية بلطف
فغنت ثم رقت لى بوصل
على الايقاع بالكعبين دقت
فقطت قطعتها من حيث رقت

واقول بن يعقوب فيمن يعزف بالشبابية .

قشيب شيب فى صناعته
كان انفاسه لآله
ريحانة الوقت منشىء الطرب
روح تثير الحياة فى القصب

انظر ، بن حجر ، الدرر ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٢٣) الكوسات : لفظة فارسية معربة ، وهى الطبول الصغار ، وهى صنوجات من نحاس تشبه المترس الصغير يدق باحدها على الآخر بايقاع مخصوص ويتولى ذلك الكوسى ، وكانت من رسوم الملك وآلاته فى العصور الوسطى وكانت امرة الطبلخاناه من الرتب العسكرية لضرب الآلات .

(انظر ، ابن تغرى بردى ، المنهل المصافى ، ج ١ ، ص ٢٩٨ ، حاشية ٢) ولعل ذلك يشبه فى عصرنا اليوم فرق الموسيقى العسكرية التى تعزف موسيقاها الخاصة فى المناسبات ، مستخدمة الآلات النحاسية المختلفة .

(٢٤) وقيل :

كل الملوك تسطو
وانا قنعت منه
بالمسك والسلاح
بالراح والملاح

وقيل أيضا فى المعنى :

قالوا رأيناك كل وقت
فقلت انى امرؤ قنوع
تهيم بالشرب والغناء
اعيش بالماء والهواء

(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٩٤) .

(٢٥) وزفتا : كتبت هكذا بالالف عند ياقوت الحموى ، أما ابن دقماق
 كتابه (الانتصار ، ج ٥ ، ص ١٠٩) فقد كتبها زفتى (انظر المقرئى ،
 سلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٦١٧ حاشية ١) .

(٢٦) ومن الطريف ان حادثة ابن الجمال واخيه وقعت حين كان يغنى
 بيت الجمال هذه الابيات .

ولا فادنى منه فن	تغنيت فى حبكم
وجزت يواذى محسن	وخضت بحار الهوى
ومثلى بكم من يجن	وقالوا به جننة
ومثلى بكم مقتن	فؤادى بكم هايم
فؤاد كثير الشجن	اغنى ولى فيكم
ويرقص حتى السكن	سيطرب من فى الحمى

فلما وصل فى غنائه الى قوله : « ويرقص حتى السكن » سقط البيت على
 من فيه .

(٢٧) وله نظم منه :
 قنتنا سوائف وحدود
 اسرتنا المظايا وهن ضعاف

وعيون نواعس وقودود
 فخضعنا لهن ونحن أسود

(٢٨) ذكر المقرئى فى خطته : أن منشأة المهرانى تقع باول بر الخليج
 لعريى وذكر ابن دقماق فى الانتصار ، عند كلامه عن جامع الفخر انه يقع
 آخر الروضة عند المنيل تجاه طرف منشية المهرانى ، اما على مبارك فى
 الخطط فقال انها كانت تقع عند قنطرة السد وكان موضعها يعرف بالكوم الاحمر
 (انظر ، المقرئى السلوك ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٣٠٣ حاشية ٥) .

(٢٩) وقال فيها بعض الشعراء :
 حامية تخفى الشموس جمالها
 يهد خايلت بالبدر ليلسة تمسه
 لها حسن انشاء تزين مقالها
 فما زال من عيني وقلبي خيالها

(٣٠) أصل أوتاق بالتركية موقد النار ، وتقال على الدار والمخيم .

(٣١) يقول الشاعر :
 مجلس راق من واش يكدره
 فيه ساع سوى الساقى وليس
 ومن رقيب له فى اللوم ايلام
 به على الندامى سوى الريحان تمام

(٣٢) رماه ابن اياس بقوله :

تبهى نزهة الاسماع طرا
وناحت بهمد الآت حزننا
وابدى الدف والموصول زعفا
واضحى القاس فى قلاق ولم لا
وصار انعين منا فى ذهاب
وانتهرت الصراخ مع انتخاب
كمن جاء الماتم فى المصاب
وندد ضاق الوجود بلا رحاب

(٣٣) قال نيهما المشهاب المصورى :

وقفاة نزهت طرقي قديها
مذ زارت محبتها وتغننت
شلفت مسمعى بجوهر فيها
كاند يرمى بنفسه من أبيها

(٣٤) يقول ابن اياس .

« فامر كاتب السر سكان البركة بان يوقدوا فى البيوت وقدة حافلة
وشرع يرسل لكل بيت فى البركة عشرة أرطال زيت وحلبية نيهما اكل فاخر
من طعام ذلك المهم ، فاحتفلوا فى الوقدة وعلقوا فى الطيقتان الاحمال
والتنافير والامشاط معمرة بالقناديل حتى كانت البركة تضئ بالنور واحرق
حراقة نطف حافلة لم يسمع بمثلها حتى خرجت البنت من خدرها بسبب
الفرجة على ذلك » .

(٣٥) يقول :

« واجتمع بالبركة نحو اربعمائة مركب مسوقة بالخلائق ، وصار ابن
رحاب المغنى عمال فى كل ليلة ، وسائر مغانى البلد من رجال ونساء
وانطلقت السنة النساء بالزغاريت » .

(٣٦) قيل :

عشى اليك تحية وسلام
وتارجت فى ابتها قمية
ذائن عدانى من زيارة داركم
فانا محبكم السدى ما خيسرت
ما ناح قمرى وفاح خزام
وشدا على ابنى الغصون حمام
عاد وحالات بيننا اللوام
عهدى الليالى لا ولا الايام

(٣٧) هذا ومما قيل فى العود شعرا من نظم احمد بن يوسف بن يعقوب

الطبيب شمس الدين كاتب السر (ت ٧١٧ هـ / ١٣١٨ م) .

من اين المعود هذا المصوت قطرينا
اقلن حين نشا فى الدوح على
الحانه باطاريف الاناشيد
سجع الحمائم تنجيع الاغاريد
(انظر ، ابن حجر ، ج ١ ، ص ٣٤١ ، ٣٤٣) .

(٣٨) يقول :

ياملك انعم ربنا الرحمن وهو الكريم المضم انسان
قله علينا الشكر حق واجب يفضيه قلب مخلص ولسان

(٣٩) قال احد الشعراء فى عوادة (وهى الجارية التى تضرب على
العود) :

غنت فالقت صوتها فى عودها فكانما الصوتان صوت العود
هيفاء تامر عودها فيطيعها ابدا ويتبعها اقباع ودود
وتانما الصوتان حين ثمازجا نبت النمامة وابنة العنقود

(٤٠) ويقال انها سميت كذلك لكونها قد تكونت من شعب متفرقة من
الغاب فصارت مجموعة ملتصقة بخلاف سائر آلات الطرب . (انظر ،
المشهدى كشف الهموم ، ق ١٤٨ ب ، ١٤٩ ا .

(٤١) البريط ، لفظ فارسي معرب معناه ، صور الازل لانه يشبهه وهو
مخرج من عود الايقاع (انظر ، حسن حسنى عبد الوهاب ، ورقات عن
الحضارة العربية الافريقية التونسية ، تونس ١٩٦٠ ، ص ١٧٦) .

(٤٢) يقول :

والراقصات وقد شدت مازرها على خصور كاوساط الدنانير
ترعى الضروب بكفيها وارجلها وتحفظ الاصل من نقص وتغيير
وتعرب الرقص من لحن فيلحقه مايلحق النحو من حذف وتغيير

(٤٣) وهى أن الشيخ الغبارى (ت ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م) « باع دابة
لرجل فاقامت عنده أياما لاتاكل عنده شيئا فجاء اليه واخبره فقال له الشيخ
ما صنعتك قال رقص عند الوالى ، فقال ان دابتنا لا تاكل الحرام ثم رد اليه
دراهمه » .

(٤٤) ومنه .

ياموتها يامطريا غنى لنا انعم لآخوان الصفا بتلاق
فلقد رهيت مقاتل الفرسان بسيف يديك عند مصارع العشاق

(٤٥) وكانوا يقولون :

زوجى دى المسخرة يطعمنى خبز المسخرة

(٤٦) صنف العوام .

اهرب يا تعيس والا يحملوك الدريس

(٤٧) قائلين :

بيع اللحاف والطراحة حتى أرى ذى الرماحة
بيع لى لى لى ذى الخميل حتى أرى شكل المحمل

(٤٨) « ٠٠٠ » وقام شخص يدعى على باى فرقص « ثم سحب الوالى
كرتباى فرقصه ، ثم سحب يد آشور ثانى أقبال الطويل فرقصه ، ثم سحب
بركات بن موسى المحتسب فرقصه ، ثم سحب عبد العظيم الصيرفى فرقصه ،
وكان جسيما فضحك عليه السلطان ، ونثر الورد والزهر والفاكهة ومجامع
الحلوى فتخاطف الممالك ذلك » .

(٤٩) قيل .

يامن غدا الحسن اذ غنى وماس لنا
قاسوك بالغصن رطبا والهزار غنا
قد تسجع الورق لكن غير داخله
مقسما بين ابصار واسماع
وما تقاس بمياس وسجاع
وترقص البان بل فى غير ايقاع

* * *

المباب الثاني

الألعاب الرياضية

الفصل الأول : الفروسية والرماية

الفصل الثاني : الصيد والقنص

الفصل الثالث : ألعاب الكرة والسباحة والألعاب الأخرى

الفصل الأول

الفروسية والرماية

ما من شك في أن الممالك كانوا يحبون الرياضة حبا كبيرا ،
تلك التي كانوا يمارسونها في الطباق (أي في المدارس الحربية)
والواقع أن الرياضة أصبحت فنا علي أيديهم ، وأخذت أشكالا
متعددة ، فأصبحت - بسبب تقديرهم لها - تخرج لها مواكب رسمية
وإن عزف عنها بعض السلاطين ، فإنها كانت لاتلبث أن تعود
وذلك دليل على حيوية الممالك .

والفروسية كانت إحدى هذه الرياضات المهمة التي لا يمكن
لملوك مهما كان أن يتجاهلها ، أو لا يمارسها ساعد على ذلك تلك
النشأة العسكرية للممالك في ذلك الجو الحربي ، فإن كان بعض
السلاطين قد أهملوا بعض الرياضات أو نقضوا ميادينها فإن
الفروسية بالذات ظلت طوال العصر المملوكي الرياضة المتميزة ،
حتى أصبح من لا يجيدها من الممالك محل مؤاخذة من الأمراء
والسلاطين .

فكان المملوك لا يصل إلى مرتبة سيده إلا بعد أن يتربى تربية
عسكرية ويتلقف تثقيفا عاما في مدارس خاصة أعدت لهذا الغرض
ثم بعد ذلك يلحق بجيش سيده ويتدرب على رمي النشاب واللعب
بالرمح وركوب الخيل ، خاصة أن نظام الممالك قام على أساس
الغلبة للاقوي فكان يصل إلى السلطنة أعظم الأمراء نفوذا وأكثرهم
اتباعا .

وقيل عن الرمي بالنشاب « كانت هذه الصناعة من أهم الأمور وأشرفها وأعزها وأكرمها ، وهى عدة لدفع كل شدة يوم التلاق » .

والفروسية فى عهد سلاطين المماليك كانت من ألزم الأمور التى يجب أن يتحلى بها السلاطين - أن لم يكن كل المماليك كما سبقت الإشارة - فيقول العينى فى ذلك : « أعلم أن الفروسية أمر عظيم فى الشجعان والأبطال ، ولا سيما فى الملوك والسلاطين ، فالسلطان إذا كان فارسا عالما بآنداب (١) الحرب بصيرا بحيلها ، لا يزال أمره غالبا وصيته بعيدا فى البلاد ، ويكون أميرا لجنده وعسكره ، فارقا بين فارسه وغير فارسه ، فيقدم من يستحق التقديم من الفرسان ويؤخر من يستحق التأخير من غيرهم ، وبه ينتظم حال عسكره ، ويستقيم أمر جنده ولا سيما عند الحروب وتسوية الصف » .

ويضيف العينى موضحا أهمية الفروسية فى عصره قائلا :
« وإذا كان السلطان غير فارس ، فلا يعرف الفارس من غيره فيختل به نظام عسكره ، ويكون فسادا أكثر من صلاحه » .

وأكثر ما يكون استخدام الرمح على الخيل وآنداب اللعب بالرمح كثيرة ومن جملة ما تدب يشتمل على اثنتى عشرة منزلة ، وهى : أول المنازل والترتيب والفتح والكشف ، والمقص ، والكلاب البرانى ، والكلاب الجوانى ، والكلاب الميمنة والكلاب الميسرة ، والسلسلة ، والسبصرة الطويلة ، وحفظ الفارس (٢) .

ولما كان عماد الفروسية ، الفارس والفرس ، فقد شغف سلاطين المماليك بالخيل ، وكان أشهر السلاطين شغفا بها هو الناصر محمد ، فقد عنى بشراء الخيل العربية الأصيلة ، وبذل فى ذلك

الأموال الضخمة ، حتى كان ثمن الواحد منها أحيانا ثلاثين ألف درهم ، وكان يخلع بعضها على الأمراء الذين يأنس فيهم الولاء ، وعلى أفراد حاشيته المقربين له وصارت من عاداته فقد « جرت عادة صاحب مصر أن ينعم على أمرائه بالخيول مرتين في كل سنة : الأولى عند خروجه الى مرابط خيوله على القرط في أواخر ربيعها فينعم على أمرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم » . والمرة الثانية عند لعبة الكرة بالميدان وكذلك يرسل الى نواب الممالك الشامية كل أحد بحسبه . .

وقد اعتمد الممالك على الخيل في حروبهم ، وصارت الفروسية في عهدهم فنا عظيم الشأن ، وأفردوا لدراسته الكتب والرسائل الكثيرة - كما سبقت الإشارة - وكان للاسطبلات السلطانية ادارة خاصة عرفت باسم « الركابخاناه » وهى من أهم البيوتات السلطانية ، فقد كان عدد الاسطبلات التابعة لها وفيرا .

وبلغ من عناية الممالك بالخيول واختصاصهم بها ، انه فى سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م ، نودى بالقاهرة ومصر « أن أحدا من المتعممين لا يركب فرسا سوى الوزير وكاتب السر وناظر الخاص ، والبقية يركبون بغالا ، وإن الطحانيين لا يخلون عندهم فرسا صديحا سالما ، ولا يركب الخيل أيضا فقيه ولا جندار ولا أحد من العوام » .
وفى عنده فرس أخذ منه .

كما أن الممالك أيضا اهتموا باللوان الخيل التى يركبونها واعتبروها ضرورية بالنسبة للفرسان ، وقادة الوحدات العسكرية، وأحيانا كان بعض الفرسان يحرصون على ركوب فرس ذات لون معين فى كل يوم ، حتى جرى العرف أن يكون ركوب الأدهم أى الأسود يوم السبت ، ويوم الأحد للابيض الذى كان يعرّف بالخيول.

البوز ، ويوم الاثنين كان للاخضر ، والثلاثاء للكميت وهو الأحمر ،
والأربعاء للابلق ، وهو ماكان بياضه بين بين ، ويوم الخميس
للاشقر ، ويوم الجمعة للمحجل ، وكان لهذه الألوان علاقة
بالتفأول .

هكذا ترى أن أيام الممالك كانت كلها ركوبا ، وبلغت العناية
بالخيل في عهدهم ، مبلغا كبيرا الى حد المبالغة أحيانا حتى انهم
كانوا أحيانا يعلقون حرزا يشتمل على بعض آيات القرآن على الخيل
بغرض حراسته مما جعل الشيخ عز الدين عبد السلام يفتى بأن
ذلك بدعة وتعريض للكتاب العزيز .

أما التعليم الحرى للمملوك فى الطباق فلم تفرد المصادر
التاريخية وصفا تفصيليا قائما بذاته له ، سوى ما أورده المقرئى
فى الخطوط من حيث انتقال المملوك من التعليم الدينى الى هذا النوع
الثانى من التعليم عند سن البلوغ حين يأخذ فى المران على أنواع
القتال من رمى السهام ولعب الرمح .

غير أن المؤلفين فى الفروسية ، ومعظمهم أساتذة فى فنونها
المختلفة ، وكذلك مؤلفو كتب التراجم والتاريخ وعلى الأخص فى
العصر المملوكى الأول ألقوا ضوءا جديدا على هذا النوع من التعليم
عند الممالك ، وأول ذلك أن الفروسية شملت المهارة فى ركوب الخيل
واللعب بالرمح والحدق فى الرمى والضرب بالسيف وسباق
البرجاس والمحمل ، ولعب الصولجان ، واستعمال الدبوس والمران
على المصارعة وسباق الخيل . وأن المملوك لم يتعلم جميع فنونها
وفروعها فى الطباق ، بل اقتصر تعليمه على استعمال الرمح
والقوس والسيف وركوب الخيل فقط على أيدي معلمين
متخصصين .

وكان السلطان يشاهد الممالك فى الطباق أو فى الميادين ،
وهم يتمرنون على أنواع الفروسية ، مثل ركوب الخيل بدون سرج ،
أو اللعب بالرمح عن طريق الطعان ، أو الرمي بالنشاب وهى
السهم ، أو القتال بالدبابيس ، وهى أعمدة لها رؤوس مخرسة ،
أو اللعب بالسيف أو المصارعة حيث كانوا يتعلمون كل هذا فى
الطباق - كما سبقت الإشارة - فكان السلطان يمنح من يتفوق منهم
الخلع ويشجع الرهان على الفائزين .

كما كان بعض الامراء يقومون بعرض أجناد الحلقة فى غيبة
السلطان ، وفى سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م « جلس الأمير مقبل
الدوادار ، والقاضى علم الدين داود ناظر الجيش ، بقلعة الجبل ،
لعرض بقية أجناد الحلقة ، من غير أن يحضر السلطان » .

وكان المملوك يتم تعليمه بقية فنون الفروسية بعد عتقه وتخرجه
من الطباق جنديا ، هذا وقد وردت فى كتب التراجم اشارات مبعثرة
عن المعلمين الذين تولوا القيام بمهمة تعليم الممالك سواء فى الطباق
أو غيرها ان اقترن لفظ الفروسية بالفاظ معلم وأستاذ ورأس واليه
المنتهى فى ذلك .

ومثال ذلك سيف الدين سودون بن عبد الله الظاهرى ، الأمير
آخور الكبير المعروف بسودون طاز (ت ٨٠٥هـ / ١٤٠٣م) الذى
كان (رأسا فى لعب الرمح ، يضرب بقوة طعنه ، وشدة ثباته على
فرسه المثل ، وأما سرعة حركته وحسن تسريحه لفرسه فى ميادين
اللعب بالرمح فاليه المنتهى فى ذلك) .

وكذا قرقماس المحمدى الظاهرى المعروف بالمعلم ، وكان أخذ
امراء العشرات « وكان عارفا بفنون الرمح علامة فى ذلك » .

وكان السلطان الظاهر بيبرس حاذقا فى رمى السهام ، حتى أنه فى المحرم من سنة ٦٦٦ هـ عندما احتفل برمى النشاب ولعب الرمح صار ينزل كل يوم الى هذه المصطبة ، فلا يركب منها الا العشاء ، وهو يرمى ويحرض الناس على الرمى والنضال ، فما بقى أمير ولا مملوك الا هذا شغله ، وأقبل الناس على الرمح ورمى النشاب .

وبلغ من عناية بيبرس بالرماية أنه أقام لها ميدانا خارج باب النصر كان يعرف هذا الميدان باسم ميدان القبق وهو ما سوف نشير اليه عند تناول لعبة القبق فيما بعد ، فكان هذا السلطان مشهورا بالفروسية .

وكان السلطان الظاهر بيبرس يصنع فى رنكة سبعا ، اشارة لفروسيته وشدة بأسه ، وهو أول من أحدث اللعب بالرمح فى موكب المحمل وكسوة الكعبة .

وبعد أن عقد السلطان الظاهر بيبرس الهدنة مع الفرنجة وهو فى الشام ، خرج أهل عكا لمشاهدة العسكر « فركب السلطان ولعب هو وجميع العسكر بالرمح » .

وهنا يبدو الجانب الترفيهى بالنسبة للجند ، وتظهر أهميته ومدى اهتمام السلطان بجنوده ، حتى يشاركهم اللعب بالرمح ، لما فى ذلك من أثر فى نفوسهم ورفع معنوياتهم .

وبلغ من شغف السلطان بيبرس بالفروسية والرماية أنه كثر اشتغاله بعمل النشاب بيده ، فاقتردى به الأمراء والخوارج ، « وكتب الى ابنه الملك السعيد ، وسائر النواب بذلك فلم يبق أحد الا وهو متوافر على العمل ، فيجمل السلطان جملة نشاب بيده ، فحيتها وریشها ،

وفصلها « وكان ذلك فى شوال سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧٢م ، ابان حرب التتار فى عهد أبغا بن هولاكو . »

وامر السلطان بلبس العساكر فلبسوا عدد الحرب ولعبوا فى الميدان خارج دمشق وكان رسل الروم يشاهدون ذلك .

وكان ذلك يجرى ايضا اثناء شهر رمضان ، فقد رسم للعسكر بالتأهب للعب القبق ورمى النشاب ، فركب من كل عشرة فارسان فى أحسن زى وقت الحرب ، وركب السلطان فى مماليكه ودخلوا فى الطعن بالرماح ، « ثم أخذ السلطان الحلقة ورمى النشاب وجعل لمن اصاب من الأمراء فرسا من خيله الخاص » . واستمر ذلك أياما تارة يكون اللعب نفيها بالرمح وتارة بالنشاب وتارة أخرى بالدبابيس .

وحدث أن ساق السلطان يوما على عادته فى اللعب ، وسل سيفه فسلبت مماليكه سيوفها ، وحمل هو ومماليكه الخواص حملة رجل واحد واصطدموا « فكان منظرا مهولا » .

أما الملك المنصور حسام لاجين فكان موصوفا بالفروسية « مقدما على أقرانه فى الفروسية وأعمالها » .

وكان ممن برع فى الفروسية من أولاد السلاطين ، أنص بن العادل كتبغا ، الذى لقب بالمجاهد ، فقد مهر فى الفروسية ورمى النشاب « حتى صار أوجد عصره فيه » ويقال أنه رمى على قوس زنة مائة وثمانين رطلا . وقيل ان سلاله التتارى المنصورى من خواص السلطان الأشرف خليل كان لا يتحرك على ظهر فرسه اذا ركبه . الأمير عنبر السحرى الناصرى الذى أمر طبلخاناه ، كان يعانى الفروسية ويكثر من لعب النشاب .

ويبدو أن رمى النشاب وركوب الخيل كانا لايتوقفان عنهما
سن معينة فقد رمى النشاب وركب الخيول بعض المماليك المعمرين
مثل طقضايا الظاهري (ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٥ م) الذي
دخل في الهرم وجاوز المائة وهو يرمى النشاب ويركب الخيل ، وكذا
قراطاي الأشرفي الجوكندار (ت ٧٣٤ هـ / ١٣٣٤ م) الذي أمر
بدمشق سنة ٧٢٦ هـ / ثم أعيد لنيساب طراباس ، وكان مشهورا
بالفروسية .

وفي عهد السلطان الأشرف شعبان صار التنافس في ألعاب
الفروسية بين المماليك السلطانية والمماليك اليلغاوية ، وأصبح ليس
هناك للناس شغل سوى التفرج على المقاتلين من الفريقين على
شاطيء النيل ، وأغلقت أسواق القاهرة لذلك ، وصار الأمير قجماس
الحلازي يمر في قارب لطيف ومعه طائفة ، حتى يقرب من البر ويرمي
بالنشاب فيرموه أيضا ويتسابقوا ، وسبح العامة في النيل حتى
وصلوا إلى السلطان وهم يهتفون « السلطان منصور » فأخذ يضعف
أمر يلغا .

أما السلطان الظاهر برقوق فقد مهر في الفروسية خصوصا
في رمى الرمح ، ففي ربيع الأول سنة ٧٨٠ هـ ابتداء في اللعب بالرمح
والزم المماليك بذلك . وفي ربيع الآخر من نفس السنة لعب الملك
الظاهر برقوق بالرمح مع بعض مماليكه الجلبان « فأشيع أن السلطان
قال لمملوك اطعن السلطان في جفن عينه الأعلى » .

ويدل ذلك على تمتع الملوك والسلاطين بالروح الرياضية
العالية وهي تقبل الهزيمة بصدر رحب ، كما يدل على شخصية
السلطان القوية وتبسطه مع مماليكه ، وعلى جدية القصد من هذا
اللعب بإزالة الخوف من روح الشخص المنازل للملك .

ورغم شغف السلطان برقوق بالرماية والفروسية ، فقد أبطل الرماية في ربيع الأول سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م عندما بلغه أن الأمير يلبغا الناصري قد أبطل المكوس التي بالشام .

ففي عهد الناصر فرج توفي الأمير سيف الدين قرقماس الاينالى الرماح سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٣ م ، من جملة الطبلخانات ، وكان رأسا في لعب الرمح ، وكذا الأمير سيف الدين فارس بن عبد الله المقلجاوى نسبة للمتاجر الذى جلبه من بلاده ، وكان من الشجعان الفرسان المغدودين الذين يضرب برميهم المثل (ت ٨٠٢ هـ / ١٤٩٩ م) .

ولما كثر خروج السلاطين فى المواكب التى تضم الفرسان وآلات الحرب والرمى أصبحت تميز مواكب الحرب عن مواكب السلم ، فكانت تستخدم راية عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر تعرف بالجاليش فى حالة الخروج للحرب أما مواكب السلم فكانت تخلو من هذه الراية .

وفى جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م جلس السلطان الظاهر برقوق وأنفق على ممالك الأمراء الطبلخانات والعشرات لكل واحد منهم أربعمئة درهم وكذا أرباب الوظائف وغيرهم ، فرق بينهم القسى والنشاب لمن يحسن الرمي ، كما كان قد سبق أن أنفق على جماعة من الأجناد البطالة وأعطاهم القسى والنشاب ، وأمرهم بأن يكونوا على شرايف القلعة ، كما أمر بأحضار رماة قوس الرجل من الاسكندرية .

ولما حضر رماة قسى الرجل فى جمادى الآخرة من نفس السنة نزل السلطان والخليفة من الطلعة ، وكان عددهم نحو الثلثمائة رام ومعهم قصيهم محملة على الجمال ، ففرق فيهم مائة درهم لكل واحد .

والمقصود بقسى الرجل : الرماة الذين يستخدمون أقدامهم فى الرمى بالقوس .

أما السلطان المؤيد شيخ الحمودى فيقول عنه العيني :
« ان ذكرت الرماة فهو أحسنهم ، وان ذكرت الرماحين فهو أحملهم ، وان ذكرت السيافين فهو أقواهم وأعدلهم » .

وقد استحدث المؤيد شيخ بالقلعة مكانا لرمى النشاب وعرف بمرمى النشاب كان يرمى فيه بالنشاب ، وكان يخرج الى شاطئ النيل ويشاهد الممالك السلطانية وهم يلعبون الرمح بناحية بولاق ، مع أنه كان فى ذلك الوقت لا ينهض أن يقوم ، بل يحمل على الأعناق ، وشاهد الناس فى بولاق أياما وليالى لم يسمع بمثلها كما كان يتوجه الى الميدان لعرض الرماحة أمامه ، ويقول عنه المؤرخون انه تعلم الفروسية من اللعب بالرمح ورمى النشاب والضرب بالسيف ومهر فى جميع ذلك عندما كان عند برقوق بعد أن قدمه تاجره محمود اليه فى أول حياته .

وفى عهد المؤيد شيخ توفى عز الدين بن جماعة (ت ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م) وهو من أشهر علماء العصر الى جانب معرفته بالفروسية والرمح والنشاب والدبوس .

وفى عهد الأشرف برسباى كان زين الدين فارس الطواشى الخازندار (ت ٨٢٦ هـ / ١٤٢٣ م) . وكان يرمى النشاب « الى غاية مايكون فى الحسن » الى جانب اشتغاله بالعلم .

وفى ربيع الآخر سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٦ م توجه السلطان الأشرف برسباى للرماية على عادته فى ذلك ، فاعترضه العوام وشكوا اليه عدم الخبز فى حوانيت الخبازين ، ولكن السلطان « لم يعبا بهم ، بل ولا التفت اليهم » .

ولعل ذلك يوضح أن بعض السلاطين لم يكن لهم اهتمام
بمشاكل الرعية بل كان جل اهتمامهم بمتعاتهم الخاصة وممارستهم
الألعاب ووسائل الترفيه .

وكان السلطان جقمق « عارفا بأنواع الفروسية » وفى سنة
٨٥٢هـ توفى شهاب الدين أبو الفضل ابن حجر « وكان له مشاركة
جيدة فى الفقه والتاريخ والأدب محسنا لفنون الفروسية » .

أما الملك الظاهر أبو سعيد تمرغا فقد حذق فى بعض الصنائع
« بحيث صار يعمل المقسى الفائقة بيده ويعمل السهام عملا فائقا ،
ويرمى بها أحسن رمى مع الفروسية انتامة » . وقيل : كانت تنسب
إليه أشياء كثيرة من آلة الحرب ورمى الشباب ، ولعب الرمح .

وكان الأشرف قايتباى يحرص على تعليم الفروسية فى عهده
لفئات كثيرة من الشعب وليس الممالك وحدهم حتى أنه فى صفر سنة
٨٧٣هـ / ١٤٦٩م أوقف صرف جوامك أولاد الناس وجماعة من الفقهاء
والمتعممين ، « وأحضر اليهم بقوس ثقيل ومع نشابة طومار » وامتحن
هؤلاء فكان يدفع الى كل منهم ذلك القوس الثقيل والنشابة « فكل من
لا يقدر يسحب ذلك القوس يقطع جامكيته » وعجز بعضهم عن ذلك
فوبخهم السلطان وقطع أرزاق جماعة كثيرة منهم .

وقيل أنه فعل مثل ذلك مرة أخرى فى ربيع الآخر من نفس
السنة وفى ذلك يقول المؤرخ ابن تغرى بردى « وألزمى بحضورها ،
فحضرتها - يقصد ذلك الامتحان - فلم أر مايسوؤنى ، ولم أر أحسن
من هذه الناس ، فإنه شرع يعطى كل أحد حقه وينزله منزلته » ،
وقد تعلم ابن تغرى بردى الفروسية على أيدي جماعة من أكابر
ممالك والده .

وفي عهد هذا السلطان توفي الأمير تانى بك المعلم المسمى الأشرفى (ت ٨٧٥ هـ / ١٤٧١ م) وكان عارفا بفنون لعب الرمح وكذا فى نفس السنة توفي سنقر قرق شيق الأشرفى ، وهو مقدم ألف بدمشق « وكان علامة فى لعب الرمح » .

ويبدو أن السلطان الأشرف قايتباى قد اعتاد أن يمتحن بعض المماليك فى فنون الفروسية من آن لآخر - كما سبقت الإشارة - وفى صفر من سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٣ م ، عرض السلطان أولاد الناس وأمرهم بأن يلعبوا الرمح بين يديه حتى يمتحنهم فى ذلك « ويعرف من يلعب بالرمح ممن لا يعرف ، فحصل لهم غاية المشقة لأجل ذلك ووبخ منهم جماعة بالكلام ، وربما قصد الاضرار بهم (أى الغزو بهم) » .

وجاءت الأخبار فى شوال سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٣ م بوفاة برقوق الناصرى الظاهرى نائب الشام ، وكان « شجاعا بطلا مقداما فى الحرب عارفا بأنواع الفروسية فى فنون لعب الرمح والرماية بالنبشاب » ، كما كان الأمير يشيك الفقيه ، الذى كان دوادارا كبيرا فى دولة الظاهر خشقدم سنة (٨٧٨ هـ / ١٤٧٤ م) وكان مشهورا بالفروسية (٣) .

وفى سنة ٨٨١ هـ / ١٤٧٦ م كان قانصوه وفرق الابراهيمى من أعيان الخاصكية مقربا للسلطان قايتباى، وكان عارفا بالفروسية .

وفى سنة ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م كان الأمير خاير بك من حديد أحد المقدمين فى مصر ونفاه السلطان الى الشام ثم الى مكة « وكان عارفا بأنواع الفروسية » الى جانب اشتغاله بالعلم وفصاحته فى العربية .

وفى سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م كان يحلب صـنـطباى العلـاى الظاهرى أحد أمراء العشرات ، وأصله من ممالك الظاهر جقمق

« وكان رأسا فى الرمى بالنشاب » وتوفى أيضا قانى باى الفلاح الأشرفى أحد العشرات ، وأصله من ممالك الأشراف برسباى « وكان بارعا فى فنون الرمح » .

وتكرر ركوب السلطان قايتباى للرماية والعود فى موكب حافل وحدث أن ركب مرة على فرس حرون وسير فى الحوش ثم ساق ولكن انقلب الفرس فوقه فكسرت رجل السلطان . وقد نظم الشاعر الشهاب المنصورى يعتذر عن هذه الواقعة (٣) .

وفى عهد السلطان قانصوه الغورى أصبح للعب الفروسية بأنواعها شأن كبير ، فقد تكرر عرض الرماحة أمام السلطان فى مواضع متعددة وبحضور قصاد السلطان ، فكأنه كان يستعرض قوة فرسانه ويظهر عظمة ملكه ، وأدى ذلك الى تفنن الفرسان فى ألعابهم وكان السلطان ينعم عليهم بالمال والخلع .

وقد أفاض ابن اياس فى وصف ذلك فيقول : فى جمادى الآخرة من سنة ٩٠٩ هـ / ١٥٠٤ م « خرجت الرماحة المعينون للعب الرمح ، فلعبوا عند زاوية الشيخ أبى العباسى الحرار » وجلس السلطان فى المقعد الذى أنشأه فى الميدان ورسم للرماحة بأن يسوقوا أمامه فى الميدان « فساقوا وهو جالس وحوله الأمراء ، فلما ساقوا عييت عليهم الممالك القرانصة وخطأوهم فى طريقة لعب الرمح عما كان يفعله الأقدمون من البنود التى كانت تقع فى لعب الرمح على العادة القديمة » .

ولعل ذلك يوضح أن ثمة تغييرا قد حدث على طرق اللعب بالرمح عما كان عليه من قبل وإن كانت المصادر لم تفصح عن طبيعة ذلك التغيير .

« وكما ذكر فإن السلطان كان حريصاً على أن يضيف قصاده
فى مكان تجرى فيه ألعاب الفروسية على اختلافها فكثيراً ما نزل
الى الميدان ومعه قاصد الصوفى وأحضر قدامه مماليكه يرمون
بالنشاب على الخيل وهم بآلة السلاح ، « فأظهروا فى فنون
النشاب أشياء غريبة » .

وتكرر نزول السلطان الى الميدان لمشاهدة عروض الفروسية
على الأغلب مع كل قاصد يأتى اليه كما حدث مع قاصد صاحب
بغداد فى شوال سنة ٩١٤ هـ / وأدهش القاصد لما رأى من أنواع
غريبة فى فن النشاب .

وكان يجتمع الناس هناك من أجل الفرجة على تلك الألعاب
الفروسية فبرغم أنها كانت رياضة الأمراء والفرسان والسلاطين ،
فإن الشعب كان يستمتع بها مشاهدة أو ممارسة فى بعض
الأحيان .

كما دعا السلطان قرقد بك بن عثمان ورسم للرماحة الذين
يسوقون فى أيام المحمل بأن يسوقوا فى الميدان ليتفرج ابن عثمان
عليهم وهم لابسون آلة السلاح ، وتكرر ذلك مع هذا الزائر فى أيام
متوالية وكان يشاهد فى كل مرة خصمانية فى لعب الرمح .

وحدث بعد أن حلف السلطان الممالك الجلبان وأغواتهم بالآلا
يثيروا فتنة أن يفرق عليهم الرماح ورسم بأن يلعبوا الرمح فى الميدان
وأمر لكل مملوك بثلاثة أشرفيات وانفض المجلس على ذلك ومرة
أخرى أنفق على جماعة مخصوصة من الخاصكية الأعيان ممن
كانوا يرمون النشاب على الخيل فى الميدان ويلعبون الرمح ، لكل
واحد منهم عشرة آلاف درهم وأعطى لجماعة منهم ستة آلاف
درهم .

ومع أن الجامكية كانت تصرف للعسكر فان السلطان الغورى قد استجد جامكية تصرف للمماليك الذين استجدهم ما بين تراكمة وأعجام وأولاد ناس وغير ذلك من الطوائف ، فجعل لهم جامكية خامسة تصرف لهم على انفراد دون جوامك العسكر ، وأطلق على هؤلاء المماليك « المماليك الأراذل » وكان منهم من لا يعرف كيف يجذب القوس أو يمسك الرمح ، واعتبر ذلك أمرا عجيبا فيمن يستحق الجامكية وأعطاؤها لمن لا يستحقها (٤) .

والمعروف أن هؤلاء الرماحة أثناء عروضهم كانوا يلبسون الأحمر وآلة السلاح كاملة ، كما يفعلون فى أيام دوارن المحمل ، كما جرت عاداتهم بعد عرض العابهم أن ينزلوا خيولهم ويقبلوا الأرض للسلطان على جارى العادة (٥) فيخلع السلطان على معلمهم وعلى الأمراء المقدمين ، ومن أشهر هؤلاء المعلمين فى عهد السلطان الغورى هو المعلم تمر الحسنى وهو أحد المقدمين المعروف بالزرد كاش .

كما جرت العادة بعد عرض العاب الفروسية ، أن تمد أسمطة جافلة فى كل مرة يحضرها القصاد والأمراء وينشرح فيها السلطان للغاية .

وكان يتم نوع من التنافس بين من يجيدون اللعب على الخيول كما حدث بين أبى الحسن بن ميمون (ت ٩١٧ هـ / ١٥١١ م) وابن عراق حينما كانا يسيران فى الطريق لزيارة الامام الاوزاعى ، فلعب ابن عراق على جواده كعادة الفرسان ، فعاب عليه ابن ميمون ثم تنافسا على ذلك فنزل ابن عراق عن فرسه وتقدم اليها ابن ميمون « فحل الحزام وشده كما يعرف وركب ولعب على الجواد فعرفوا مقداره فى ذلك » .

وكان الشيخ علاى الدين الأخميمى الشهير بالنقيب (علامة
فى الرمى بالنشاب ، عارفا به ، وكان له اليد الطولى فى ذلك) وكان
خطيبا حوى كل فن وعلوما شتى .

ومن الملاحظ أنه مع مداومة الممالك والأمراء على ممارسة
ألعاب الفروسية بشتى فنونها بصفة مستمرة ومن آن لآخر ، فإنه
كانت هناك مواسم تخرج فيها مواكب السلاطين ويلعب فيها شتى
ألعاب الفروسية مثل ختام لعب الكرة وخروج الحج وعودته ،
والاحتفاء بقصاد السلطان من خارج البلاد .

والواقع ان من أهم مناسبات ألعاب الفروسية المختلفة كان
هو دوران المحمل ، وهو عبارة عن خروج المحمل بالكسوة الشريفة
والبرقع وكسوة مقام ابراهيم عليه السلام لتحيته والحفاوة به
ولاعلان المناس باقترب موسم الحج ولشهر فخامته ولقضاء يوم
فى التسلى برويته .

وقد جرت العادة أن يدور المحمل فى السنة مرتين فى شهر
رجب وشوال ، ولندع ابن بطوطة يصف لنا موكب المحمل الذى رآه
عند زيارته لمصر اذ يقول « وهو يوم دوران الجمل ، يوم مشهود
وكيفية ترتيبهم فيه : أنه يركب فيه القضاة الأربعة ، ووكيل بيت
المال ، والمحتسب ويركب معهم أعلام الفقهاء ، وأمناء الرؤساء ،
وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر ،
فيخرج اليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز
فى تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاةون على جمالهم ، ويجتمع
لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل بمدينتى
القاهرة ومصر ، والمحداة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك فى رجب ،
فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث » .

هذا وقد يصحب الموكب مهرجون وهم من عرفوا بعفاريات
المحمل الذين يضحكون الناس على العادة ، حيث يغيرون من صفاتهم
بهئية عجيبة مزعجة ، وعندما يصل الموكب ساحة القلعة يطل عليهم
السلطان وحوله عدد من موظفيه وأمرائه ورجسالة دولته وحينئذ
يقوم « الرماحة » وهم طائفة خاصة تحمل الرماح معدة لمثل هذه
المناسبة من فرسان السلطان بملابسهم الحمراء فيلعبون ألعابا تنم
عن فروسياتهم ومهارتهم حتى أن بعضهم يلعب بالرماح وهو واقف
على ظهر فرسه .

ويستمتع الناس بمشاهدتهم ، ثم يدور المحمل أثناء ذاك أمام
السلطان دورة استعراض .

والواقع أن السلطان الظاهر بيبرس هو أول من أحدث اللعب
بالرماح وألعاب الفروسية في المحمل وكسوة الكعبة في سنة
٦٧٥ هـ / ١٢٧٧م بل قيل أنه هو الذي ابتداء موكب دوران المحمل
في تلك السنة ، وإن كان بعض السلاطين قد أبطلوا اللعب بالرماح
في هذا الموكب ، كما حدث في عهد السلطان الأشرف برسباي في
سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٦م .

ويبدو أن محاولة السلطان تبسيط هذا الموكب بإلغاء ركوب
الرماحة كان باعثه ما حدث في هذا الموكب من قبل عهده ، فقد جرت
فيه أمور قبيحة ، ذلك أن المالك السلطانية « نهبوا المطاعم وتعرضوا
للنساء والشباب في ليالى الزينة بشناعات عظيمة » .

وإن كان ذلك ما لبث أن عاد مرة أخرى كما كان أول الأمر
في عهد السلطان اينال ففي رجب سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م نودي في
القاهرة بالزينة ، وعرض المحمل كالعادة ولعب الرماحة لعبهم

برئاسة جاني بك الطريف وأبدع الرماحة في ذلك وشهده السلطان
اينال وضيقه ان ذاك رسول ملك بنى عثمان .

هذا ويذكر ابن اباس في حوادث جمادى الآخرة سنة ٩٠٩هـ /
١٥٠٤م أن دورة المحمل الرجبية قد أبطلت منذ أيام السلطان خشقدم
سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م ، فأراد السلطان الغوري أن يجدد هذا
الأمر « حتى يصير له التذكار بين الملوك » فدار المحمل في تلك
السنة وعين السلطان معلم الرماحة والباشات الأربعة ومن
الخاصكية أربعين مملوكا « على جاري العادة القديمة » مع أن ابن
اياس نفسه هو الذي يذكر عن السلطان خشقدم « وكان يدور المحمل
في كل سنة في رجب وتسوق الرماحة على جاري العادة أربعين
يوما » وذكر أيضا أن خشقدم كان يجلس في وسط الرميطة ليشاهد
المحمل .

ولعل الصحيح أن السلطان الظاهر جقمق كان هو الذي أبطله
نحو عشر سنين من قبل ، وفي سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م ، رشح
المؤرخ ابن تغري بردي ليكون أميرا للمحمل أو معلما له ، ولكن
السلطان عين جاني بك الأشرفي الخازندار بعد أن طلب الأخير ذلك
فأجيب مجارة من السلطان .

وبعض الأحيان كانت تخرج أمام المحمل مجموعة من الأفيال
الكبار وهي « مزينة باللبوس وعلى ظهورها الصناجق وقدامها
الطبول والزمور » . وحدث ذلك في شوال سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م ،
في عهد السلطان قنصوه الغوري .

والمعروف انه قبل خروج المحمل بمدة طويلة كان الرماحة
يتدربون على ألعاب الفروسية المختلفة يعرضونها ساعة دوران
المحمل كما كانوا يعدون الحيوانات ويروضونها لهذا الغرض ، فذكر

ان السلطان الغورى قد اعتاد فى الغالب بعد أن يحضر ممالكه يرمون بالنشاب على الخيل ، أن يحضر الحيوانات كالافيسال للمصارعة أمامه وكذا السبع والهزير .

ويصف بعض المؤرخين كذلك ما كان يحدث فى موكب المحمل فيقول « فى تلك الأيام يلعب أعيان الجند بالرماح فى الفضاء الواسع عند قبر سيدى أبى العباس الجزار بالمقرافة ، ويلعبون هناك فنونا عجيبة وأندابا غريبة ، ويركبون الممالك الصغار خيولا قد نصب عليها السيوف والرماح بالقباقيب وفى أيديهم رماح صغار يلعبون بها وهم على ذلك » .

لعبة القبق

ومن الألعاب الرياضية المرتبطة بالفروسية ، التى أقبل عليها الممالك ، لعبة القبق أو القبايق ، وهى لفظ تركى معناه القرعة العسلىة وأطلق فى العربية على الهدف الذى كان مستعملا فى لعب الرماية المعروف باسم القبق أيام الممالك .

ويشترط فى رمى الفارس أن يعرف التنقىل والسوق ، والتنقىل هو سوق الفرس قليلا ، والسوق هو الجرى الشديد ، والرمى أثناء الجريان والجولان ولاسيما عند اشتداد جرى الفرس الى آخر الشوط بالميدان .

والأصل فى رمى القبق هو اتقان علم ركوب الخيل وحبس رؤوسها باللجم ، والتدريب عليها فى الكر والفر حتى يتعودها الفارس ويصير له ذلك عادة .

وتشير المصادر الى أن تفصيل هذه اللعبة هو أن يجعل فى ميدان الرمى حبل معترض مرتفع على خشبتين ، ويجعل القبق فى

وضع متوسط بين الخشبتين ، ويكون سوق الرماة عند الرمي من تحت الحبل وفى بعض الأحيان كان يستعاض عن الحبل برسم دائرة اتساعها عشر باعات يكون القبق فى مركزها ، ثم يرمى اللاعبون الى السماء لاصابته .

ويجوز أن ينصب الرامى حلقة معدنية على شكل قرعة عسلية من ذهب أو فضة ويكون فيها طير حمام ، على خشبة عالية أيضا فى ميدان اللعب ثم يأتى اللاعبون للمباراة فى رمى الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل .

فمن أصاب القرعة أو طار الحمام حاز السبق وأخذ القرعة المعدنية نفسها مكافأة .

وقد زاد المقرئى على ذلك فوصف لعبة القبق بقوله : « انه عبارة عن خشبة عالية جدا تنصب فى براح من الأرض ويعمسل بأعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهم جوف الدائرة ، كى تمر من داخلها الى غرض هناك تمرينا لهم على احكام الرمي .

وهذا الوصف يختلف قليلا عن الوصف السابق ، ويفهم من ذلك أن الرماة كان يمكن أن يرموا وهم على الأرض أو على ظهور الخيل .

وفى وصف لكيفية الرمي على الهدف فى لعبة القبق ، تشير بعض المصادر الى انه اذا استوى الفارس على فرسه ، ومكن رجليه فى الركاب ، ولزمت ركبتاه وما يليهما من الساقين جانبي الفرس ، قبض بكل كفه على مقبض القوس ، وأمسك العنان بالوسطى والبنصر حتى يفوق السهم ، ثم ينهض الفارس قائما على ميل يسير على القربوص الأمامى ، ويحنى وسطه قليلا ، ثم يقبض على السهم

بجميع الكف ، ويجعل فوق السهم الى خلفه ونصله أمام الرامي ، وبعد قبض السهم يفوق بثلاث أصابع ، فإذا ما فوَّقه جعل نصَّاه على رأس الفرس فيما بين اذنيه من غير أن يمسهما ، وينبغي أن تتم العملية كلها في وقت واحد ، حيث يجري سوق الفرس وتفويق السهم وجر القوس بالسهم وافلات العنان من أصابع اليد اليسرى جملة واحدة .

وذكرت كتب الفروسية أن على لاعب القبق أن يتخذ فرسا مدربا وأن يعود الرامي على دخول القبق قبل الرمي ، فيروضه على الجري والدخول نحو الخشبة والعلامة مرات ، حتى يرى الفرس ذلك ويعرفه ، قبل البدء في الرمي .

كما حذرت اللاعب في دخول القبق أن يصطدم بركبتيه بالمغنداق الذي عليه العلامة ونظنه خشبة القبق ، وقيل أن طوله عشرين ذراع .

وقيل أن أحسن ما يكون الرمي في القبق ، حين يلتفت الفارس من أعلى كفل الفرس الى فوق ويرمي بعد أن يتجاوز الخشبة قدر باع وأن يتبع الرامي السهم بنظره الى أن يتعدى السهم العلامة .

ويستخدم الفارس عند رمي القبق السهم العريض الفصل المعروف بالمطمار أما أرض ميدان الرمي فينبغي أن تكون مستوية ، صالحة لأن يثبت عليها حافر الفرس ، وأطول الميادين للقبق مائة وثلاثون ذراعا ، وأن يراعى الرماة اتجاه الرياح بحيث تكون بظهر الرامي عند السوق ، ويتجه الى الجانب الآخر من الميدان عرضا .

ومن الأمور المرغية عند الرمي على القبق أنه إذا اجتمع الرماة بدأ أحدهم بالسوق والدخول في الرمي ، ولا يدخل الثاني

خلف الأول الا اذا ابتعد عنه بمسافة كافية ، حتى انه لو سقط الأول
تمكن الآخر من عطف فرسه عنه حتى لا يقع فوقه .

ويبدو أن لعبة القبق من اختراع المماليك ، خاصة أنه لم تحدثنا
عنها سوى المصادر المملوكية ، التي أوردت تفاصيل عن هذه اللعبة ،
ففى أوائل العصر المملوكى سنة (٦٦١هـ / ١٢٦٣م) عرف المماليك
لعبة القبق ، حيث أمر السلطان الظاهر بيبرس حاشيته أن يستعدوا
لتنظيم لعبة القبق ، وكان ذلك كما ذكر المقرئى فى شهر شعبان
سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م .

واهتم الناس فى ذلك العصر باللعب فالبسوا خيولهم
التشاهير وهى الأشرطة التى توجد حول صدر الحصان ، والبراسم
البحرية أى السروج الحربية والمروات والأهلة الذهب والفضة
والأطلس الخطائى .

هذا وتشير بعض المصادر الى بعض ميادين اللعب بالرمح
التي كان يسمى بعضها ميدان المروات .

وقد بلغ من اهتمام سلاطين المماليك بلعبة القبق أن أقام لها
السلطان الظاهر بيبرس ميدانا خارج باب النصر من شرقى القاهرة
عرف ميدان القبق ، وميدان العيد ، وبالميدان الأسود أو بالميدان
الأخضر ، وعرف كذلك بميدان السباق . وكثيرا ما ساق السلطان
بيبرس الى هذا الميدان « وقدامه جنائبه ، وشرط لكل أمير يصيب
القبق فرسا من الجنائب بما عليه من التشاهير ، وخلعة لكل
مفردى أو مملوك أو جندى ، ودخل الناس بالرماح بكرة النهار .

ولعل ذلك يدل على أنه قد سمح لبعض أفراد الشعب بممارسة
هذه اللعبة ومشاركة المماليك ذلك . وإن كان هذا ليس فى كل

• فيشير بعض المؤرخين في هذا الصدد • انه بينما كان يعيشون عيشة الترف ، كان المصريون على العكس من ذلك
م • الا الزراعة في الأرض ودفع الضرائب •

و • المحرم من سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م أمر السلطان بيبرس
مصطبة في نهاية باب النصر ، عندما احتفل برمي النشاب
حرب ، وصار ينزل كل يوم الى هذه المصطبة وقت الظهيرة
لعبة القبق ، ولا يغادر الا العشاء الآخرة خاصة في الأعياد
الرمزية الشغل الشاغل له ولرجال حاشيته •

١ • وقد انتقلت لعبة القبق الى سوريا في عهد السلطان
حديث هو الذي أدخل هذه اللعبة اليها سنة ٦٧٢هـ /
وكانت تقام في قلعة دمشق في ذلك الوقت ، ولكن توقفت
في سوريا لكثرة الأمطار التي كانت تسقط فيها ، وكانت
مرة تلعب فيها القبق هناك في شهر جمادى الاولى سنة
١٢٧٦م •

دو • أنه بعد موت السلطان الظاهر بيبرس قد قل شأن لعبة
لم توجد دلالة على أن هذه اللعبة كانت تمارس بعده على
ح • ويعتقد أن خلفاء الظاهر بيبرس لم يهتموا الا بالالعاب
والتدريبات العسكرية •

تتصر ميدان القبق فضاء من قلعة الجبل الى قبة النصر ،
ذيان الى أن تولى السلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون ،
ول اليه وبنى مصطبة برسم طعام طيور الصيد بالقرب من
ش • وصار ينزل هناك • ثم ترك تلك المصطبة في سنة
١٣٢٠م وعاد الى ميدان القبق ، وصار يركب اليه للرمي
على عادة من تقدمه من الملوك الى أن « بنيت فيه القبور »

شيئاً بعد شيء حتى انسدت طريقه واتصلت المباني من ميدان القبقق الى تربة الروضة خارج باب البرقية ، وبطل السباق منه ورمى القبقق فيه من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وقد كان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى النجمى ، والملك الأشرف خليل بن قلاوون « يركبون فى الموكب لهذا الميدان وتقف الأمراء والمماليك السلطانية تتسابق بالخيل فيه قدامهم وتترك الحسكر فيه لرمى القبقق .

ويبدو أنه كان هناك مواضع أخرى للعب القبقق أيام السلطان الظاهر بيبرس ، فقليل أنه عمر الجامع الكبير الذى بزقاق الكحل « وكان مكان هذا الجامع ساحة يرسم القبقق يلعب هناك المماليك » .

على أنه كانت تقام للرياضة بأنواعها الميادين ، وهى مساحات فسيحة فى أماكن عديدة ، بعضها فى القلعة وفى القاهرة أو فى خارجها فمن أهمها : الميدان بالقلعة ، وهو الميدان الذى كانت تقام فيه صلاة العيدين ، ويعرف بالميدان الكبير ، بالإضافة الى ميدان القبقق السابق ذكره ، والميدان الناصرى وهو على النيل بين مصر والقاهرة ، وميدان سرياقوس ، وهى بلدة فى نواحي القاهرة ، وكانت أرض هذه الميادين ممهدة ترش بالمياه بانتظام ، كما كانت تحدد فيها أماكن لجلوس المشاهدين ، فتقام فيها المصاطب لهذا الغرض ، كما كانت تقام فى بعضها - وقت المباريات - خيمة كبيرة للسلطان « دهليز » وخيام أخرى للاستراحة ، أو حتى قصور وأماكن خاصة ، مثل تلك التى تحيط بميدان سرياقوس .

ولعل ذلك يدل على أن السلاطين كانوا يحضرون لمشاهدة تلك الرياضات ان لم يشاركوا أمراءهم فيها ، كما يشير ذلك الى الاهتمام البالغ بهذه الرياضات فى عصر سلاطين المماليك .

ولم تكن ممارسة الممالك للعبة القبق تقتصر على الأيام العادية فقط ، بل أقبلوا على ممارستها في شتى المناسبات اظهارا لشعورهم كما حدث في سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م عندما أمر السلطان الأشرف خليل يلعب القبق ، بسبب ظهور أخيه الناصر محمد بن قلاوون ، وكذا ظهور ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى بن الملك الصالح علاء الدين على بن قلاوون حيث تنصب القبق تحت القلعة مما يلي باب النصر ، وفرقت الأموال والخلع على من أحساب رميه .

هذا وقد برع بعض الأمراء في هذه اللعبة الى حد كبير ، حتى ان أحدهم وهو الأمير بدر الدين بيسرى قد رماه كما لم يرمه غيره قبله ، اذ اقترح له سرجا وطىء الرادفة جدا ، ثم سار نحو صاري القبق ، والعادة جارية أن الرامي لا يرميه الا اذا صار بجانب الصاري ، الا أن الأمير ساق الى أن تعدى الصاري ، فاعتقد الناس أنه قد فاته الرمي ، ولكنه استقر على ظهر فرسه حتى صار رأسه على كفل الفرس ورماه وهو كذلك بعد أن تعداه فأصاب القرعة وكسرها ، فصرخ الناس لذلك واستعظموه وظهرت للسلطان فائدة السرج ، فأنعم عليه بخمسة وثلاثين ألف درهم ، وعظم في صدر الناس « وعلموا عجزهم بما أتى به وفعل ما فعل » .

وفي مجال اظهار براعة الرماة ، كان الرامي يستلقى على ظهره ، ويرمي بمئة ويسرة ، ويكون الرمي من قبل الأمراء عادة ، وذلك على قدر منازلهم واحدا واحدا ، أو حتى من قبل الحساكر والممالك ، حيث يشرف على ذلك الحجاب فمن أصاب القرعة أو أصاب طير الحمام ، منحه السلطان خلعة أو فرسا أو غير ذلك .

وقد اشتملت بعض مخطوطات الفروسية التي تنسب الى هذا العصر على بعض التصاوير التي توضح طريقة الرمي على القبق

وكيفية المدخول فيه ، ومن بينها مخطوط « مجموع فى الفروسية » ، وتشتمل على رسائل ومنتخبات مختلفة فى الرمى والفروسية وأدوات القتال والمصارعة واستعمال النفط وغير ذلك من الفنون الحربية .

وفىها تصويرة تمثل فارسين يتقدم أحدهما على الآخر فى اتجاه هدف القبق وهو يقحم فرسه على خشبه القبق يحاول كل منهما إصابة الهدف قبل صاحبه .

كما توجد تصويرة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس تنسب الى عصر السلطان الأشرف قايتباى سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧١م ، تمثل فارسين متواجهين يعدوان بجواديهما فى وضعية ثلاثية الارباع ، حيث يحاول كل منهما إصابة هدف على هيئة قرعة ، مرفوع فوق صارى طويل عن طريق اطلاق أسهم من قوس فى يده .

وكثيرا ما انتهى أمر لعبة القبق الى الطعان بالرمح أو الدبابيس أو بالسيف ، فينقسم اللاعبون الى فريقين عقب لعب القبق ، ويأخذون فى المبارزة والطعان « فلا يرى الناس الا سيوفا تبرق » وكان الظاهر بيدرس يستغل تلك الفرصة ليستعرض أمام الناس مهارته فى استخدام الرمح وهو لا يسأم الكر والفر .

وخلاصة القول ان الممالك وسلطينهم قد مارسوا رياضة الفروسية بأنواعها المختلفة ، وبرعوا فى ذلك الى حد كبير ، وماكان ذلك يحدث الا فى ظل تشجيع السلاطين والحكام لهذه الرياضة التى تتفق وطبيعة الممالك وظروف عصرهم ونشاطهم العسكرية .

بيد أنهم اتخذوا من هذه الرياضات مجالا للتدريب على فنون القتال والرماية ، حتى ان طبيعة تلك الألعاب فى غالبيتها تقسم

بالخشونة والجدية رغم أنها كانت تنفق في غالب الأحيان كوسيلة
من وسائل الترفية في ذلك العصر .

وبرغم أن رياضات الفروسية لم تكن ألعابا شعبية فسان كثيرا
من طبقات الشعب قد استمتعت بهذه الرياضات مشاهدة في الغالب
ومشاركة أحيانا ، وليس معنى ذلك أن الشعب المصري في ذلك
العصر قد صفت له الحال تماما ، فكتبرا ما عانى الناس من الازهاق
في مجارة الممالك وسلاطينهم في سبيل تحقيق متعاتهم الترفيهية ،
نتيجة لما كان يفرض عليهم من أعباء في مثل هذه المناسبات .

هواهش الفصل الأول

(١) الانداب ، جمع ندب ، وندب المنشاب نوع من اللعب به ، يقال لعب اندابا فى الميدان ، واطهر اندابا غريبة فى الحرب ، والمقصود فنون الحرب (انظر . ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٠٣) .

(٢) العينى ، السيف المهند ، ص ٢٣٠ . وأصل اللعب بالرمح من العرب ، وقيل أول من اخرج الرمح وأمسكه اسماعيل عليه السلام ، وقيل انما تعلم من جرهم حين تزوج منهم امرأة ، ثم تداولته الناس ، ولكن اندابه حدثت فى زمن الترك - يعنى المماليك - لاسيما فى دولة الملك الناصر حسن الى دولة الظاهر برقوق . (انظر ، العينى ، السيف المهند ، ص ٢٣٠) .

(٣) حيث يقول الشاعر :

وقد زعموا ان الجواد كبا به وحاشاه من عيب يضاف اليه
ولكن رأى سلطان عز وهيدة فقبل وجه الارض بين يديه
(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٢٧) .

(٤)

انى اشمع بدرهم متصدقا وأجود فى قدح بما ملكت يدي
(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٠٦)

(٥) وقيل ان الذى أحدث ذلك أول مرة هو الاشرف قايتباى لما كان يسوق فى دوران الحمل ، فكان ينزل عن فرسه ويبوس الارض للسلطان خشقتم فى وسط الرميلى (ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٩١) .



الفصل الثاني

الصيد والقنص

٢٠٩

(م ١٤ - وسائل الترميه)

مع اتساع خبرات الانسان ومجالاته وامكانياته تطورت فنون الصيد ، أصبح - مع كونه ضرورة ملحة فى بعض الأصقاع - يعتبر هواية رائعة ، ورياضة ممتعة حتى اجترفها البعض تجساراً تدر عليه الريح الوفير ، كما اغرت الكثيرين على اتخاذها مجالاً للشهرة وميداناً للتفاخر .

وقد تميزت عصور مصر القديمة بممارسة أهلها الصيد واستخدموا فى ذلك أدوات بدائية مختلفة ، كما عرفوا الرمح الذى كان يستخدم فى صيد الحيوانات البحرية والبرية .

واهتم العرب أيضاً بالصيد سواء فى الجاهلية أو فى الاسلام واستخدموا جوارح الطير كالياز والشاهين والعقاب والصقر وسائل للصيد يعلمونها ويدربونها على ذلك . وقيل ان بعض الصحابة كانوا يصيدون بالصقور والبزاة والكلاب الضواري ، التى أطلقوا عليها بعض الأسماء الغريبة ، كما استخدموا الفهود فى صيد الحيوانات البرية ، كما عرف العباسيون الصيد ومارسوه حتى قيل ان الخليفة المهدى ربما مات أثناء حادثة صيد .

وفى عصر الدولة الطولونية كان خماروبه مولعاً بالصيد ولعاً شديداً فكان يخرج لذلك الى جهة الاهرام واذا فرغ من صيده صار الناس يجتمعون لمشاهدة ما صاده الأمير .

أما فى العصر الفاطمى فقد انتشر الصيد خاصة بين الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة فقد أجمع المؤرخون على ولع الخليفة

العزیز بالله الفاطمی بالصید حتی انه کان یلقب « بالخليفة الصیاد » .

وفی الدولة الايوبیة کان صلاح الدین یبرز للصید فی مصر ویصید أیاما وفعل ذلک الملوك من بعده .

وهكذا کان الصید والقنص من أهم وسائل الترفیه والمتعة لدى الملوك والحکام بشكل عام ، حتی انه فی العصر المملوکي « کان خروج السلطان للصید من مظاهر الملك والأبهة ومن رسوم السلطنة وهذا مانعرض له فیما یأتی .

لقد کان الصید رياضة الممالیک المفضلة ، وتسلیتهم المحببة حیث کانوا یدربون منذ حداثة سنهم علی فنون الحرب وأسالیب الصید وغيرها ، كما کانوا ینظرون الی الصید علی أنه رياضة سامیة تسمو بالنفس ، وتهذب الخلق ، ویزون أنه العمل الذی یلیق بهم فی السلم اذا توقف عملهم فی میدان القتال ، لذا فأننا نراهم یخضعون علی تعلم أسالیب الصید وكل ما یتصل به من مهارات عن طریق التدريب والممارسة بالادعاء لمن أجادوا هذا الفن وأصبخوا أساتذة فیه ، فقد قیل ان الملك الظاهر بیبرس توجه فی المحرم من سنة ٦٦٣م « من قلعة الجبل للصید فأقام بوسیم ثم سار منها الی العباسة ورمى هناك بالبندق وادعی له جماعة ، کان منهم الأمير فخر الدین عثمان بن الملك المغیث صاحب الکرك » .

والمعنى المقصود بالادعاء له - أى للسلطان بیبرس - أن الأمير فخر الدین عثمان المذكور انتسب الیه واعتبره أستاذه فی فی الصید ذلک أن العادة فی دوائر الصید كانت فی ذلک العصر ، أن المبتدئ لا یصیر فی زمرة هواة هذا الفن الا بعد الانتساب لأحد

رماة الصيد القدماء ، فاذا تم له ذلك قيل انه ادعى لفلان اى انتسب اليه ، كما كانت وسيلة الادعاء أن ينجح المبتدئ فى اصابة رميته من طير أو غيره ، وعند ذلك يختار الانتساب الى من يشاء من رجال الصيد سلطانا كان أو أميرا أو فقيها أو عاميا .

ولعل فى هذا ما يوضح ما كان للصيد زمن سلاطين المماليك من آداب مرعية وأخلاقيات يتحلى بها من يمارسون هذه الرياضة ، حتى يتساوى السلطان أو الأمير مع الشخص من العوام فى استاذية كل منهم فى مجال الصيد ، وإن كان لا شك فى أن الانتساب الى كل منهم يكون على قدر مكانته .

ومن المعروف أن للصيد مناطق معهودة ومواقع مخصصة من صعيد مصر وصحاريها وبراريها ، حيث يوجد الطير أو الحيوان ، كما كانت له أيضا مواسمه الموقوتة وأيامه المعروفة ، فقد كان الخروج للصيد عادة فى فصل الربيع حيث يتعدد سبع منارات .

وقد تعددت مواضع الصيد فكان منها ما هو قرب القاهرة ومنها ما هو بعيد عنها . فمن الأماكن التى ارتادها المماليك بغرض الصيد ، بر الجيزة حيث كان من عادة السلاطين والأمراء أن يعدوا الى بر الجيزة للصيد هناك ، وكذا جهة الأهرام حيث توجد الغزلان والكراكي .

وجدير بالذكر أن السلطان المظفر قطز بعد أن هزم التتار فى عين جالوت من أرض كنعان سنة ٦٥٨هـ ، وأثناء عودته الى الديار المصرية ، انحرف عن درب الصيد عند القرين فرأى أرنباً فساق خلفه وساق معه خواصه من الأمراء ، الذين كانوا قد اتفقوا على قتله ، ثم تولى قتله الأمير بيبرس البندقدارى السلطنة بعد ذلك .

ومن الطريف أن السلطان قطز - الذى قتل أثناء الصيد -
قد وصل الى كرسي السلطنة بعد أن تخلص من المنصور على وهو
ابن استأذه مستغلا غيبة أكثر الأمراء من ممالك أبيه فى الصيد
أيضا .

وكان الظاهر بيبرس من أكثر سلاطين المماليك اهتماما بالصيد
لذا اهتم بطيور الصيد وكلابه على اختلاف أنواعها ، فأنشأ لها
المطاعم ، وعين لها البازدارية (١) للاشراف عليها والعناية بها .

كما كان حريصا على أن يشمل أمراءه بعطفه أثناء سرديات
الصيد ، ففي ربيع الآخر سنة ٦٦١ هـ ، سار من قلعة الجبل الى بلاد
الشام ، واستمر فى الصيد الى أن دخل غزة ، وفى العريش ضرب
حلقة بثلاثة آلاف فارس فوقع فيها صيد كثير جدا وحدث أثناء
الصيد أن تقنطر الأمير شمس الدين سنقر الرومى عن فرسه ، فسار
السلطان اليه وترجل عن فرسه ، وجعل رأسه على ركبته وسقاه
وأسعه وأخذه الى خيمته ، وهكذا أيضا فعل مع الأمير سيف الدين
قلاوون الذى سقط هو الآخر أثناء الصيد .

ولعلنا نلمس هنا أخلاقيات الصيد وأدابه ، وكذا عناية
السلطان بأمرائه ورعايته لهم أثناءه ، فلا غرو فى ذلك فالصيد
رياضة تسقط الفوارق وترفع الكلفة بين ممارسيها .

وقد ارتاد السلطان بيبرس أماكن كثيرة للصيد فى مصر
والشام ، فقد خرج يوما الى الطرانة (٢) وسار الى وادى هليب (٣)
ونزل الأديرة التى هناك ثم توجه الى تروجة (٤) ومنها سار الى
الحمامات ، ثم الى العقبة وهناك ضرب الحلقة برسم الصيد وقضى
هناك عيد الاضحى من سنة ٦٦٢ هـ ثم عاد الى الاسكندرية وفرق
المال والقماش على الأمراء والخواص .

ومما يدل على شغف السلطان الظاهر بيبرس بالصيد ، أنه كان يحرص حتى في وقت التجهيز لحرب التتار على الخروج في سرحات للصيد ، ففي ربيع الآخر سنة ٦٦٣ هـ ، ركب من العوجاء بعد ركوب الأطلاب ، للتصيد في غابة أرسوف ورسم للأمراء بأن من أراد منهم الصيد فليحضر « فان الغابة كثيرة السباع » .

وفي المحرم من سنة ٦٦٥ هـ ، خرج السلطان من دمشق بعساكره قاصدا الديار المصرية ، وسار الى الكرك ونزل ببركة زيزاء ، وركب ليتصيد ، فسقط عن فرسه مما جعله يتأخر هناك أياما حتى صلح مزاجه .

وكثيرا ما كان السلطان يقطع رحلة الصيد عندما يصله نبأ العدوان على إحدى المدن ، فيروى المقرئ أنه في صفر سنة ٦٦٦ هـ اجتاز السلطان بيبرس على السدير (٥) قرب العباسية (٦) وبينما هو في الصيد هناك ، إذ بلغه حركة التتار على حلب فعاد الى القلعة وأمر بخروج الخيام .

وفي ذي القعدة من نفس السنة استقبل السلطان وهو في الصيد ليفون بن ملك سيس ، وبالح في الاحسان اليه ، ورحل السلطان من انطاكية الى سيزر وسار فيها على البرية الى حمص. وهو يتصيد ، كما كانت تصله أحيانا أخبار النصر وهو في الصيد فيجزل العطاء للمبشرين .

وكان السلطان بيبرس يشجع الأمراء والمقدمين ، على الصيد فكثيرا ما كان يصطحبهم الى حلقات الصيد ، ويكافئ كلاً منهم على قدر ما يحضره من صيد سواء كان حيوانا أو طيرا ، ففي شهر صفر من سنة ٦٦٨ هـ خرج السلطان من قلعة الجبل ومعه الأمراء

والمقدمون ، فركب فى الحراريق الى الطرانة ودخل السلطان البرية وهناك ضرب حلقة ، فأحضر الى الدهليز ثلاثمائة غزال وخمس عشرة نعامة فقدم عن كل غزال بغلطاق (٧) بسنجاب ، وعن كل نعامة فرسا ثميناً يسرجه ولجامه . ويتضح من هذا أن السلطان كان يسرف فى الانعام على من يشاركونه الصيد ، حتى أنه خرج يتصيد فى ذى الحجة سنة ٦٧٠ هـ ، فخلع خمسمائة تشريف على من أحضر اليه الصيد .

كذلك كان أبناء السلطان بيبيرس مغرمين بالصيد ، فقد خرج الملك السعيد بركة خان فى رمضان سنة ٦٧٢ هـ ، فى عدة من الأمراء الى الشام ، وفى ليلة عيد الفطر خلع على أمراء الشام والمقدمين والأكابر ، وخرج يتصيد بالمرج ، ووصل صفد . وذكرت المصادر أن السلطان المنصور قلاوون قد « شرع فى الخروج الى جهة المرج والاقامة به والصيد وبذل الخلع والانعام ، فعمت هباته ومعروفه جميع الناس ، ومابقى من (لم يصله) انعام أو بر ، وأقام كذلك مدة مقامه فى الشام وخروجه الى متصيداته فى عدة جهات » .

وحدث أن رمى ابنه الملك الصالح علاء الدين على بجعا بجهة العباسية بالبندق وأهداه الى الملك المنصور محمد صاحب حماة ، فقبله وبألف فى اظهار السرور والفرح بذلك وأرسل اليه مقدمة جليلة .

وكان السلطان الأشرف صلاح الدين خليل مولعاً بالصيد ، إذ خرج فى جمادى الآخرة سنة ٦٩١ هـ من مصر الى الشام ووصل الى حماة فاهتم الملك المظفر صاحب حماة بأمر ضيافته والاقامته والتقدمة ، وضرب السلطان دهليزه فى شمالها عند ساقية سلمية

ومد له سماط عظيم بالميدان ، ونصبت خيم تليق بنزول السلطان
ثم توجه من حماة وفي خدمته صاحبها وعمه الملك الأفضل الى
المشهد ثم الى الحمام والزرقاء بالبرية ، نصاد شبيثا كثيرا من
الغزلان وحمير الوحش . وكان السلطان يمارس الصيد بالفهود ،
ولا يصطحب معه الا بعض من يختار من الخاصكية والملك الأفضل
نور الدين والد المؤرخ « أبو الفدا » الذي كان السلطان يعجب به
بحديثه وخبرته الكبيرة بأمر الفهود والصيد ، حتى ان السلطان
قد دعاه للحضور الى مصر ، خاصة في أيام الصيد ليصاحبه في
صيوده استئناسا به .

ولما كان الصيد رياضة وتسلية ومتعة بالنسبة لسلاطين
الممالك ، فانه أيضا كان سببا مباشرا في افساح الفرصة لأعدائهم
ومناقسيهم من الأمراء ، للقضاء عليهم فما أكثر حوادث الصيد
التي تعرض لها السلاطين ، ومنها ما دفع بعضهم حياته ثمنا لها
كما سبق أن أشرنا بالنسبة للسلطان قطز ، كما أن السلطان
الأشرف خليل قد قتل أيضا أثناء الصيد عندما سرح الى البحيرة
يتصيد وصحبته الأمراء ، والمقدمون وغيرهم ، فبلغ الركب الطرانة
فجاء اليه الخبر أن بتروجة طيرا كثيرا ، فقال : هيا بنا وانفرد في
نفر يسير ، ولم يكن معه سوى الأمير شهاب الدين بن الأشل أمير
شكار ، فلقى في تروجة طيرا عظيما ، فرمى بالبندق وصرع منها
شيئا كثيرا وكان ذلك وقت العصر في يوم من المحرم سنة ٦٩٣ هـ ،
وبيئنا السلطان على هذا الحال بأرض تروجة إذ بجماعة من
الأمراء على رأسهم الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة فأدركوا
السلطان وقتلوه .

كذلك كان السلطان الناصر محمد من أشد سلطين الممالك
نعلقا بالصيد حتى أنه عندما أبلغ بإقامته سلطانا للمرة الثانية في
جمادى الاولى سنة ٦٩٨ هـ كان يتصيد بالغور بالشام .

وقد اهتم السلاطين بطيور الصيد وكلابها على اختلاف أنواعها ، حتى أنشأوا لها المطاعم ، وعينوا لها من يقوم على خدمتها من البازدارية والخولة والكلابية وأجزلوا لهم العطاء حتى وصل اقطاع بعضهم فى عصر السلطان الناصر محمد قرابة الألف دينار ، خاصة انه كان يحرص على جلب الجوارح من الصقور والشواهين والسناقر والبزاة حتى أصبح كل أمير عنده منها عشرة سناقر تقل أو تكثر . ويقال انه ترك بعد وفاته مائة وعشرين سناقرا خاصة به ، وأن ذلك لم يعهد من قبله فى مصر ، كما ترك أيضا ثمانين جوقة من كلاب الصيد بكلابزيتها (٨) ، وهى التى أصبحت خمسين جوقة فى عهد الناصر حسن سنة ٧٤٨ هـ فقطعت وأبقى منها على جوقتين فقط .

وجدير بالذكر أن هدايا السلاطين كانت غالبا ماتضم عددا من الحيوانات النادرة وحيوانات الصيد ، فقد أرسل السلطان الى صاحب ماردين هدية ، عبارة عن قيل وزرافة وأربعة فهود ، توجه بها شهاب الدين أحمد الدنيسرى السواق وهو من مقدمى الحلقة المنصورية .

وقد اعتاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون الخروج للصيد فى مواضع متعددة حتى أنه لم يدع أرضا تعرف بصيد الجوارح الا أقام بها صيادين يقيمون فى البرية أو أن الصيد ، ويبدو أنه كان يفضل الخروج للصيد فى صعيد مصر بصحبة قاصديه من الخارج ، كما كان كثير من الأمراء أيضا يخرجون الى هناك بغرض الصيد من دون السلطان .

وفى المحرم سنة ٧٠٢ هـ رسم لجميع الأمراء والمقدمين بالخروج الى الصيد نحو الغباسة فخرجوا وخرج السلطان مبرزا الى البركة واجتمع هناك بالقضاة الأربعة ثم تقسّم الدهليز الى

الصالحية ودخل السلطان والأمراء الى البرية للصيد حتى وصل
الركب الى الصالحية . وكان فى كثير من الأحيان يخرج السلطان
للصيد وفى صحبته الخليفة العباسى ، فقد خرج معه الخليفة
أبو الربيع الملقب بالمستكفى بالله وقد ربطت الصداقة بينهما حتى صارا
كأخوين .

وكان الوزير يشرف بنفسه على ترتيب اقامة السلطان اثناء
سرحات الصيد خاصة أن مدة غيبته قد تمتد أكثر من الشهر فى
كثير من الأحيان ، وان كانت أحيانا تقتصر على يوم واحد بغض
النظر عن بعد أو قرب موضع الصيد عن القاهرة ، فقد أقام
السلطان والأمراء جهة الأهرام مدة سبعة وعشرين يوما ، فى حين
تجده يتوجه لیتصيد فى البحيرة والحمامات ، ثم يطلع الى القلعة
فى يومين أو ثلاثة ، ، هذا وقد بلغت مدة سرحته فى الرجة القبلى
اثنين وخمسين يوما ، كما كان الركاب يتوجه الى ثغر الاسكندرية
والى الجهات الغربية من أجل الصيد والتفرج فى تلك الجهات .

وأیضا حرص السلطان الناصر محمد على ممارسة الصيد ،
حتى وهو فى طريقه الى الحج أو لزيارة القدس الشريف ، فيروى
صاحب المختصر فى أخبار البشر أنه فى ثانی ذى القعدة سنة
٨١٧ هـ « خرج السلطان من قلعة الجبل وتصيد فى طريقه الكراكي ،
وكننت بين يديه ، فتفرج على الصيد ، وصاد عدة من الكراكي ومن
السناقر وغيرها ونزل بالدهليز المنسوب وأقام به يتصيد فى كل
نهار ببلاد الجوف ورحل من المنزلة المذكورة بكرة الشميس سابع
ذى الحجة . . حتى وصلنا رابع . . التى أحرم منها » .

وكان السلطان فى طريقه فى الرواح والعود يتصيد الغزلان
بالصقور وكان فى صحبته أربعون جملا تحمل محابر الخضراوات

المزروعة ، وكان يحصل منها ما يقدم بين يديه ، ويفرق على جميع من في صحبته من الأمراء والأجناد المال بحيث بلغ أقل نصيب فرق في الأجناد ثلاثمائة درهم وما فوق ذلك إلى خمسمائة درهم .

وسبق أن خرج السلطان متوجها لزيارة القدس الشريف ، فواصل مسيرته إلى الكرك وتوجه إلى بركة الأمير سيف الدين تنكز الناصري نائب السلطنة بدمشق المحروسة وهناك تصيد في تلك النواحي ثم عاد إلى الديار المصرية .

وتصيد السلطان كذلك في القليوبية بالقرب من قليوب ، وكذا بالخرقانية وحدث أن تعرض لحادث أثناء الصيد فتقنطر وانصدعت يده اليسرى ، فطلع إلى القلعة ، وباشره المجهزون والأطباء وعندما عوفي أقيمت له الزينة في كل المدينة واستمرت التهاني عدة أيام .
كما صاحب السلطان الأمير تنكز نائب الشام للصيد بالجيزة وغيرها أكثر من مرة ، على الرغم مما كان يكره له من ضيق في صدره .

كما برز بعض الأمراء أيضا في مجال الصيد منهم الحسين ابن أبي بكر بن جندريك شرف الدين الرومي الذي أصبح من خواص الناصر محمد ، وكان محظوظا في الصيد مما قربته أكثر للناصر فأعطاه مقدمة ألف واستمروا إلى أن أعطاه مقدمة وأصبح أمير شكار .

ويذكر أن الأمير أنص ابن السلطان العادل كتبغا كان يتصيد برغم كونه أعمى - حيث كان قد أصيب في إحدى عينيه وخفت ضوء الثانية - وكان لا يظن أحد أنه أعمى لامكانه إرسال الجارح وسوق الفرس تحته . وكان السلطان العادل كتبغا راغبا في الصيد كذلك ، فقد سار من دمشق إلى حمص على البرية متصيذا .

أما السلطان المنصور لاجين ، فكان كثير الحركة بحيث يغيب في الصيد الشهر والشهرين مصطحبا معه أرباب الملاهي .

وفي سنة ٧٥٣ هـ وجد فيما ضبط من موجود الصاحب علم الدين بن زنبور الدميرى « وجد في دواره من الغزلان ، والكراكي والغرائيق والنعام ، وحمير الوحش والبط الصياني والخرفان البشموريات ، وأشياء كثيرة لاتنحصر لكثرتها . وهذا يشير الى اقتناء حيوانات الصيد وطيوره في المنازل وأنها كانت مظهرا من مظاهر الترف والأبهة في ذلك العصر كما قبل السلطان حسن هدية فيها طيور جوارح .

وفي عهد السلطان الأشرف شعبان ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م ؛ ٧٧٨ هـ / ١٣٧٧ م كان الصيد كذلك يمثل وسيلة مهمة من وسائل الترفيه في ذلك العصر ، ورياضة مهمة لدى المماليك ، فكان البسلطان والأمراء يخرجون في سرحات الصيد الى جهات كثيرة من مصر ، فقد كان السلطان يسرح على عادته الى سرياقوس ، وكذا ير الجيزة كما سار في ربيع الأول سنة ٧٧٠ هـ الى ناحية طنان (٩) للصيد ، ومنها مضى الى الاسكندرية التي زينت له زينة عظيمة ، وخرج أيضا للصيد في البحيرة وكان هذا من عادته وقيل انه خلع ما استجده عند قدومه كل سنة من سرحة البحيرة من الخلع على الأمراء الألو ف .

واهتم الأمراء كذلك بالصيد في عهده ، فخرج كثير منهم للصيد ، فقد توجه الأمير يابغا الأتابك ، وكذا الأمير طيغا الطويل ، أمير سلاح ، الى العباسية للصيد ، كما تصيد بعضهم في جزيرة القط (١٠) .

كما عني بعض الأمراء بتربية الأسماك في برك خاصة ، مثل مافعل الأمير شهاب الدين بن أحمد بن قايماز استادار حينما أراد

عمل بركة شرقى الخليج ليتجمع فيها السمك ، وفتح لها مجرى من جانب الخليج ، مما أدى الى اغراق جهات كثيرة بسبب ذلك .

أما السلطان الظاهر برقوق فكان أيضا مولعا بالصيد بدرجة كبيرة ، حتى انه كان يركب للصيد عدة مرات فى الشهر الواحد . فقد خرج للصيد سبع مرات فى شهر صفر من عام ٧٩٦ هـ .

وكان الظاهر برقوق يتصيد فى مواضع متعددة مصطحبا معه خواصه من الأمراء وفى المحرم سنة ٧٨٥ هـ ركب السلطان ومعه الأمير يلبغا الناصرى حتى عدى النيل من بولاق الى الجيزة من أجل صيد الكراكى ، حتى انه كان يستدعى هذا الأمير من دمياط أثناء سرحته للصيد فى سرياقوس وينعم عليه انعاما كبيرا بلغ مائة فرس ومائة جمل وسلاح ومال وثياب ، قيمة ذلك خمسمائة ألف درهم فضة .

وذكر المقرئى أن السلطان قد خرج للصيد فى اماكن كثيرة من البلاد كما سبقت الاشارة منها جهة الأهرام وسرقوس والبحيرة خاصة فى ناحية دنانج (١١) .

وكان كثيرا ما يخرج للصيد فى بركة الحاج ، لكثرة وجود الكراكى بها ، حتى أنه خرج للصيد فيها فى شهر واحد ست مرات كما تصيد فى المطرية وطنان وغيرها .

وكان من عادة السلطان عندما يخرج الى سرحة سرياقوس أن ينزل بالقصور التى هناك ، ويكون بصحبته الأمراء وأهل الدولة . والمعروف أن آخر سرحة له الى سرياقوس هى تلك التى عاد منها فى الخامس والعشرين من المحرم سنة ٨٠٠ هـ ، ولم يخرج اليها أحد من السلاطين من بعده ، حتى خربت قصورها بعد أن كانت أجمل عوائد ملوك مصر .

وقد اعتاد السلطان أن ينزل بين حين وآخر الى مطعم الطيور خارج الريدانية تحت الجبل الأحمر ، خارج القاهرة ويقعد بمصطبة المطعم هناك (١٢) ، كما كان يستقبل هناك بعض قصاده ، مثلما فعل مع الأمير تنم نائب الشام ، حين قدم اليه فى صفر سنة ٧٩٩ هـ ، كما استقبل هناك عددا من مماليكه المشقرين الذين كانوا يحلب وكان عددهم نحو الأربعين .

ومما يدل على ما للصيد فى حياة سلاطين المماليك من أهمية ، أن التقدّمات والهدايا التى كانت تقدم اليهم كثيرا ما كانت تشتمل على كلاب للصيد وطيور جوارح أو فهود وغيرها ، مثال ذلك تلك التقدمة التى جاء بها الأمير بيدمر نائب الشام الى السلطان الظاهر برقوق واشتملت ضمن ما اشتملت عليه ثلاثة عشر كلبا سلوقيا . كما تلقى السلطان أيضا هدية من الخان طقتمش بن أربك صاحب بلاد الدشت (١٣) وكانت عبارة عن سبعة سناقر من الطيور الجوارح .

وجدير بالذكر أن حب المماليك للصيد ، كاد أن يجرحهم لحروب ومصادمات مع غيرهم ، ففي صفر سنة ٧٩٥ هـ « قدم الخبير من الحجاز بأن جنتمر التركمانى أمير ركب الشام ، هجم على اشراف بالمدينة النبوية ليأخذ منهم صقرا يصطاد به وفهدا فدافعوه وقتل منهم شريفيين ، وكادت الحرب تقع لولا أن ركب الأمير ثابت بن نعيم أمير المدينة ، وكف عن القتال ، وأن الشريف على بن عجلائن قبض على سبعين من بنى حسن بمكة » .

ولعل هذا يبرز لنا مدى الحرص على ممارسة الصيد من جانب الأمراء ، حتى لو افتقدوا أدواته ، مما دفع هذا الأمير الى محاولة الحصول على الصقر والفهد ليصيد بهما ، وقد يكون قد دفعه الى ذلك أنه صادف منطقة تصلح للصيد .

ولم يكن السلطان الناصر فرج بن الظاهر برقوق أقل من أبيه
خبيا للصيد حيث مارس الصيد هو وأمرأؤه فى جهات متعددة من
إبلاد فكثيرا ما عدى النيل الى بر الجيزة ونزل بناحية أوسيم عند
مرابط الخيول على البرسيم ليتصيد ويتنزه * وقد وقع منه ذلك فى
الشهر غير مرة ، ويبدو أن السلطان أثناء تلك السهرجات كان
يتناول مشروبا مسكرا ، حتى انه كان يطلع الى القلعة بعدها ،
« وهو لا يكاد يمالك نفسه على الفرس من شدة السكر » .

وقد تكرر منه ذلك حتى لقد بلغ به الشطط مبلغه حين أمر
والى القاهرة أن يقتل عشرة من الممالك الظاهرية - أى ممالك
أبيه - لتخلفهم عن الركوب معه ، حينما ركب هو الى الصيد بناحية
بهتيب من ضواحي القاهرة * كما كان يعود من الصيد ويشقى
القاهرة ، وعليه ثياب جلوسه وهو مالم يحدث من ملك قبله .

ومع انهماك الناصر فرج فى أمور الترفيه هذه صيدا وشرابا
فان ذلك لم يسلبه اليقظة ، ولم يلغها عما يحاك ضده من مؤامرات
- شأن الممالك فى ذاك العصر - وكما حدث للبعض ممن سبقوه
من السلاطين ، مثال قطز ولاجين وغيرهما * فبينما كان يتصيد
بناحية سرياقوس ان « بلغه أن طائفة من الأمراء والممالك اتفقوا
عليه ، فعاد الى قلعة الجبل مسرعا وتتبع ما قيل له حتى ظفر
بمملوكين عندهما الخبر ، فعوقبا » بعد أن كشفوا له الأمر ، وكان
ذلك من تدبير أحد الأمراء هو الأمير جانم .

ومن السلاطين الذين عرفوا بحبهم للصيد أيضا ، السلطان
المؤيد شيخ الحمودى (١٥) ، فقد تصيد كثيرا على عادة من سبقوه
فى بر الجيزة لصيد الكراكي وكذا غيرها من الجهات مثل الطرانة
وسرياقوس ، وتروجة وبركة الحاج (١٦) وبلييس وأوسيم ، كما
ن يحرص على الذهاب الى مطعم الطيور .

ولم نعلم سلطانا ركب للصيد فى بركة الحاج ليلا الا السلطان المؤيد شيخ الذى كان يرمى الطيور بها .

وكذا السلطان الأشرف برسباى كما سيأتى فيما بعد .

ورغم الألم الذى كان يعاوده فى رجله ، ويلزمه الفراش أحيانا ، فإنه ركب المحفة وهو مريض فى ذى القعدة سنة ٨٢١ هـ وسرح ثم عاد ولم يقعه المرض عن ممارسة رياضته فى الصيد .

وكان السلطان الأشرف برسباى يخرج قاصدا الصيد فى البرية ، وخاصة بالليل ، كما كان يرمى الجوارح ويعود من الغد ، وقد تكرر الركوب منه لذلك مرارا ، كما سرح السلطان الى ناحية اطفيح برسم الصيد والقنص ، وبات خارج المدينة ، كما كان يتوجه الى جهة شبين والى بركة الحاج فى سرحات متوالية .

ويبدو أنه كان مغرما بالصيد ليلا كما أشرنا ، حتى انه « ركب من القلعة ودخل من باب زويلة وخرج من باب القنطرة للصيد .. وبات ليلته فى طلب الصيد وفى غده عاد .. » كما توجه الى الاعمال القليوبية لصيد الكراكى وان عاد منها أحيانا ولم يصطد شيئا .

وقد حمل رسل بن عثمان الى السلطان فى رجب سنة ٨٣١ هـ مقدمة من الممالك عدتهم خمسون مملوكا من جنس الروم وطواشى أبيض ، وخمسة عشر من الطيور الجوارح المختلفة .

أما السلطان اينال فقد كانت عادته أن ينزل بين الحين والآخر الى مطعم الطيور ، مثلما كان يفعل السلطان الظاهر برقوق كما أشرنا من قبل . وكان البازدارية (١٨) يطلقون طيورا أعدوها لهذا الغرض ، ثم يطلقون وراءها الطيور الجارحة لاصطيادها

والسلطان يتسلى برؤية هذا المنظر . وحدث مثل ذلك أيضا مع السلطان الأشرف قنصوه الغورى ، حيث نزل من القلعة فى التاسع من شعبان سنة ٩١٧ هـ « وصحبته ولده ، فتوجه الى نحو المطعم السلطانى وجلس على المصطبة التى هناك ، فأرموا قدامه رماية بالطيور والكلاب والصقور والفهود ، وانشرح فى ذلك اليوم » .

وقد كان السلطان الأشرف قايتباى يركب كذلك للصيد بصحبة الأمراء ويشق القاهرة فى موكب حافل ، على عادة السلاطين وأحيانا كان لا يشق منها بل يطلع « من بين القرب » .

وقد تكرر نزوله للصيد فى شهر واحد ثلاث مرات ، وكان يهوى صيد الكراكى والبليشون .

وحدث أن كان السلطان متوجها فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٠ هـ الى ثغر دمياط من البحر - يقصد نهر النيل - فى عدد كبير من المراكب حوالى المائة مركب وبصحبه الأمراء والأمراء المقدمون والعشرات ، وكذا جماعة من المباشرين والخاصكية والمماليك ، وبينما هم فى رحلتهم النيلية اذا بالسلطان يرمى عدة كراكى على احدى الجزر ، فيقوم بنفسه ويرمى عليها بسهم نشاب ، فصرع منها كركيا تحامل بسهمه ووقع فى البحر ، فأسرع اليه أحد السلحدارية ونزل ليحضره فقوى عليه التيار ففرق ، فحزن السلطان عليه كثيرا .

ويبدو أن هذا السلطان كان محبا للتفرج على صيد السمك فقد توجه وهو فى دمياط الى مكان يصاد به السمك البورى ، ونزل فى مركب صغير وشاهد كيف يصاد هذا النوع من السمك ، وانشرح فى هذه السفرة للغاية ، ثم عاد الى القاهرة ، وكانت غيبته نحو من خمسة عشر يوما .

وقد كان من عادة السلاطين أن تشتمل هداياهم على بعض حيوانات الصيد وكذا أنواع من الطيور التى تستخدم فى الزينة ، فقد أهدى السلطان الأشرف قايتباى الى ابن عثمان هدية حافلة كان من جملتها سبع وزرافة وبيغاء حمراء اللون وغير ذلك أشياء كثيرة .

ولعل هذا يوضح أن الممالك لم يكونوا يكتفون بمجرد التمتع بصيد الحيوانات أو الطيور ، بل كانوا حريصين على اقتنائها للزينة ، ويدل على أهميتها عندهم أنها كانت تمثل أعلى ما يهدى منهم أو اليهم كما سبقت الإشارة الى ذلك .

ذلك ولم يشذ السلطان قنصوه الغورى عن سبقه من السلاطين فى ممارسته للصيد كرياضة ترفيهية ، فقد توجه الى الفيوم وأخذ يتصيد فى ربوعه كما صاد أيضا فى بر الجيزة ، حيث نزل بالمنية عند امبابة لهذا الغرض .

كما تلقى الغورى هدايا اشتملت على حيوانات للصيد ، عندما حضر اليه أحد القصاد وصحبته مقدمة كانت « نحو من أربعين حمالا ، عليها من الفهود سبعة وقيل كانوا تسعة فمات منهم اثنان » .

كما حضر اليه أيضا قاصد من عند ملك الهند وصحبته فيلان عظيمي الخلق فرجت لهما القاهرة وعرضا على السلطان فى الميدان وقدامهما الطبول والزمور .

الرمى بالبندق (١٨)

والحديث عن الصيد كاحدى وسائل الترفيه يحتم علينا أيضا ان نشير الى الرمى بالبندق الذى كان يستخدم فى الرمى على الطيور وصيداها ، والبندق عبارة عن كرات صغيرة تصنع من

الحجارة أو الطين ، وأحيانا من الرصاص أو الفضة بل أيضا من الذهب .

وكان البندق يطلق بالمزاريق ، وهى أنابيب ترسلها بضغط الهواء أو بالنشاب ، أو بالأقواس أو بما يسمى بقوس البندق أو الجلاهق - جمع الجلاهقات - وقيل بالزبطانة ، ولعلها البندقية .

والبندق وسيلة للصيد كانت شائعة فى عصر سلاطين المماليك ، حتى ان معظم السلاطين قد استخدموه فى رمى الطيور مثل السلطان الظاهر بيبرس الذى « سار الى العباسية ورمى البندق » .

ويبدو أن البندق كان يستخدم غالبا فى صيد الطيور المائية كذلك مثل البجع كما فعل الملك الصالح علاء الدين على بن السلطان المنصور قلاوون الذى رمى بالبندق على البجع بالعباسية وصاد منه كثيرا .

وكان البندق يحمل فى كيس يعرف بجراوة البندق ، خلف السلطان أو الأمير عند الخروج للصيد ، وقد يقوم بهذا العمل شخصان فى بعض الأحيان .

وقد أهدى الى أحد الأمراء عندما صرع بالبندق طائرا من طيور الواجب هدية اشتملت على حلة برسم الصيد وجراوات مزركشة برسم بندق الرمى بلغت الأربعين وكذا من قسى البندق مائتى قوس ومن بندق الرمى ستين بندقة من الذهب الصامت ، ومائة بندقة من الفضة الخالصة .

ويوضح ذلك مدى اهتمام المماليك بالصيد بصفة عامة ، والرمى بالبندق بصفة خاصة ، ومدى تقدير المتميزين فى هذا المجال .

ولم يكن البندق هو الوسيلة الوحيدة لصيد الطيور ، الى جانب كلاب الصيد وفهوده ، وجوارح الطير ، بل أيضا استخدمت الشباك حيث كان الصيادون المهرة يستخدمونها وعرفوا بالمهارة فى ذلك حتى « انهم كانوا يجذبون فى الضربة الواحدة ثمانمائة بطة وبلغ طول الشباك أحيانا مائة وعشرين ذراعا ، ولم يكن جذبها بالأمر اليسير ، حتى لقد كان يقوم بهذا الأمر عدد لا يقل عن ستة عشر شخصا » .

وفى العادة كان الصيد يبدأ باطلاق الطير فى الهواء ثم يرمى لها الحب لتهبط اليه ، وفى نفس الوقت يضرب الأمراء حولها حلقة وهى لاهية فى التقاط الحب فتدق الطبول لافزاعها والأمراء يتربصون لصيدها .

ويستمر السلطان فى صيد الطيور حتى يأخذ حظه منه وبعدها يتحول الى اقتناص الوحوش ، فتعد الخيول لذلك وتضرب العساكر حلقة كبيرة واسعة يطلق داخلها النعام والظباء وبقر الوحوش وغيرها من الحيوانات ، ويأخذ السلطان فى مطاردتها ومعه الجوارح الصائدة ، فتضطرب الوحوش ويستولى عليها الذعر فى منظر رائع مثير ، وبعد أن يستمتع السلطان ويصيد كفايته ، يترك لأمرائه حرية الصيد .

وكان الرمى بالبندق وخاصة ذلك المصنوع من الرصاص يمارس كنوع من التدريب العسكرى عند المماليك ، خاصة قبل انضمامهم الى التجريدة (١٩) ، حيث كانوا لا ينضمون اليها الا بعد اجتيازهم اختبارا فى الرمى بالبندق أمام السلطان ، ففى ربيع الأول سنة ٨٩٥هـ عرض السلطان قايتباى « أولاد الناس أصحاب الجوامك من ألف درهم فدونه ، وكان أمرهم أن يتعلموا رمى البندق

الرصاص قبل ذلك ، فلما عرضهم وأرموا قدامه كتبهم الى التجريدة وأنفق عليهم كل واحد ثلاثين دينارا ، وكل اثنين أشركهما فى جمل إعطاه لهم وخرجوا صحبة التجريدة .

وهذا يدل على أهمية الرياضة بوجه عام لدى المماليك والصيد والرمى بالبندق بوجه خاص ، حيث كانوا يتخذون منها وسيلة للتدريب على الرمى بهدف اجادة فنونه وذلك بطبيعة الحال يتفق مع ميولهم الحربية التى كانت تعتبر من أهم سمات عصرهم ، حتى ان السلطان يحض على هذا التدريب ، ويتأكد بنفسه من جدية التدريبات التى كان يأمر بها ممالكيه ، خاصة أن بعض السلاطين كانوا أساتذة فى فنون الصيد حتى ادعى لهم الامراء أى انتسبوا اليهم فى الصيد كالسلطان الظاهر بيبرس الذى ادعى له جماعة منهم كما سبقت الاشارة الى ذلك .

ومن الملائم للنظر أن الرمى بالبندق كان يستخدم أحيانا كوسيلة للعقاب ، فقد ذكر أن الأمير تنكر نائب الشام قد غضب على حمزة التركمانى - الذى كان قريبا من قلبه حتى أصبح سفيرا بينه وبين السلطان الظاهر - فأمر بأن يرمى بالبندق ، ورمى حتى تورم جسده ولم يمنعه أحد من ذلك .

أما عن الوظائف التى كانت متعلقة بالصيد سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، فقد حرص سلاطين المماليك - على عادة من سبقهم - على تعيين موظفين تتصل وظائفهم بالصيد اتصالا مباشرا ، وكانت أولى هذه الوظائف ، وظيفة « أمير شكار » (٢٠) أو أمير الصيد ، فكان اذا خرج السلطان للصيد تصحبه جماعة خاصة على رأسها هذا الأمير ، وعمله الاشراف على الجوارح السلطانية ، والعناية بأمورها ، فضلا عن مباشرة أمور الصيد ، وكان

صاحب هذه الوظيفة يعين من أمراء المئتين ثم صار يختار من أمراء
الطبلخاناه .

وكان من الأعمال التى يكلف بها أمير شكار أيضا الاشراف
على طائفة البازدارية أو البزادرة ، وهم الذين يحملون الجوارح
المعدة للصيد ، وكان يرأسهم البازدار (٢١) أو البازيار ، حيث كانوا
يتصدرون الموكب ، حاملين بأيديهم صقورا تنقض كالصواعق على
كل صيد ثمين تراه أمامها بمخالبها الحادة وتنسب هذه الطائفة
الى الباز ، وهو أهم الطيور الضارية التى كان العرب يستخدمونها
فى صيدهم .

وكانت هناك طائفة أخرى من الموظفين ، يشرف عليهم كذلك
أمير شكار ، هم طائفة الحون دارية أو الحواندارية التى مفردها
الحون دار ، وهو الذى يكلف بخدمة طيور الصيد وحملها الى
المكان الذى تدرب فيه وأصلها « حيوان دار » .

ويعتقد أنه كان لكل أمير يخرج فى صحبه السلطان بازدارية
وحواندارية أيضا ، يهتمون بطيوره .

وإذا خرج السلطان للصيد بالكلاب ، فكان يصحبه طائفة
من الكلابزبة وهؤلاء كانوا كثرة فى مصر حتى أصبحوا طوائف
متعددة بلغوا خمسين جوقة واتخذت لها موضعا بالجبل ، وقد أمر
أحد السلاطين بالغائها فيما عدا جوقتين ، كما سبقت الإشارة الى
ذلك .

كما كان هناك حراس خصوصيون ، يختصون بالفهود المدربة
التى كان يجرى الصيد بها أحيانا ، ففى جمادى الاولى سنة ٩٢٢هـ
شاهد فى الموكب الرسمى للسلطان الفورى أربعة أشخاص
يتقدمون الموكب وهم راكبون الخيول وخلف كل منهم فهد .

وكان المكان الذى يجتمع فيه السلطان مع هواة الصيد يعرف باسم « الشكار خاناه » ويكون به عدد وافر من جوارح الطير .

ومن الوظائف المتعلقة بالصيد كذلك ، وظيفة حارس الطير أو كاشف الطير الذى كان يشرف على أماكن نزول الطيور المزمع صيدها ، وعليه مراقبة الطيور التى يقوم السلطان بصيدها حتى تستقر فى مكان تألفه ، وبحظر على الناس القرب منها أو التعرض لها ، وكان صاحب هذه الوظيفة يختار من بين أمراء العشرات .

وهناك وظيفة أخرى متعلقة بالصيد ، وخاصة الرمى بالبندق ، يتولاها موظف خاص يسمى البندقدار (٢٢) . كان يصحب السلطان فى سرحاته ، ومهمته أن يحمل جراوة البندق خلف السلطان ، وسبقت الإشارة الى أن العمل قد يقوم به شخصان فى بعض الأحيان .

هذا الى جانب وظائف أخرى عامة ، كان لها اتصال بالصيد أو الاعداد له بشكل عام ، لعل أهمها وظيفة الاستادار (٢٣) ، وهو الذى كان يشرف على تموين سرحة السلطان وتوفير متطلباتها .

وكان موكب الصيد يضم فى السـرحات الطويلة الاطباء وغيرهم مثل الكحالين والجرايحية ، كما كان هناك أيضا من يكلفون بمعدات الصيد ، مثل الخيام التى كانت تعرف بخيام الصيد وهؤلاء هم الفراشون ، الذين ينصبونها فى أماكن الصيد ، ويشرفون على خيام السلطان ومماليكه ، وكذا على خيام الحريم من الزوجات والجوارى اللاتى قد يصحبن السلطان فى سرحاته .

وكانت أماكن الصيد عبارة عن أحواش عديدة تنتشر فى أنحاء البلاد ، ويشتمل كل منها على شباك وصيادين مهرة يقومون بالصيد فى حضرة السلطان .

وقد كان للحرس السلطاني أثناء السرحة أهمية خاصة في حراسة خيمة السلطان أثناء الليل ، وكانت الطبول والكوسات تُلَف حول الخيام ولاسيما خيمة السلطان .

والحق أن اهتمام السلاطين والأمراء وكذا كبار رجال الدولة برياضة الصيد وشغفهم به قد تجلّى بوضوح من خلال التحف الإسلامية التي خلفها ذلك العصر فقد حرص الفنانون بشكل عام على تسجيل بعض الصور لهذه الرياضة على منتجاتهم الفنية .

ومن هذه الأعمال ، تلك التحفة المعدنية التي تزينها رسوم صيد بالفهد ، وهي عبارة عن طشت من النحاس المكفت بالفضة محفوظ بمتحف اللوفر بباريس ، يعرف بمعدانة سانت لويس ، لأنه استعمل في تعميد لويس الثالث عشر ثم نسب الى لويس التاسع ملك فرنسا ، الذي قيل انه أحضره اليها عند عودته من الحروب الصليبية ، وهذا الطشت من صناعة مصر في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

وقوام زخرفته مجموعة مناظر مختلفة من البلاط المملوكي للصيد والقتال والحياة اليومية ، من بينهما رسوم لمجموعة من الصيادين يحمل ثلاثة منهم الباز ، على حين يمسك الرابع بمقود فهد في يده اليمنى وكما سبقنا الإشارة فانه يفهم من المصادر المملوكية أن سلاطين المماليك اقتنوا الفهود من أجل الصيد بها ، كما عينوا لها الفهادة لحراستها والإشراف عليها ، وأقام هؤلاء بالقاهرة في حي خاص بهم ، فيما بين الجوانية والمناخ عرف بخط الفهادين نسبة اليهم .

ويتجلى اهتمام المماليك بالصيد كذلك من خلال تلك النصوص الأدبية التي عرفت برسائل الصيد ، وكذا مكاتبات السلطان الى الملوك الأجانب تتضمن وصفا لركب السلطان وهو في الصيد وقد أورد من هذه الرسائل تختص برمي البندق عرفت الرسالة الواحدة

منها باسم مقدمة أى قدمات البندق ، وهى تصف الرمى بالبندق ،
وأحوال الرماة واصطلاحاتهم فى هذا المجال ، وأسماء الطيور ،
وكذلك وصف حركة الطير والمطاردة التى تقع بين الصيادين ،
ووصف الطبيعة واللهو الذى يصاحبهم فى تلك الأوقات السعيدة
التي يقضونها فى الصيد .

كما توجد مؤلفات فى الرمى بالبندق مثل كتاب « هداية
الرامى الى طريق المرامى » (فى علم الرمى بالبندق) ، أوضح فيه
مؤلفه ما عليه أهل هذا الفن وقواعده ، وحلاله وحرامه ، مما يدل
على أهمية الرمى بالبندق فى ذلك العصر وقد قسمه صاحبه الى
عشرة أبواب يدور معظمها حول الرمى بالبندق وما يتعلق به .

أما عن رسائل الصيد ، فلدينا رسالة أوردها القلقشندى أيضا
وهى تصف إحدى رحلات الصيد للسلطان قلاوون ، كتبها تاج
الدين البارنبارى .

والحق أن رسالة البارنبارى قد أعطتنا صورة واضحة لرحلات
الصيد وآلاته وأسماليه . وهى صورة تمثل بوضوح هذا الجانب
من حياة الممالك ، فهى توحى بما كان عليه الأمر فى سائر رحلات
الصيد فى ذلك العصر ، حيث أنها تشير الى أوقات الصيد وإلى
موكب السلطان وخروج الدهليز السلطانى ، وكذا خيام الأمراء ،
كما تصور أيضا أنواع الصيد أى طرقه وعدة كل نوع وآلاته ،
فأشارت الى صيد الطيور وما يلزمه من الصقور والبزاة والشواهيـن
وكذا صيد الوحوش وما يلزمه من الخيل والفهود ، وكلاب الصيد
التي عرفت بالحوامى ، كما أفاضت تلك الرسالة فى وصف أدوات
الصيد من طيور وخيل وفهود وحوام ، كما تنقل صورة حية لمعارك
الصيد وجولاته ، حتى إنك إن يراها بعينه ويسمع ضجيجها
وصهيل خيولها .

على أنه كانت هناك رحلات أخرى للصيد كان يستخدم فيها
البندق كأداة للصيد ، يخرج فيها السلطان وبعض الأمراء • وقد
لايطول بهم المقام الا يوما أو بعض يوم ، وكل مائديهم من أدوات
الصيد هي القسي والبندق •

ولدينا رسالة عبارة عن إحدى قدمات البندق تصف رحلات
الصيد هذه تشير الى شرف رياضة الصيد ونبلها ، ثم وصفا
للأمراء الذين خرجوا للصيد ومعهم قسيهم وبندقهم •

وما دمنا في مجال الحديث عما كتب حول الصيد في العصر
المملوكي فان من المفيد أن نرى الصيد أيضا في شعر ذلك العصر •
ونلاحظ أن رسائل الكتاب في الصيد قد امتزجت بأشعارهم فيه ،
كما فعل الشهاب محمود ، كما نجد أن بعض الشعراء يقدمون في
رسالة نثرية لوصف البندق ويجعلون منها تمهيدا لأشعارهم التي
تقيد - لاشك - في معرفة أنواع الطير التي كان يصيدها
الأمراء (٢٤) •

ورغم هذا ، فان نصيب الشعر المملوكي في التعبير عن هذا
الجانب يعتبر قليلا ، فالصيد - كما ذكرنا - رياضة الممالك ، وهم
الطبقة الارستقراطية المنعزلة عن الشعب ، بينما كان الشعراء في
ذلك العصر أكثر ارتباطا بطبقات الشعب ، ومع ذلك فقد أسهم
الشعراء الذين شاركوا في بعض رحلات الصيد بنصيب في وصفها
ولدينا بعض الأبيات لسراج الدين الوراق في وصف رحلة صيد
للملك الصالح علاء الدين (٢٥) •

وهكذا كان الصيد رياضة محببة عند الممالك ووسيلة ترفيهية
مفيدة مارسها السلاطين والأمراء بل شاركت طوائف أخرى من
الشعب في هذه الرياضة التماسا للترويح ، والترفيه بتلك الوسيلة
المشروعة •

هوامش الفصل الثانى

- (١) البازدارية أو البزادرة ، وعفدها البازدار ، وهى كلمة فارسية يقصد بها من يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد ، وخص بإضافته الى الباز الذى هو أحد أنواع الجوارح دون غيره لانه هو المتعارف عليه .
(انظر ، ابن تغرى بردى . المنهل الصافى ، ج ١ ، ص ٦١٨ ، حاشية ٥) .
- (٢) الرطانة ، بلدة وامعة على الشاطئ الغربى لفرع رشيد ، بينها وبين القاهرة نحو أربعين ميلا .
- (٣) هليب ، هو وادى المنطرون .
- (٤) تروجة ، وصفها ابن بطوطة فى كتابه الرحلة بانها قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ولاهلها مكارم أخلاق ومروءة ، وهى على مسيرة نصف يوم من الاسكندرية (ابن بطوطة ، رحلة ، ص ٢٧) .
- (٥) السدير ، هو الوادى الذى يعرف بوادى الطميلات نسبة الى جماعة من العرب يعرفون بالطميلات ، ومكانه على حدود مصر الشرقية .
(ياقوت ٢ معجم البلدان ، المقرئى ، الخطط ج ١ ، ص ٢٣٢) .
- (٦) العباسية ، هى قرية من الجهة الشرقية لمصر وفى أول حدود الصحراء الفاصلة بين مصر والشام ، بنيت سنة ٢٨٢هـ ، وسميت كذلك نسبة الى العباسية بنت احمد بن طولون وكانت فى ذلك الوقت أول قرية يلقاها القادم من الشام الى مصر بوادى السدير . (ياقوت معجم البلدان المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٣٢) .
- (٧) البغلطاق ، و البغلوطاق - لفظ فارسى ، وهو قباء بلا أكمام او ياكمام قصيرة جدا ، يلبس تحت الفرجية ، وكان يصنع من القطن

البعلبكى الابيض ، أو من السنجاب أو الحرير الملامع ، وكثيرا ما يزين بجواهر ثمينة (المقريزى ، السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٨٤ ، حاشية ١) .

(٨) الكلابيرية ، جمع كلابيرى وهو الشخص الذى يركب بكلاب الصيد عند السلطان أو الامير (انظر السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ ، حاشية ١) .

(٩) وطنان ، من اعيان قرى مصر ، قريبة من الفسطاط ، ذات بساتين (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٣٩ وذكرها ابن دقماق ضمن اعمال القليوبية (الانتصار ، ج ٥ ، ص ٤٩) .

(١٠) جزيرة القط ، ذكرها محمد رمزى انها هى التى تعرف اليوم باسم جزيرة البدرشين بمركز الجيزة ، محافظة الجيزة (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الاول ، ص ٢١١) .

(١١) دلنجة ، ذكر ابن الجيعان (التحفة السنية ، ص ١٢٦) ان دلنجة من اعمال البحيرة وكذا ابن دقماق فى (الانتصار لواسطة عقد الامصار ، ص ١٠٦) وان كانا قد اختلفا فى مساحتها فقال الاول انها تبلغ ٩٧٣ فدانا فى حين ذكر الثانى انها ١٠٨٨ فدانا ، كما ذكر محمد رمزى ان قرية دلنجة القديمة هذه اندثرت وقامت على مقربة منها قرية (مركز) الدلنجات المعروفة بالبحيرة (القاموس الجغرافى ج ٢ ق ٢ ، ص ٢٦٠ ، القسم الاول ، البلاد المقدسة ص ٢٤٩) .

(١٢) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٩ ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ، المقريزى السلوك ، ج ٣ ق ٢ ، ص ٧٢٦ ، ٧٨٧ . والمقصود مطعم طيور الصيد وكان يقع الشمال الشرقى لخانقاه السلطان برقوق فى صحراء الريدانية (ابن اياس بدافع الزهور ، ج ٢ ، ص ٩٧٦ ، ابو المحاسن ، حوادث الدهور ، ص ٣٨٠) .

(١٣) ذكر ياقوت ان الدشت بليدة وسط الجبال بين أربل وتبريز ، وان اهلها من الاكراد (معجم البلدان) وقبل انها صحارى فى جهة الشمال وتضاف الى القبجاق وتنطبق حدودها على التركستان الروسية والقوقاز وقازان الحالية الى نهر الفلجا غربا الى بسارابيا على حدود رومانيا (أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢١٧ ، ماجد اطلس التاريخ الاسلامى ، ص ٢٢ ، عقد الجمان تحقيق ونشر ، عبد الرازق القرموط ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ١٦٢ حاشية ٤) .

(١٤) أوسيم او وسيم . من المدن القديمة من اعمال مركز امبابة غرب النيل دون الجيزة (محمد رحى ، القاموس الجغرافى . ج ٣ ق ٢ ، ص ٥٧) .
(١٥) المحمودى . نسبة الى محمود شاه اليزدى الذى اشتراه وباعه بالقاهرة .

(عقد الجمان ، تحقيق ونشر عبد الرازق القرموط ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ١٦٠ حاشية ٢) .

(١٦) بركة الحاج ، كانت تقع فى الجهة البحرية من القاهرة ، وكانت تسمى أولا بجب عميرة ثم سميت بارض الجب ، وهى فى طريق الحاج ينزلون بها وكانت تنسب الى عميرة بن تميم اللخميى صاحب الجب بها ، وقد صارت هذه البركة متنزها وللصيد يقصدها السلاطين والامراء (المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٨٣) .

(١٧) يقصد بهم حملة البزاة اناء الصيد ، (انظر ، القلقشندي ، صبح الاعشى ج ٥ ، ص ٤٦٩) .

(١٨) البندق كلمة فارسية ، تعنى الرصاص او الطين او الحجر (انظر ، ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ١٣٥) كما أطلق على البندق المصنوع من المعدن لفظ الخردة ، وتعنى كرات المعدن التى تستخدم فى الصيد (المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ق ١ ص ٦٥ حاشية ٤) .

(١٩) التجريدة ، غرقة من العسكر تشترك الخيالة فيها - وقيل الجريدة هى الخيالة لا منساة فيها (المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٠٦ ، حاشية ٨) .

(٢٠) شكار ، لفظ فارسى بمعنى الصيد ، فيكون المراد : امير الصيد ، وقيل ان رتبة صاحبها امير عشرة (القلقشندي ، صبح ، ج ٥ ، ص ٤٦١) .

(٢١) البازدار ، هذا الاسم يتركب من كلمتين ، أولاهما : الباز وهو احد أنواع الطيور الجوارح ، والثانية . دار بمعنى ممسك فيكون البازدار هو حامل الطير الجارح .

(٢٢) البندقدار ، تتركب من كلمتين أحدهما بندق ومفردهما بندقية والثانية دار بمعنى ممسك ، فيكون البندقدار هو حامل البندق (القلقشندي ، صبح ، ج ٥ ، ص ٤٥٨) .

(٢٣) الاستادار ، هو المتحدث فى أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ
والشراب خاناه والحاشية والفلمان (انظر ، القلقشندى ، صبح ، ج ٤ ،
ص ٢٠) .

(٢٤)

فتارة كنت أصيد القسيرا ويعسده العقاب يحكى الجمرا
والكى والكركى صدت جهرا وصدت غرنوفا وعثزا فهرا
وكنت بالاوز فى انشراح

وتارة تما كيدر التيم تتبعه أنيسة كالنجم
ولغلغ أسود مل الهم وجبرح عن الرماة محمى
والضوع مع سبيطر سياح

وكم وكم قد صدت يوما مرزما انزلته بالقوس من جوالسما
جناحه يحكى طرازا معلما على بياض شبه شبه الدما
كأنه ليل على صباح

حيث الصبا تشفع بالقبول وشملنا يجمع بالشمول
فى مجلس ليس به فضولى وجاءنا التوقيع فى الوصول
فسادكم يغفر بالصلاح

(انظر ، فوزى محمد أمين ، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى
ص ، ٣٢٣ ، ٣٢٤) .

والملاحظ فى الخمسة الاخيرة ، يورى الشاعر فى كلمة « الوصول »
فهو يقصد ايصالات الهبات ، وكذلك فى كلمة الصلاح اذ يقصد صلاح الدين
المحيوى صاحب رحلة الصيد .

وقال الشهاب المنصورى فى الطواشى شاهين غزالى الظاهرى الرومى
« وكان بارعا فى الجمال ، حسن الشكل وافر العقل والادب » .

قد صاغك الله من لطف ومن كرم وزاد حسنك بالاحسان تزيبا
فاخفض جناح الرضا واصطد طيور دما من جراء اخلاصنا ان كنت شاهينا
(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٦) .

وكانت الاجادة والتفوق فى الصيد يشدان انتباه الشعراء ويثيران قرائحهم الشعرية حتى اننا نجد الشاعر : بهاء الدين ابو الحسن على بن محمد صاحب ديوان الانشاء يحلب (ت رجب سنة ٧١ هـ) • يقول نظما فيمن رمى فى وقت واحد نعاذة ونسرا وغزالا •

عجبا رأيت وما سمعت بمثلـه بطلا من الاتراك فوق سهمه ودنا الى نحو النعامه راجيا فاتاه تسر طائر من ذوقـه فرماه سهما متكيا فى نحره واتى الغزال وقد تيقن أنه وهوى الثلاثة قادرا بسعادة	فى عصرنا هذا ولا فى الاول يستعجلا من فوق طرف هيكـل أن سوف يدركها وأن لم يعجل مترقع سهم الحمام المرسل ورمى النعامه ثانيا فى القتل نجاح فاصماه بسهم فيصل حكمت له بسيادة وتوقـل
---	--

(انظر ، الحسن بن عمر ، تذكرة النبیه فى أيام المنصور وبنیه ، ج ٢ ص ٥٩ ، ٦٠) •

(٢٥) يقول الشاعر سراج الدين الوراق :

عزيمة صبح فالحها بالنجاح من فهود ومن صقور حداها ارسلتها سعادة الملك الصالح ملك ضرج الثرى بدماء كل يوم من صيده عيد نحر	بين ذى مقلب وذات جناح يملها فى غدوها والرواح فاستقبلت وجوه الصالح حملت رنكها خدود الصالح فى وهوش وفى عدى كالأضاحى
---	---

(انظر ، فوزى أمين ، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى ص ٣٢٤ ، نقلا عن منتخب الوراق ، ص ٢٧٥) •

* * *

الفصل الثالث

ألعاب الكرة . . والسباحة . . والألعاب الأخرى

أولاً : ألعاب الكرة : (البولو)

(شغف السلاطين المماليك بها - مظاهر الاهتمام باللعبة - ألعاب الكرة كمظهر من مظاهر العظمة - أدوات لعب الكرة ووظائفها - موكب السلطان للعب الكرة - طريقة لعب الكرة - حوادثها وأخطارها - أرسناتقراطية لعب الكرة (البولو) - شروط اللعبة - مشاركة الخلفاء العباسيين فيها - أجادة الأمراء لها - لعب الكرة عند الشعراء والأدباء والفقهاء) .

ثانياً : السباحة :

شغف السلاطين بها - دور نهر النيل فى هذه الرياضة .

ثالثاً : الألعاب الأخرى :

(سباق الخيل - المصراع أو المصارعة - المبارزة والتحطيب أو المطروق - الملاكمة - المعالجة أو رفع الأثقال - اللعب بالطيور وتطير الحمام - المناقرة بالديوك وصياح السمان - المناطحة بالثيران والكباش - اقتناء الحيوانات وترويضها - ألعاب الأدبابة والقرادة والحواة والبهلوانات - مواضع المتنزهات والتريض والخروج إليها) .



ألعاب الكرة (البولو)

من الألعاب التى كانت شائعة عند العرب لعبة « الكجة » وكان قوامها كرتين من الخرق يلعب بهما واشتق من اسمها فليل : كج أى

لعب الكعبة كما عبروا عن وسائل اللعب بالكرة بأفعال مثل « قفط الكرة » أى خطفها « وتجاحفوا الكرة » أى تخاطفوها أيضا أو بمعنى دحرجوها بالصوالجة ومفردها (صولجان) (١) ، وهو العصا التى تضرب بها الكرة .

وتشير المصادر الى أن لونا من العاب الكرة كان موجودا فى مصر قبل الاسلام حين دخلها عثمان بن عفان وعمرو بن العاص قبل الاسلام حيث كان القبط يجتمعون فى الملعب بالاسكندرية فى يوم معلوم من السنة ، ويرمون بالكرة ويقال كانت هذه الكرة من الذهب مكللة بالؤلؤ والياقوت ، وكانوا يلقفونها بأكماسهم ، فمن سقطت فى كفه لم يمت حتى يملك مصر ، ومرة هوت الكرة فى كم عمرو بن العاص واستقرت به فتعجب القبط من ذلك واستبعدوا ان يحكم هذا الأعرابى مصر .

ومن المعروف أن ذلك قد تحقق لعمرو بن العاص عندما فتح مصر فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب وربما كان ذلك محض صدفة ولكن تلك الرواية على أية حال تشير الى وجود نوع من العاب الكرة فى مصر فى ذلك الوقت ، كما توضح اقبال الناس على مشاهدة هذه الالعاب والتلهى بها حتى كانوا يقدرون بالألوف .

كما أنشأ هارون الرشيد لهذه اللعبة ميدانا بجانب قصره ، وقد أولى سائر الخلفاء العباسيين تلك اللعبة عناية كبيرة ، فأعدوا لها الملاعب الضخمة ونظموا المباريات الحافلة وشاركهم فى ذلك الوزراء وسائر عظماء الدولة .

كذلك كان من أشهر من أغرموا بتلك اللعبة أحمد بن طولون الذى شيد لها ميدانا خارج قسطنطينية مصر ، وكان الوزير شاور

يعتبر من أجل وزراء الدولة الفاطمية وأجودهم لعبا بالكرة ، وكذا كان نجم الدين والد صلاح الدين الأيوبي ونور الدين زنكي والملك الكامل الأيوبي مغرمين بلعب الكرة فجدد الأخير ميدان ابن طولون كما أنشأ لها الملك الصالح نجم الدين أيوب ميـدانا على شاطئ النيل بأرض اللوق كان يسمى بالميدان الصالحى « وصار يركب إليه ويلعب فيه بالكرة » .

ومضمون هذه اللعبة أنها كانت عبارة عن كرة كبيرة من مادة خفيفة كالفلين ونحوه ، تلقى على الأرض ويتسابق الفرسان راكبين فى المتقاطعا بالصولجان أو الجوكان فمن سبق منهم الى اصابتها وارسالها فى الهواء كانت له الغلبة .

ويبدو أن تلك اللعبة قد استمرت على نفس الهيئة فى عصر سلاطين المماليك وهو ما سنوضحه فيما يلى .

وقد شغف سلاطين المماليك بلعبة الكرة بدرجة كبيرة ، حتى اننا نجد مظاهر كثيرة من حياتهم تدل على الاهتمام بها ، نعرض لها فى الصفحات التالية حتى ان المعز ايبك (ت ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م) - أول السلاطين المماليك - كان له شغف بهذه اللعبة ، ففي ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م « نزل المعز من القلعة ، ولعب بالكرة فى ميدان اللوق ، وصعد آخر النهار الى القلعة ، والأمراء فى خدمته ٠٠ (٢) » .

ومن مظاهر اهتمام السلاطين المماليك بهذه اللعبة أيضا حرصهم على انشاء الميادين ، كميدان الظاهري الذى شيده السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى بطرف أراضى اللوق ، ومازال يلعب فيه بالكرة وهو ومن أتى بعده من ملوك مصر حتى سنة ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م حيث قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بهدمه بسبب بعد النيل

عنه ، وجعله بستانا حمل اليه من سائر أصناف الشجر من دمشق وغرسها فيه . ويؤثر عن السلطان الظاهر بيبرس أنه كان خفيف الركاب طوال أيامه راكبا على الهجن ، حتى أنه كان يلعب الكرة في الأسبوع يومين يوما بمصر ويوما بدمشق .

وكان الظاهر بيبرس اذا ركب للعب الكرة يجهز بالجففة وهما اثنان من أوجاقية اصطبله متقاربين في السن عليهما قباءان أخضران من حرير بطراز زركش ، وعلى رأسهما قبعتان من زركش كذلك ، وتحتهما فرسان أشهبان برقبتين وعدة نظير ما يركب به السلطان كأنهما معدان لركوبه ، ويركبان أمامه في أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة في الميدان الكبير .

كما أنشأ الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤١ م) الميدان الناصري في أراضي بستان الخشاب فيما بين مدينة مصر والقاهرة للعب الكرة وكان يركب دائما أيام السبت حتى في شدة الحر بعد وفاء النيل مدة شهرين من السنة (٢) . كما أنشأ أيضا ميادين أخرى برسم لعبة الكرة منها ميدان القلعة (٣) الذي أجرى له الماء وغرس فيه النخيل والأشجار ولعب فيه بالكرة - حيث كان يجيد لعبها - وقد عمر فوق هذا الميدان القصر الأبلق (٤) .

وجدير بالذكر أن هذا الميدان قد أنشئ فوق بقايا ميدان أحمد بن طولون الذي جده محمد بن العادل الأيوبي سنة ٦١١ هـ / ١٢١٥ م واهتم به الملك المعز أيك حتى بدأ الملك الناصر محمد في عمارته سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م ، ولعب فيه الكرة يومي السبت والثلاثاء مع الأمراء والخاصكية وأولاد الملوك ، وأنشئت من أجل هذا الميدان قنطرة الخرق على الخليج الكبير ، ليجتازها السلطان عند ذهابه الى الميدان ، وقد حرف العامة هذا الاسم

فصار يطلق على ذلك الموضع باب الخاق ، وهو الذى يعرف اليوم
بميدان أحمد ماهر .

وأنشأ الناصر أيضا ميدان المهارى سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م
بالقرب من قناطر السباع فى بر الخليج الغربى ، ولعب فيه الكرة
مع الخاصكية وكذلك أنشأ ميدان سرياقوس شرقى ناحية سرياقوس
بالقرب من الخانقاه ، وكان يتوجه اليه فى كل سنة ، ويقيم به
أياما ويلعب فيه بالكرة ، واستمر هذا التقليد قائما بعد وفاته الى
أن أبطله الظاهر برقوق فى سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م ، كذلك لعب
السلطان كتبغا الكرة بدمشق ، كما تعود السلاطين الركوب للعب
الكرة وهم فى أبهة الملك حيث كان الأمراء والأجناد يمشون بين
أيديهم وكان أول ركوب الظاهر بيبرس لهذا الغرض فى صفر سنة
٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م حيث استمر بعد ذلك يتسابع الركوب واللعب
بالكرة .

وفى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م أمر السلطان بعمارة الدور فى
أرض اللوق لينزل فيها طائفة التتر المستأمنين الوافدين من الشام ،
ثم خرج السلطان للقائهم بنفسه ومعه العسكر فلم يبق أحد حتى
خرج لمشاهدتهم وحملت اليهم الخلع والإخيول والأموال ، وركب
السلطان الى الميدان وأركبهم معه للعب الكرة وأعطى كبراءهم
امرات .

على أن السلطان الظاهر بيبرس عندما أراد أن يبنى جامعاً
له ، أرسل بعض الأمراء (٥) ، ليكشفوا له مكاناً لذلك بالحسينية
فساروا اليه وأخبروه عن مكان مناخ الجمال السلطانية ، ولكن
السلطان قال : « لا والله لأجعلت (لا أجعل) الجامع مكان الجمال ،
وأولى ما جعلت ميدانى الذى لعب فيه الكرة وهو نزهتى جامعاً .

فرتب بناء الجامع في ميدان قراقوش وأوقف بقية الميدان عليه
والمعروف أن هذا الميدان كان لقراقوش الأسدي أيام الدولة الأيوبية
ثم استعمله الظاهر مدة من الزمن ميدانا للعب الكرة والرمى الى
أن بدا له بناء هذا الجامع فبناه فيه ، والمقصود بهذا الجامع ، هو
الجامع الظاهري الذي مازال قائما حتى الآن يشهد بعظمة العمارة
الملوكية .

ويبدو أن بعض السلاطين كانوا يتخذون من لعب الكرة فرصة
لتطبيب خاطر أمرائهم ، وكان اشراكم معهم في لعب الكرة دليلا
على المنة عليهم والرضا عنهم ، حتى ان السلطان الظاهر بيبرس
عندما أطلق الأمير سيف الدين قليج البغدادى المستنصرى من
الاعتقال « من عليه وأذن له في لعب الكرة معه » .

وحدث أن تغير خاطر السلطان الأشرف قايتباى على الأمير
خاير بك الأشرفى وأمره بلزوم داره فلزمها أياما لا يركب فيها ، ثم
بعث السلطان خلفه الى ضرب الكرة فطلع الى القلعة وضرب الكرة
واتفق أن صولجان السلطان سقط من يده فقرجل خاير بك عن فرسه
وناوله للسلطان ، فأخلع عليه وأركبه فرسا من خيوله ونزل الى
داره مكرما .

وحدث أيضا أن أضاف السلطان قايتباى الملك المنصور عثمان
بالبحرة وأخلع عليه وأذن له بأن يلعب معه الكرة ، فلعب مع الأمراء
المقدمين وهو « ببند أصفر مثل السلطان » وقد بالغ السلطان في
تعظيمه .

كما يبدو أن سلاطين المماليك كانوا يتخذون من لعب الكرة
مظهرا للقوة والعظمة ، وأبهة الملك حتى انهم كانوا يشركون قصادهم
من البلاد الأخرى ورسل الملوك في اللعب معهم بالكرة امعانا في
اظهار حسن الترحيب والضيافة لهم .

بل بلغ الأمر بأحد السلاطين أن لعب الكرة في الميدان ومعه
الأمراء على جرى العادة « وكان السلطان مخصتكا في جسده فلم
يضرب الكرة الا ضربا هينا حتى يقال ان السلطان ضرب الكرة في
هذه السنة (٦) » .

وذلك يوضح مدى حرص السلاطين على افتتاح موسم لعب
الكرة بأنفسهم وظهورهم بمظهر القوة والسلامة أمام الرعية ،
لأشياء الا ليقال ان السلطان ضرب الكرة كعادته . ولعل مما يؤيد
هذا الرأي أيضا أن السلطان الأشرف قايتباي لما بدأ يتسوّع في
شوال ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م « وظهرت عليه أشاير الموت ، فضرب
الكرة في هذه السنة ضربا هينا ، بالنسبة لما كان عليه قبل ذلك
من القوة » .

ولم يقتصر لعب السلاطين للكرة في ميادين القاهرة أو
ضواحيها وإنما كانوا كذلك يلعبونها في ظاهر الاسكندرية ، فقد
دخل السلطان بيبرس الاسكندرية في صفر سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م
وخلع على الأمراء وحمل اليهم التعابى والنفقة ولعب الكرة ظاهر
الاسكندرية وتوجه الى الحمامات ونزل بالليوننة وأتباعها . كما أن
السلطان الأشرف قايتباي لعب الكرة في أرض فضاء في الاسكندرية
على ساحل البحر ولعب معه الملك المؤيد والأمراء وأقاموا في مخيم
نصب هناك ثلاثة أيام .

وفي ذى الحجة من سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ركب السلطان
الغورى وضرب الكرة على ساحل البحر الملح هو والأمراء الذين
كانوا بصحبته أثناء سيرحته هناك .

وقد عنى سلاطين المماليك بألعاب الكرة عناية كبيرة ، حتى
أنهم أعدوا لها ما يلزمها من خيول وأدوات ، كما خصصوا لها

موظفين من الممالك للاشراف عليها يسمى الواحد منهم الجوكندار ،
أى الذى يحمل الجوكان او المحجن الذى تضرب به الكرة ، وكان
شعار هذا الأمير الخاص به عبارة عن عصوين ، يلعب بهما
السلطان الكرة .

ويوجد بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة صحن من الخزف
الملون تحت رقم ٥٢٧٢ وزخارفه مرسومة بالألوان الأزرق الغامق
والأسود والرمادى والبني على أرضية بيضاء ، وعليه فى الوسط
صورة طائر يحيط به شريط من زخارف نباتية يتخلله رنك به شارة
عصوى البولو ، وهذا الصحن ينسب الى القرن الثامن الهجرى /
الرابع عشر الميلادى .

كذلك كان هناك الأوجاقية المسمون جفتاوات الذين يكونون فى
خدمة خيل السلطان التى كان يخصص لها قسم خاص من الاصطبل
السلطانى يعرف باصطبل الحجرة (٧) ، حيث كان ينتخب منها
الخيل الخاصة بلعب الكرة ، وكان للاصطبلات السلطانية ادارة
خاصة عرفت باسم « الركابخاناه » يحفظ فيها عدد الخيل من
السروج واللجم والكنابيش ، وغير ذلك من نفائس العدد والمراكيب
حتى انها كانت تحتوى مايلزم ثلاثة آلاف فرس ، وتجهيزها بشكل
كامل .

ويعتبر اهتمام الممالك بالخيل واصطبلاتها بصفة عامة ،
والخيول التى تستخدم فى لعب الكرة بصفة خاصة ، دليلا على
ما كانت تمثله مواكب الرياضة من أهمية بالنسبة لهم والتى يتوجه
فيها السلطان للعب الكرة أو الأكرة حتى انهم جعلوا لعبها من رسوم
الدولة - كما سبقت الإشارة الى ذلك - فقد حدث أن السلطان الناصر
محمد كان يفرض لعبها على أمراء الممالك يومى السبت والثلاثاء
من كل أسبوع .

ن عادة السلطان أن يخرج فى مركب لعب الكرة على
التي كان يخرج فيها لصلاة العيدين(٨) ، ما عدا
لظلة « ربما دلالة الانطلاق » وتحمل الفاشية أمامه فى
آخره ، ويتوجه الى الميدان .

من عادة السلاطين المماليك كذلك تخصيص موسم فى
السلطان فيه مع بعض الأمراء فى لعب الكرة ، وقد
يسيقى والمغنى أثناء اللعب . كما كان من عاداتهم
خروج للعب الكرة ، أن يفرقوا حوائص من ذهب على
المقدمين .

طريقة لعب الكرة فى الميدان أن ينقسم أمراء المماليك
بكون السلطان على رأس أحدهما ، وعلى رأس الآخر
، ويكون لعبها من الظهر حتى العصر ، ويقام السمات
فى الميدان ذاته حيث تقام خيمة كبيرة وعدة صواوين ،
أن ينعم بالخلع على المشتركين فى اللعب وعلى
أتباعه حتى لقد بلغ ماخلعه أحدهم فى يوم واحد ،
كرة ، ألفا ومائتى تشريف .

ساهد الرحالة تافور (Tafur) الذى زار مصر
، الجراكسة أحد سلاطين المماليك وأمراءه وهم يلعبون
فى الميدان الفسيح الذى لعبوا فيه بأنه كان مقسما
طوط بيضاء ، وعلى جانبيه عدد كبير من فرسان المماليك
عصا طويلة ، وفى وسط الميدان كرة ويكون اللعب بأن
حريق اجتذاب الكرة الى جانبه ، والذى ينجح فى ذلك
لمبة .

سجلت لنا المتحف المملوكية بعض مناظر هذه اللعبة زمن
اليك فبالاضافة الى ما سبق ذكره منها فاننا نشير الى

بعض هذه المتحف التى تدل على اهتمام فناني ذلك العصر بتسجيل تلك الرسوم عليها ، ففي متحف الفن الاسلامى بالقاهرة توجد مشكاة باسم الأمير الملك ، ترجع الى حوالى سنة ١٣١٩هـ / ١٣١٩م عليها كتابة باسم هذا الأمير تتخللها ثلاثة رنوك بها شارة عصوى البولوى (شارة الجوكندار) .

كما توجد أيضا بنفس المتحف جلود كتب ايرانية ومخطوطات بها صور توضيحية ، واحدى هذه المخطوطات برقم (١٣٧٢٧) لـديوان الشاعر حافظ الشيرازى مؤرخ سنة ٩٣٩هـ / ١٥٣٢م ويحوى احدى الصور التوضيحية وتمثل منظر لعبة البولوى ، يظهر فيه الفرسان على ظهور جيادهم ويأيدىهم عصى البولوى الطويلة يحاولون بها ضرب الكرة .

ولعل فى هذا مايدل على انتشار هذه اللعبة فى العصور الوسطى حتى خارج حدود دولة سلاطين المماليك .

هذا وقد جرت العادة أن يقدم المهزوم فى اللعب وليمة حافلة ربما وصلت تكاليفها مائتى الف درهم لكثرة ماينبح فيها ، وفى بعض الاحيان كان السلطان يتحمل نفقات هذه الوليمة وان كان هو الغالب ، وذلك تخفيفا عن المغلوب ، كما حدث من السلطان الظاهر برقوق فى يوم السبت الثانى عشر من ذى القعدة سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٨ م ، حيث عمل مهما عظيما بالميدان تحت القلعة بسبب لعب الكرة على العادة ، وكان المغلوب هو الأمير ايتمش ، والتزم ايتمش بعمل مهم بمائتى الف درهم لكونه غلب فى اللعب فقام السلطان عنه بذلك ، والزم به الوزير بدر الدين محمد بن الطوخى ، والأمير يابغا الاستادار . ونصبت الخيم بالميدان وعمل المهم على نفقة السلطان .

وجدير بالذكر أن كثيرين من سلاطين الممالك وكذلك الأمراء قد تعرضوا للاخطار أثناء ألعاب الكرة ، فأصيب بعضهم إصابات بالغة ، وفقد بعضهم حياته لهذا السبب ، ففي سنة ٦٧٨هـ / ١٢٨٠م توجه السلطان السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس الى الكرك ولعب بالاكرة في ميدان القلعة فتقنطر به الفرس فانكسر ضلعه ، ومات من وقته .

كما ذكر أن السلطان لاجين ركب الى الميدان ولعب بالكرة أيضا فتقنطر عن الفرس كذلك « وانكسر أحد جانبي يده اليمنى وتهشم بعض أضلاعه وانصدعت رجله وخيف عليه » . هذا وقد كبا الفرس به أيضا ذات مرة وأصيبت يده ، ولما عوفى منها ركب فدعا له الناس وفرحوا به خصوصا الحرافيش فناداه أحدهم قائلا : « يا قضيبي الذهب بالله أرنا يدك فرقع (السلطان) يده وهو ماسك المقرعة وضرب بها رقبة الفرس الذي تحته ويبدو أن تلك الحوادث كانت تجذب أنظار الأديباء والشعراء كغيرهم من الناس ، حتى أنه لما كبا الفرس بالسلطان قال الأديب محمد بن المبياعة في ذلك شعرا (٩) .

كما أن حوادث الأمراء في لعب الكرة كانت متعددة كذلك فإن الأمير دولاب باي الفلاح - أحد الأمراء المقدمين - ساق الفرس وهو يلعب الكرة في أرض محجرة فتقنطر به ومات الأمير في هذه الحادثة .

وحدث أيضا أن تقنطر الأمير قرقماس ووقع على الأرض ولكنه قام وركب .

وفي المحرم من سنة ٩١٢ هـ / ١٥٠٧ م كبا فرس الأمير طراباي رأس نوبة النوب وهو يضرب الكرة مع السلطان الغوري ،

فأصيبت يده ، ومات فرسه فأنعم السلطان عليه بفرس غيرها ،
وكذلك أغمى على الأمير نوروز أخى يشبك المدوادار أحد المقدمين ،
ونزل الى داره محمولا بسبب سقوطه من على فرسه وهو يلعب
الكرة فى الميدان مع السلطان ، وكان ذلك فى صفر من سنة ٩١٦هـ/
١٥١٠م .

ومرة أخرى انصدع كتف الأمير سودون المدوادارى رأس نوبة
النوب الذى كان يلعب الكرة مع السلطان كذلك فى الميدان فى ربيع
الآخر سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢ .

ويبدو أنه رغم تعدد الحوادث أثناء لعب الكرة فإنها كانت
تبدو فى وقتها أمورا عادية ، حتى اننا لم نسمع عن امتناع أحد
السلاطين أو الأمراء عن لعب الكرة حين يحل موسمها الا لظروف
طارئة كالاشتغال بالحروب أو الفتن ، فقد امتنع السلطان المنصور
على ابن السلطان الأشرف شعبان عن الركوب للميدان برسم لعب
الكرة لذلك السبب .

كما امتنع السلطان الصالح حاجى سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م عن
استكمال موسم لعب الكرة بسبب غرق الميدان بماء النيل ، وقد
يمتنع السلطان عن لعب الكرة أيا ما بسبب صحى عارض يلم به
كالقوانج أو غيره ، ثم ما يلبث أن يعود لممارسة هذه الرياضة بمجرد
شفائه . بل ان أحد السلاطين وهو السلطان الغورى قد أبطل ضرب
الكرة فى ربيع الأول سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م ، بسبب عارض فى
عينه ، وبسبب انتشار وباء الطاعون بين الناس « وكان غالب
الأمراء فى نكد بسبب فقد أولادهم » .

ويبدو أن هذه الرياضة المعروفة باسم (Polo) حاليا ،
كانت وما تزال حتى وقتنا الحاضر لعبة ارسنقراطية لا يمارسها

سوى الملوك والامراء وعلية القوم ، فلم نسمع أن أحدا قد لعبها من عامة الشعب فى عصر المماليك حتى الآن ، كما يبدو أيضا أنها لعبة لها خطورتها على لاعبيها ، بحيث تتطلب مهارات معينة (١٠) .

فقد كان من شروط اعادة اللعب فيها ، أن يضرب اللاعب الكرة ضربة خلسة ، ويكون ضربه مترفقا مترسلا ، وأن يكون الضرب للكرة تحت مخزم الدابة من قبل لبتها فى رفق ، وأن يستعين بسوط لا يؤثر فى الأرض بالصولجان أو يكسره أو يعقر قوائم دابته ، كما أن عليه أن يحترس أيضا من ايداء من يجرى معه فى الميدان ، وأن يحسن التحكم فى الدابة بحيث يكفها فى شدة جريانه على أن يتقى الصرعة والصدمة فى تلك الحال ، وأن يبتعد عن الغضب ويتحفظ من لقاء كرة على ظهر بيت ، وأن يتجنب طرد النظارة والجالسين على حيطان الميدان ، لأن عرض الميدان انما جعل ستين ذراعا لئلا يجال ولايصال على من جلس على خائطه .

ومما لاشك فيه أن تلك الشروط كانت محل عناية وتنفيذ من جانب اللاعبين سواء كانوا سلاطين أو أمراء ، وان كنا نلاحظ خروجها عليها فى بعض الأحيان حتى انه فى المحرم من سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٣م « وقع بين تغرى بردى ططر والاتابكى أربك ، فحنق منه فزاحمه عدة مرات وهو صابر عليه ثم حنق منه وضربه بالصولجان على ظهره حتى تكسر الصولجان عليه » ، مما جعل تغرى بردى يسب الاتابكى أربك بفاحش القول ، حتى تدخل بينهما أحد الأمراء وثنى الاتابكى أربك عنان فرسه ونزل الى داره وهو غاضب ، وبلغ ذلك السلطان الأشرف قايتباى فتنكد بسبب ذلك .

ويذكر ابن اياس واقعة أخرى مما كان يقع بين السلاطين والأمراء بسبب لعب الكرة فيقول : انه فى المحرم من سنة ٩٠٤هـ /

١٤٩٩م ضرب السلطان الناصر محمد بن قايتهباى الكرة بالحونس ، ولم يكن فى اليوم المخصص للموكب وكان معه بعض أمراء طبلخانات وعشرات ، منهم الأمير طومان باى الدوادار الثانى ، وعند اللعب صار طومان باى يقتحم على أخذ الكرة من السلطان مما جعل السلطان يحنق منه ويضربه على ظهره بالصولجان أكثر من مرة ، فكان ذلك مدعاة لحقد طومان باى على السلطان .

وتشير المصادر الى أن بعض السلاطين قد يركبون للعب الكرة فى الميدان الكبير بشاطئ النيل خمس مرات فى أيام السبت المتوالية ، على أن العادة فى ذلك كانت الركوب بعد وفاة النيل فى ثلاثة سبوت متوالية ، وقد فعل ذلك السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٣هـ / ١٣٧٢م .

وان كان الب«ض قد ركب للعب الكرة فى أيام غير محددة مثل السلطان المنصور قلاوون الذى ركب لهذا الغرض يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٢م ، ولم يتقدمه أحد فى ذلك .

« أما عن الخلفاء العباسيين بمصر فكانوا يشاركون السلاطين فى لعب الكرة ، كما فعل الخليفة العباسى الأول بمصر وهو الامام أحمد الحاكم بأمر الله مع السلطان الناصر محمد ، ومثل ذلك حدث مع الخليفة المستكفى الذى كان يلعب السلطان الكرة فى الميدان ، وجدير بالذكر أن المستكفى وأولاده كانوا يجيدون لعب الكرة .

وكان من عادة بعض السلاطين الجلوس للنظر فى المظالم فى الميدان الذى تحت القلعة أثناء الاحتفال بلعب الكرة ، إذ بنى فى الميدان بيت يرسم المحاكمات كما كان من عادتهم أيضا اصطحاب الأمراء فى لعب الكرة ، حتى كان السلطان يرسم بخروج جميع

الأمراء معه ، ولايسمح لأحد منهم بالتخلف عن ذلك الا لمن يكون خارج البلاد ، ويبدو أن كثرة مران الأمراء على هذه الرياضة واشتراكهم فيها قد أدى الى اجادتهم لها اجادة تامة ولاغرو في ذلك فهم فرسان في الأصل ، مما مكنهم من ذلك تمكينا كبيرا ، فقد ذكر في ترجمة محمد بن بكتمر بن الجوكندار (ت ٧١٠هـ / ١٣١١م) انه « انتهت اليه الرياضة في لعب الكرة ، فلم يكن في زمانه من يجاريه الا علاء الدين قطلجا ، فكانا اذا اجتمعا رأى الناس منهما العجائب وكان الناصر يكرمه ويدعوه أخى » .

كما ذكر عن بعض الأمراء أنهم كانوا يكثر من لعب الكرة ، وانهم كانوا معروفين بحسن اللعب مقدمين في ذلك « وكانوا في لعب الكرة غاية » .

وتجدر الإشارة الى أن السلاطين كانوا يحرصون على ابتداء ضرب الكرة بأنفسهم فيفتتحون بذلك موسم ضرب الكرة ، فيلعبون مع الأمراء بالميدان وكثيرا مايكون ذلك في حضرة بعض القصاد الأجانب ، وفي جمهور كبير من النظارة حيث كان لهذه الرياضة عشاقها الذين يمارسونها وعشاق آخرون يكتفون منها بالمشاهدة والاستمتاع بذلك دون ممارسة ، الى جانب حرص السلاطين على ختم موسم اللعب كذلك بأنفسهم ، حيث كان يعقب ذلك في العادة أن تمد للأمراء أسمطة حاغلة تحوى المأكلة الفاخرة والحلوى والفاكهة وغير ذلك ، ثم يتلو الأسمطة أن يخلع السلطان على الحاضرين من الأمراء والموظفين وغيرهم كل حسب قدره ، كما سبقت الإشارة الى ذلك .

ويبدو أن مظاهر البذخ في هذه الاحتفالات ماكانت لترضى كل الممالك خاصة صغارهم ، حتى أنهم كانوا أحيانا يحنقون على

السلطان وخاصته فيقومون بختف مافى السماط ونهبه ، بل تحطيم أدواته ، ربما كان ذلك بدافع الاحساس بالحرمان ، وإذا كان هذا يحدث ممن هم من جنس الممالك فلنا أن نتصور أن كيف كان حال غيرهم من عامة الشعب من عامة الشعب من المصريين !

ويثبت ذلك ماحدث مع السلطان الغورى عندما أقام بالميدان وقت اشتداد الحر أربعة أيام بلياليها « وهو فى أرغد عيش ، وأطلق الماء فى البحرة التى بالميدان ، وصار يمد السماط هناك ويأكل هو وأخصاؤه ، فشق ذلك على بقية ممالكه ، فلما نزلوا اليه بالسماط خطفوه وكسروا الصدون الصينى » .

وكما أسهم فنانون العصر المملوكى فى تسجيل هذه اللعبة على منتجاتهم فإن الشعراء أيضا لم يفتهم ذلك ، وإن كان نصيب هذه الرياضة من الشعر فى ذلك العصر محدودا للغاية رغم كثرة ماوصلنا من شعرهم بشكل عام فى المصادر الأدبية والتاريخية فلم يقع فى أيدينا سوى بعض الأبيات القليلة عن ضرب الكرة منها (١٨) .

أما نصيب ألعاب الكرة من النثر فليدنا مكاتبة أوردها القلقشندى فى صبح الأعشى ، صادرة عن ديوان الانتشاء ، وهى مرسلة الى نائب الشام بشأن طلب عصى الجواكين والكرابيج والاكرا .

وقد أشار الفقيه ابن تيمية الى هذه اللعبة فقال انها حسنة اذا كان المقصود منها المنفعة للخيل والرجال ، بحيث يستعان بها على الكر والفر والدخول والخروج ونحوه فى الجهاد ، وبغرض الاستعانة على الجهاد الذى أمر به الرسول (صلى الله عليه وسلم) أما اذا كان فى ذلك مضرة بالخيل والرجال فانه ينهى عنها .

كما ذكر السبكي أن « ما يعتاده الأمراء في هذا الزمان من لعب الكرة في الميدان حلال وينبغي أن يقصدوا به تعليم الخيل والاقبال والادبار والكر والفر » .

ولا نظن أن لعب الكرة أو الصولجان زمن سلاطين المماليك قد خرج عن هذه الأهداف كثيرا ، بحكم طبيعة ذلك العصر ، فكانت الكرة رياضة تدريب وترفيه .

السباحة :

أما عن السباحة فكانت من وسائل الترفيه المهمة في العصر المملوكي كما كانت كذلك من قبل ، حيث كان العرب يقبلون عليها خاصة أن الخليفة عمر بن الخطاب قد حث عليها وأوصى الآباء أن يعلموا أولادهم السباحة وتشير المصادر المملوكية إلى ممارسة بعض السلاطين لهذه الرياضة ، حتى عرف بعضهم بولعه الشديد بالسباحة لمسافات طويلة ، حتى أن السلطان الظاهر بيبرس قد سبح مرة في النيل وهو يرتدي ملابس الحرب ويسحب خلفه بعض أمرائه جالسين على عوامة مسطحة .

وروى المقرئ أيضا أن السلطان المؤيد شيخ سبح في النيل مع خاصته في المسافة ما بين بيت كاتب السر (١٢) ، ومنية السيرج (١٣) ، ثم عاد في الحراقة الذهبية ، ومن المعجب أنه كان يسبح بقوة على الرغم من الألم الذي كان يلزمه في رجله حتى أنه كان يعجز عن القيام ، فيقع في تحت من خشب ، وترضى به من أعلى الدار بحبال إلى الماء ، وكان عندما يعود يرفع به في التخت كذلك حتى يجلس على مرتبته ، وتصانف زيادة النيل في تلك السنة فتيا من الناس بعموم السلطان ، وقالوا أنه زاد لكونه سبح فيه

فلما علم السلطان ذلك قال : « لو علمت أن ذلك يقع لما سبحت فيه
لئلا يضل العوام بذلك » .

ويبدو أن مقياس اجادة السباحة فى ذلك العصر كان أن يسبح
الشخص بقصد عبور النيل من بر الى بر ، حيث كان النيل أهم
الأماكن التى تجذب الناس للسباحة فيه ، خاصة سكان القاهرة ،
حيث لم يقع فى أيدينا مايشير الى ممارسة السباحة فى البحار ، ففي
سنة ٨٩١هـ / ١٤٨٦م فى عهد السلطان الأشرف قايتباى ، يقال ان
مركبا ببولاق غرقت فى وسط البحر (النيل) ليلا بمن فيها من الناس
والدواب ، وانه كان بها شخص علامة فى السباحة يعوم من البر
الى البر مفرق فى حزن نجا صبي صغير لا يعرف السباحة .

وذلك يدل على اجادة الكثيرين لرياضة السباحة فى ذلك
العصر كغيره من العصور السابقة ، ولاغرو فى ذلك فقد كان العرب
فى الجاهلية يلقبون الرجل « بالكامل » اذا كان شاعرا شجاعا
سابحا راميا .

الالعاب الأخرى :

سباق الخيل

ويمكن أن نضع سباقات الخيل فى مرتبة الألعاب الرياضية
التي اتخذت كوسيلة من وسائل الترفيه ، وأقبل عليها المسلمون
بصفة عامة ، والممالك بصفة خاصة ، فقد حظيت هذه الرياضة
بعناية الخلفاء واهتمامهم ، لما عرف عن الرسول (صلى الله عليه
وسلم) من حبه للخيل ، حتى قيل انه كان يمسح فرسه بثوبه ، كما
كان يجرى الخيل ويسابق بها .

وفى زمن سلاطين المماليك كان لسباق الخيل شأن عظيم ،
حتى أن السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى - على سبيل المثال -
كان يأمر العسكر بالركوب الى الميدان الأسود تحت قلعة الجبل ،
وهم فى أحسن زى للتريض على ظهور الخيل حيث يزدحم الناس
بالميدان للفرجة عليهم على مدى خمسة أيام .

وربما يكون هذا التقليد قد استمر حتى أيام السلطان المنصور
قلاوون وابنه الأشرف خليل ، حيث كان الأمراء والمماليك السلطانية
تتسابق بالخيل فى هذا الميدان أمامهم ، وشغف سلاطين المماليك
بالخيل ، وكان أكثرهم شغفا بها هو الناصر محمد بن قلاوون فقد
عنى بشراء الخيول العربية الأصيلة ، وبذل فيها أموالا ضخمة ،
حتى وصل ثمن الواحد منها أحيانا ثلاثين ألف درهم كما اشتهر
بشدة العناية بأمرها حتى صارت له دراية عظيمة بأنواع الخيل ،
حتى بلغت عدة خيول الجشارات فى أيامه نحو ثلاثة آلاف فرس ،
عدا أربعة آلاف وثمانمائة أخرى فى الاصطبلات ، وخمسة آلاف من
الهنج والنوق ، وقد انتشر سباق الخيل فى عهده ، وبلغ من اهتمام
المماليك بالخيل أن كانت تقام لها أسواق خاصة ، تعرف بسوق
الخيل .

وكان لتلك الأسواق أهميتها حتى كان أحدها وأهمها قريبا من
قلعة الجبل ، مركز الحكم ، ورمز السلطة فى مصر وقتئذ ، وكان
اقتناء الخيول والاهتمام بها مظهرا من مظاهر القوة والجاه ، حتى
أنه كان يحرم على العوام ركوب خيول أصايل (١٤) ، ففى ذى
القعدة من سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م فى عهد السلطان المنصور حاجى .
نودى بالمقاهرة وظواهرها أن العوام لا يركبون خيولا أصايل ،
والحمارة لا يأخذون أكاديش ولا يحملون عليها شيئا .

وكان أكثر ميل السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى الخيول العربية عكس أبيه فانه كان يفضل عليها خيول برقة ، وجلب اليه التجار الخيول من البحرين والحسا والقطيف والحجاز والعراق وغيرها ، خاصة ماكان يجلب اليه من خيول « آل مهنا ، وآل فضل » وهم من العرب المتخصصين فى احضارها له وقد أتوه بأجود الأنواع ، خاصة أن الخيول العربية هى التى كانت مطلوبة للسباق وللحاق وكانت أنفس الخيول وأغلاها قيمة ، وتجلب كما أشرنا من بلاد الحجاز ونجد واليمن والشام والعراق ومصر وبرقة .

وفى سوق الخيل كانت تنتقى الخيول بواسطة ذوى الخبرة من الفاحصين الذين كانوا يطلبون التحديق لاختبارها وفحصها ، وكان للتفرس قواعد تراعى عند الاختيار ، فلا بد أن ينظر الى الفرس فى جميع حالاته ، خاصة أثناء الجرى ، والفرس الجيد يعرف من شدة نفسه ، وحدة نظره ، وصغر كعبيه ورقة جحافله ، وقصر ساقيه وقلة التوائه ، ولين التفاته ، واذا قيس مابين آثار قوائمه وقت جربه كانت المسافة ست أذرع ، بكون الفرس سباقا واذا كانت المسافة أربع أذرع الى خمس فيكون الفرس متوسط الجرى ، أما اذا كانت أربع أذرع أو ثلاثا فهو بطيء ، كما يجب أن يكون سهيله صافيا فان ذلك دليل صحة المرئتين ، وكذا علامات أخرى عديدة كان المتفرسون يعرفونها وسجلتها كتب الفروسية .

ولم ينقطع سباق الخيل فى زمن السلطان الناصر محمد فلما مات بطل الى أن أعاده السلطان برقوق ، وكان له أيضا رغبة فى الخيل ، حتى قيل انه ترك عند موته سبعة آلاف فرس وخمسة عشر ألف جمل وهجين ، كما كان يشتري الفرس بأعلى من قيمته الى عشر مرات ، غير العطايا .

وأثر عن السلطان الظاهر برقوق انه عرض فى سنة ٧٩٢هـ /
١٣٨٩م خيل السباق وفرقها على الأمراء ، « كما كانت العادة يوم
ذاك » . وذكرت المصادر المعاصرة أن السلطان المؤيد شيخ بعد أن
شفى من مرضه ركب فرسا ومعه الأمراء والمماليك وكان ذلك فى
شعبان من سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م ووقف بهم تحت قبة النصر ، وقد
بعث أربعين فرسا الى بركة الحاج فأجريت منها وأتته فى النهار ،
وكان ذلك بغرض الفرجة على سباق الخيل « فيحصل له برؤيتها
النشاط » . وهو فى هذه المرة قد جعل ابتداء الشوط من بركة
الحاج وان كانت فى الغالب هى نهاية الشوط فى سباق الخيل من
القاهرة .

والى جانب سباق الخيل فان السلطان المؤيد شيخ كان يهوى
كذلك سباق الهجن ، فقد ركب فى الشهر ذاته الى بركة الحبش ،
وساق بالهجن ، ونظر فى عليق الجمال واستكثره فرسم أن يصرف
نصف عليقة لكل جمل .

وذكر أن السلطان الأشرف برسباي كان شغرا فى جمع
الخيول والجمال وغيرها . كما كان الأمراء أيضا مهتمين بسباق
الخيل ، حتى انهم كانوا يتسابقون فى الفضاء الممتد فيما بين قبر
الامام الشافعى الى باب القرافة طولا وعرضا ، وكان السباق يستمر
اياما تحدث فيها اجتماعات جليلة للتفرج على السباق .

أما عن ميادين السباق وأشواطه فكان من عادة سلاطين
المماليك أن يخصصوا ساحات متعددة للسباق ، تسمى الواحدة
منها حلبة ، أما موضع المسابقة فيسمى بالمضمار ، والمدى يسمى
غايته ، وتكون الغاية طبقا لما يتفق عليه ، وكانوا يجعلونها مائة
غلو ، والغلو قيمة رمية السهم العربى ، وهى خمسمائة ذراع ،
وقد تجعل من مواضع معلومة الى مواضع أخرى معلومة أيضا

وهذا ما طبقه المماليك وهو ما كان معروفا قبلهم • وكانت تقام في
الميادين أعمدة رخام تعرف بعواميد السباق ، بين كل عمودين مسافة
بعيدة •

وكان المماليك يتراهنون في السباق كما كان يفعل العرب من
قبل •

ويمكن تلخيص أسلوب السباق الذي كان يجري في الساحة ،
حيث تقف الخيل في الميدان ، ثم تصف على المقوس ، أي الحبل
الذي يمد في صدور الخيل لتكون متساوية ، وترص حوافرها كما المشط
المنظوم ، ثم يرفع المقوس في سرعة فتنتطلق عشرة عشرة ، دفعة
واحدة •

أما عن الفارس نفسه فان السباق يحتاج الى فارس عارف
بأحوال الخيل ، خفيف الجسم ، قليل اللحم • وتشير المصادر الى
انه في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أهداه الأمير العربى
مهنا فرسا شهباء للسباق وطلب ألا يركبها عند السباق الا « بدوى
قادها » وقادها البدوى في السباق عريا بغير سرج وهو يرتدى
قميصا وطاقية فقط ، وسبقت كل الخيول ، فشق على السلطان أن
تسبق خيله وخيل الأمراء وأبطل التضمير على خيله وصار الأمراء
يضمرون على عادتهم •

وقد اشتملت بعض مخطوطات الفروسية والبيطرة المنسوبة
الى العصر المملوكى على رسوم تمثل سباقات الخيل ، ومن بينها
واحدة من مختصر كتاب البيطرة لابن الأحنف المحفوظ بدار الكتب
المصرية ، تمثل فارسين يتسابقان •

ولم يكن سباق الخيل والهجن مجرد رياضة تمارس بغرض
الترفيه فحسب بل كانت رياضة تدريبية مهمة ، تؤهل صاحبها ليكون

فارسا عظيمًا ، يعتمد عليه في الحروب التي كانت سمة ذلك العصر كما كانت هذه الرياضة كما وضع لنا ارسنقراطية لا يمارسها الا السلاطين والأمراء والأجناد لامتلاكهم الخيول اللازمة لها والتي كانت تؤول اليهم في العادة على شكل هدايا (١٥) أو هبات. وأعطيات من السلطان أو الأمراء بينما اقتصر نصيب عامة الشعب من هذه الرياضة على مجرد المتعة الناتجة عن التفرج عليها .

المصارعة :

ومن الرياضات المهمة التي تسلى بها الناس في عصر سلاطين المماليك ما عرفه بفن الصراع ، ويقصد به المصارعة ، حتى أن السلطان حاجي « صار يحضر الأوباش بين يديه يلعبون بالصراع وغيرها » ، وقيل أنه كان يمارسها بنفسه مع العسوام ، حيث كان يلبس تيان من جلد ، وهي سروايل قصيرة ويتعري من جميع ثيابه ويصارعهم .

وكان من الأمراء من يجيدون هذا اللون من الرياضة ، فان أحد الأمراء العثمانيين يقال له قرقماس المعلاي المصارع أمير اخور رابع ، كان علامة في الصراع وهذا الأمير كان صهر المؤرخ ابن اياس ، وكما يبدو أنه كان يجيد فن الصراع حتى نسب اليه فأطلق عليه المصارع كما سبق .

كذلك كان من الأعيان من يمارسون المصارعة فقد أشار ابن اياس الى أحدهم وهو سيدي اسماعيل بن الأمير لاجين بأنه كان يارع في فن الصراع وتوفى بالمطعن في ذي الحجة سنة ٨٨١هـ / ١٤٧٦ م .

كما أشار أيضا الى ممارسة مماليك السلطان لهذه الرياضة وكان منهم من يشغل رأس نوبة ومنهم على سبيل المثال في عهد

السلطان قايتباى الأمير مغلباى الفهلوان المحمدى الأشرفى اينال
الذى كان عارفا بفن الصراع ، علامة فيه .

وقد تضمنت احدى المخطوطات الخاصة بالفروسية ورمى
الرمح شيئا عن المصارعة فى عصر سلاطين المماليك ، وأشارت الى
أنواع من الصراع التركى والعربى والعجمى ، فأوضحت ما يلبس
أثناء المصارعة ، وكيفية دوران المصارعين كما شرحت كيفية
مدافعة الخصم ، وتوجيه الضربات له وكذا كيفية ابطال حركات
الخصم وشل حركته .

وقد أوردت هذه المخطوطة بعض التصاوير التى توضح
أوضاع المصارعة والتدريب عليها فى ذلك العصر .

ويبدو من خلال المصادر المعاصرة ، أن رياضة المصارعة لم
يمارسها أى من السلاطين سوى السلطان المظفر حاجى ، ربما كان
ذلك لطيشه وصغر سنه ومخالطته بالعوام ، كما يبدو أن معظم
السلاطين قد اكتفوا منها بأن تلعب بين أيديهم ، كما سبقت الإشارة
الى ذلك ، وربما كان ذلك ترفعا من جاذب السلاطين عن هذه
الرياضة ، التى تتطلب أوضاعا خاصة لاتليق بمقام السلطان
ومهابته ، كالتشابك بالأيدي والأرجل ، والوقوع على الأرض
ومدافعة الخصم ، وفى الواقع انه لم يكن أحد من الأمراء ليرضى
أن يكون فى وضع المنافسة العنيفة مع السلطان ، حتى لو كان
ذلك لونا من ألوان الرياضة .

وتوجد اشارات الى لون آخر من ألوان الرياضة التى مارسها
المماليك وهى المبارزة ، فكانوا يقضون فى ذلك أياما مشهودة ،
خاصة عندما تكون أحوال البلاد مستقرة لا يهددها خطر خارجى

أو داخلى فيذكر المقريزى أنه فى ربيع الأول سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م « خرج الأمراء والماليك فى يوم السبت رابع عشره الى الريدانية خارج القاهرة بتجمل عظيم واحتفال زائد ، فان الدولة كانت لم تطرق والبلد لم يتغير حاله ، والناس فى عافية بلا محنة وأقاموا فى التبريز (١٦) الى يوم الاثنين سادس عشره ، فكانت أياما مشهودة » .

وقد عرفت هذه اللعبة عند العرب باسم لعبة اللبخة ، كما عرفت باسماء متعددة كالتحطيب - عند عامة مصر - والمطروق والجريد وقد حفزت لنا المتحف الاسلامى صورة لهذه اللعبة ، حيث انها سجلت على انية من الخزف ذى البريق المعدنى من صنع مصر تنسب الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة وقد سبقت الاشارة اليها ، وهى عبارة عن رسم لرجلين يتبارزان بالعصى أحدهما رسم رسما جانبيا ، بينما يبدو الآخر فى وضعية ثلاثية الارباع .

وتعدنا المصادر المملوكية كذلك ببعض التصاوير ضمن مخطوط فى ألعاب الفروسية ، من بينها رسم محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة أيضا ينسب الى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى وهو يمثل مباراة بين رجلين وقد وقف خلفهما رجل ثالث يمسك بعصا أو بعمود فى احدى يديه ويظهر أحد المتبارزين وهو يمسك بعصا زميله ، كما وصلنا رسم آخر مشابه يمثل لعبة التحطيب هذه أو كما يسميها المخطوط بلعبة المطروق ، ويفهم أيضا من تصاوير بعض مخطوطات الفروسية التى تنسب الى العصر المملوكى أن هذه اللعبة لم تمارس على الأرض فحسب ، بل كانت تمارس كذلك من على ظهور الخيل .

هذا وقد ذكر الشعراني في طبقاته الكبرى في ترجمة عثمان
الحطاب (المتوفى سنة زيف وثمانمائة) ما نصه : « وكان شجاعا
يلعب اللبخة فيخرج له عشرة من « الشطار » ويهجمون عليه
بالضرب فيمسك عصاه من وسطها ويرد بضرب الجميع فلا تصيبه
واحدة » هكذا أخبر عن نفسه في صباه » .

ويدل ذلك على انتشار مثل هذه الرياضات التي تتطلب
مهارات فردية في عصر سلاطين المماليك .

أما عن رياضة الملاكمة أو اللكام فاعلم الظن أنها لم تذكر
كثيرا في المصادر المعاصرة سوى ما أورده القلقشندي وهو عبارة
عن نسخة مكاتبة كتب بها المقر الشهابي بن فضل الله عن السلطان
الملك محمد بن قلاوون إلى السلطان أبي سعيد بهادر خان (١٧) جاء
فيها « وأما الإشارة العالية إلى تقاضى تجهيزه من الملاكمين
والسوقات فقد رسمنا بالانتهاء إليه ، وقد جهز من الملاكمين والطين
المختوم ما أمكن الآن » .

وقد حصلنا أيضا على إحدى التصاویر وردت في إحدى
مخطوطات الفروسية توضح كيفية التدريب على هذه الرياضة .

وردت في المخطوط باسم اللكام ، حيث ورد بها فصل وصف
فيه طريقة التدريب على تلك اللعبة وهي أن يأخذ اللاعب مخللة
ويعملها ليفا أو تبنا وبها خيط وثيق ويعلقها في السقف إلى عنده
صدره « ويحذفها تروح عنه فإذا جاءت إليه لكمة بيده تروح عنه
ويصير كلما جاءت لكمة مثل الأول ثم يتلقاها بصدرة وذراعه » .

وعرف المماليك كذلك من ألوان الرياضة ما عرف بالمعالجسة
ويقصد بها رفع الأثقال ، فكانوا يستخدمون الحجارة في ذلك ، وقد

أورد المقرئ أن السلطان المنصور بن المعز قد زاول هذه الرياضة .
كما أن الأمير علاء الدين على حفيد بيبرس الحاجب كان مشهورا
بالعلاج ، وأنه كان يعالج بمائة وعشرة أرطال .

كذلك تلهى الناس فى ذلك العصر بمجموعة من الألعاب التى
لها طابع المقامرة ، كاللعب بالطيور مثل تطيير الحمام وكذا المناطحة
بالكباش والثيران والمناقرة بالديوك ، فكان يراهن الشخص على
الطير أو الكباش فإذا فاز كسب الرهان .

وقد انتشر اللعب بالطيور فى ذلك العصر ، حتى أصبحت
قربيتها من الهوايات المحببة لدى كثير من الناس ، تملأ عليهم
فراغهم وتشعرهم بلذة خاصة .

فقد شغف بعض سلاطين المماليك باللعب بالطيور ، خاصة
بالحمام وأثر عن السلطان المنصور على أنه كان يلعب بالحمام مع
أولاد الغلمان . كما عرف عن السلطان الكامل شعبان ولعه بلعب
الحمام أيضا ، وأنه « قرب من يكون من أرباب هذا الشأن ، بل
أمر بأن ينادى فى القاهرة بالألاعيب يعارض أحد لعاب الحمام أو غيرهم
من أرباب الملاعب » .

بل أن أحد السلاطين قد بعث الى المؤننين يأمرهم « أنهم اذا
راوا الحمام لا يرفعون أصواتهم » بالأذان حتى لا ينزعج الحمام .

وقد باشر بعضهم اللعب بالحمام الى حد الاسراف حتى بلغ
ما أنفقه السلطان المظفر حاجى على عمل حظير الحمام سبعين ألف
درهم (١٨) .

وقد عد اللعب بالحمام من مساوىء هذا السلطان ، الذى
صار له اجتماع بالأوباش وأراذل الطوائف ، وكان ذات مرة يلعب

بالحمام فدخل عليه الأمير جيبغا - رأس نوبة الذوب - فلامه على ذلك فقال :

اذبحها فذبح منها طيرين ، فطار عقله وقال لخواصه : اذا دخل الجيبغا الى قبضعوه بالسيف أى قطعوه • وعن نفس الواقعة يذكر ابن اياس انه لما سمع كلام الأمير ، غضب وقام من وقته وطلع الى السطح وذبح الحمام الذى عنده عن آخره ، كما خرب مقاصيره التى فى السطح وأرسل الى الأمير يقول له « انى قد ذبحت ما عندى من الحمام جميعها ، وأنا ان شاء الله تعالى أذبح فى هذا القرب خياركم من الأمراء ، كما ذبحت الحمام •

وكان هذا مما أسخط الأمراء عليه ، ويبدو أن هذا السخط قد امتد الى كثير من الناس وآثار سخريتهم حتى ان الشاعر المصلاحي الصفدى قال فى شأن هذا السلطان متهمكا (١٩) •

والمؤسف حقا ان اللعب بالطيور قد صرف هذا السلطان عن تدبير أمور الدولة والقيام بأعباء الحكم ، حتى وصف بالمطيش الزائد ، وقد يرجع ذلك الى أنه كان شابا لم يتخط العشرين الا قليلا ، حتى انه « قد اشتغل بلعب الطيور ، عن تدبير الأمور ، والتلهى عن أمر الأحكام بالنظر الى الحمام فجعل السطح داره ، والشمس سراجها ، والبرج مناره ، وأطاع سلطان هواه وخالف من نهاه ، وخرج فى ذلك عن الحد ، ولا صار يعرف الهزل من الجد » •

كما توضح نفس المصادر المعاصرة ان هذا السلطان كان مولعا بلعب الحمام بدرجة كبيرة ، وأعماله شاهدة على ذلك حيث قيل انه « لما وصل اليه موجود يلبغا اليحياوى ، نائب الشام ، فكان من جملة ذهب عين خمسين ألف دينار ، فصرف السلطان ذلك المال

جميعه على الحمام ، فصنع لهم خلاخل ذهب فى أرجلهم والواح ذهب فى أعناقهم ، وصنع لهم مقاصير خشب ، مطعمة بالعجاج والأبنوس ، وأقام لهم غلمانا يكفونهم ، ورتب لهم فى كل شهر جوامك بسبب خدمة الحمام ، فأفنى ذلك المال الذى وصل من الشام بجميعه ، على ما ذكرناه من أمر الحمام » . فلا عجب اذن بعد هذا كله أن يثور عليه بعض الأمراء وينتهى أمره بالقتل .

وقد اعتبر بعض الأمراء - أنفسهم - اللعب بالحمام سبة ونقيصة حتى أن الأمير الكبير أئيبك ، عندما أراد أن يجعل فى فى السلطة الأمير أحمد بن الأمير يلغا العمرى ، فإنه استدعى الخليفة المتوكل على الله الى حضرته ولكن الخليفة اعتذر بأنه ابن أمير وليس من بيت الملك ولم يوافق على ذلك ، فسبه الأمير يئيبك قائلا : « ما أنت فاره الا فى اللعب بالحمام والاشتغال بالجوارى المغنيات . . . »

ويبدو أن اللعب بالحمام كوسيلة من وسائل الترفيه لم يكن مقضورا على السلاطين والأمراء فحسب ، بل ان بعض الصبية كانوا يلعبون به فان كمال الدين محمد بن على القاهرى الشافعى الذى أصبح فيما بعد شيخا للإسلام كان يلعب بالحمام وهو صبي فى الريدانية كما سيأتى ذلك عند تناول ألعاب الأطفال .

وعلى أية حال لم يكن اللعب بالحمام من اختراع المماليك ، ولا هو وليد عصرهم ، فقد سبقهم الى ذلك كثير من حكام المسلمين حتى ان العرب فى الجاهلية وفى الاسلام حفظوا أنساب الحمام تماما كما فعلوا مع أنساب الخيول حتى انهم سبقوا كلا من العباسيين والفاطميين فى هذا المجال .

لذا تعد ممارسة اللعب بالحمام فى عصر سلاطين المماليك استمرارا لما كان قائما قبلهم وان غالوا فى ذلك مغالة كبيرة كشأنهم مع كثير من وسائل الترفيه التى كانت شائعة فى عصرهم .

والى جانب الولع باللعب بالحمام كان البعض مولعا كذلك بتربية أنواع أخرى من الطيور من أجل مهارشتها ومنساقرتها كالديوك والسمان ، حيث كان الكثيرون يغرمون بالتفرج عليها ، وارتبط هذا اللون من الترفيه بالاهتمام ايضا بتربية بعض الحيوانات بغرض المناطحة فيما بينها ، مثل الكباش والثيران وربما الأفيال والسباع .

وقد شغف بعض السلاطين المماليك شغفا كبيرا بالتفرج على مناقرة الديوك وتناطح الكباش والثيران ، فكانوا يحرصون على حضور ذلك فى جمع من الأمراء وكذلك القصاد ، فكثيرا ما كان السلطان قنصوه الغورى بعد أن يختم ضرب الكرة ، يطلع الى الحوش ويجلس بالمقعد الذى به ، ويحضرهون قدامه الثيران والكباش يرسم النطاح ، ويستمر ذلك الى ما بعد العصر ، كما كان تتناطح وتتقاتل بين يديه الأفيال الكبار والسباع .

وكانت الأسمة الحافلة تقدم فى ذلك اليوم بحضرة السلطان والأمراء ومن معهم من القصاد ، وكان الأمراء شأنهم فى ذلك شأن السلاطين، فقد أورد المقرئى أنه عثر فى سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١ م لدى ابراهيم بن صابر مقدم دولة المماليك البحرية على مائتى كبش للنطاح .

وفى غالب الاحيان ، كان التحمس من جانب أصحاب هذه الطيور المتهارشة أو الكباش المتناطحة ، يؤدى الى معارك فيمسا

بينهم ، وربما كان يفضى أيضا الى العداوات ، فقد ذكر أن الناس قد أكثروا « من اقتنائها والمواظبة على اضرار شحنائها ، وربما نشأ عن ذلك فتنة تنزل الى ضرب وشق ثياب واحداث شجاج واثارة عجاج ويجر الى احزاب وأفواج » .

وكان طبيعيا أن تعتمد بعض الحكومات أثناء العصر المملوكى الى منع هذه الوسائل ، فقد حدث سنة ٧٤٤هـ / ١٣٤٤م أن رسم الأمير الحاج آل ملك الجوكندار نائب السلطنة بإبطال جميع أرباب الملعوب من المناطقين بالكباش والمناقرين بالمديوك وغيرهم ، رغم ماكان يتحصل منها للدولة من مال كثير ولكن لم يكن هذا المنع ليستمر طويلا فسرعان ما تعود الملاعب الى سابق عهدها وربما أشد من ذى قبل .

ويبدو أن هذه المجموعة من وسائل الترفيه المتمثلة فى مناقرة الديوك وصياح السمان ، ونطاح الكباش والثيران كانت منتشرة حتى على مستوى الطبقات الشعبية ، حتى اننا نجد أنها وردت فى أدب الأدباء الذى تمثل بعضه فى بابات خيال الظل ، ذلك الفن المسرحى الشعبى الذى كان يعرض باباته على عامة الشعب ويستوحى موضوعاته من حياة الناس وأحوالهم ، فقد وصلتنا احدى البابات لابن دانيال باسم « المتيم والضائع اليتيم » وهى تصور مناقرة الديوك ومناطحة الكباش ، حيث يعرض ابن دانيال فى هذه البابة صورا من الملاحى التى دارت بين المتيم واليتيم ، وعادة ما تبدأ بمناقرة الديوك حيث يعد كل منهما ديكه للنقار ، وكان يطلق على أحد الديكين « أبو العرف صباح » وعلى الآخر «صياح» فيبدأ المتيم فى الاشادة بديكه (٢٠) .

ويرد عليه اليتيم هو الآخر مشيدا بديكه أيضا ، ويبدو ان هواة هذا اللون من الترفيه ، كانوا يسرقون بالعناية بتلك الديوك ،

فحكسونها بالحرير ويزينونها بألوان من الحلى ، ونرى ذلك فى وصف المقيم لديكه (٢١) .

كما توضح هذه البابة طبيعة هذه المناقرة ، وكيفية الظفر فيها فيقول ابن دانيال على لسان « زيهون » وهو أحد شخوص البابة :

« وأحسن ما تفرج عليه السوق والملوك ، مناقرة الديوك ، لأنها مناضلة ومناضلة ومقاومة ومنازلة ، وهذان الديكان قد وقفا للصطدام ، وأصرا على الاقدام ، فمن هرب من المنقار ، والتجأ الى الفرار ، وجب عليه ما تقرر وليس بعار اذا عساد المغلوب وتكور » .

وفى هذا القول ما يوضح طبيعة المناقرة بالديوك ، وأنهما كانت تسلية الملوك والعامّة ، كما تبين كيفية المواجهة بين الديوك وتأهبها للصدام ، وتشير كذلك الى أن المهزوم هو الذى يفر من غريمه هرباً من نقره فيخسر المراهنون عليه الرهان .

وربما كانت مناطق الكباش والثيران تسير على هذا النسق كما فى المناقرة ، فيقول المقيم بعد أن هزم ديكه فى تلك المواجهة : ولئن هرب ديكى من صياح ، فدونك كبش للنطاح ، وكل لاعب يعرف كبشى كأنه الأسد الوحشى ، يكاد ينطح البروج ، ويهدم بقرنية سد يأجوج ومأجوج » ثم تبدأ المناطقة فيشيد كل منهما بقوة كبشه ، وجمال منظره ، ويشير الى موطنه ومن الطريف أن تأتى أم اليتيم فتطلق البخور على كبش ابنها من الحسد قبل اللقاء ، وربما كان ذلك إشارة الى بعض ما يصحب مثل هذه المناطقات من مراسم وعادات .

وهكذا يتضح أن هذا اللون من وسائل الترفيه كان متعة لكثير من الناس يملأ عليهم فراغهم ويرضى ميولهم فى المقاومة والتحدى

بحيث كان يلقي اقبالا كبيرا من الجميع ، وان كان بعض الفقهاء قد أنكروا « نطاح الكباش ، ونقار الديوك وصياح السمان وامثالها ومما عرف الناس انه منكر اثاره التحرش بين الحيوانات ، وهى ذوات اكباد رطبة واخلاق صعبة » .

اقتناء الحيوانات وترويضها :

وقد تلهى سلاطين المماليك أيضا باقتناء بعض الحيوانات المائية وكذا بعض الحيوانات غريبة الخلقة ، التى كانت غالبا ما تهذى اليهم . ويبدو أن الناس كانوا يترقبون أخبار ذلك ، فتذكر بعض المصادر المعاصرة انه « اشيع بين الناس أن شخصا من البرابرة قبض على فرس البحر دن بعض جهات الصعيد وأحضرها بين يدى السلطان « الغورى » فلما أحضرت بين يديه فرح بها ، وقيل انه أطلقها فى البحرة التى فى الميدان » .

كما أهدت زوجة ملك المغرب وهى فى طريقها الى الحجاز سنة ٧٣٦هـ / ١٣٢٦ م الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون هدايا حافلة « ومن جملتها أعجوبة ، وهو ثور أصفر ، فاقع اللون كامل الخلقة ، وفى وسط ظهره من الجانب الأيمن كتف طالع منه رؤوس أضلاعه وذلك الكتف بمرفق وذراع ، وحافر مفروق مثل حافر البقر ، فكان يطوف بالقاهرة كما يفعل بالسباع ، وعليه جل من حرير أصفر » .

ولعل ذلك يظهر أن سلاطين المماليك وكذا الناس فى عصرهم كانوا يبحثون عن كل المبهجات ووسائلها - على كثرتها - فلم يتركوا شيئا يدخل السرور على أنفسهم الا فعلوه ، حتى قال أحد المؤرخين « لقد بلغنا فى تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لاتدرك

مثل انهم يعلمون الحمر الانسية والحيوانات العجسم من الماشى
والطائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب بدورها ، وبعجز أهل
المغرب عن فهمها » .

ويفهم من هذا النص أن المصريين كان لهم القدرة الفائقة
فى ترويض الحيوانات والطيور واستغلال ذلك فى الترفيه عن
الناس فيما يشبه الآن عروض السيرك .

وقد بلغ أمر بعض السلاطين الى التفرج حتى على الأمور
الجادة مثلما فعل السلطان الناصر محمد بن قايقباى فى شعبان
سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م حيث أمر بأن تقطع الحيات التى كانت تلزم
للبيمارستان ، بحضرته حتى يتفرج عليها ، فأحضرت بين يديه بقاعة
البحرة وقطعت بحضرته وهو ينظر اليها وبعدها خلع على شمس
الدين القوصوئى رئيس الطب وولده وكذا الحاوى الذى أحضر
الحيات وغيرهم .

والى جانب ذلك تلهى الناس فى عصر المماليك بمجموعة
أخرى من الألعاب التى تتمثل فى ألعاب الدبابة الذين يلعبون
بالدببة ، والقراة وهم الذين يلعبون بالقرد وكذا الحواة
والبهلوانات « مما لايزال بعضه باقيا فى مجتمعنا الحديث » . وكان
لهؤلاء مناطق معينة يجتمعون فيها ليعرضوا ألعابهم حيث كان
« ينحشر هنالك من الخلائق للفرجة ... ما لا ينحصر كثرة » .

أما عن الحواة فكانت ألعابهم منتشرة فى العصر المملوكى
ويقبل على مشاهدتها العامة والخاصة ، وهم الذين يلعبون بالشعايين
وغيرها من الزواحف طبقا لمشيئتهم وسيطرتهم عليها ، وكان لهم
فى ذلك فن ومقدرة كبيرة ، حتى أن أحد السلاطين قد خلع على حاو

أحضر اليه الحيات ليتفرج عليها وتقطع أمامه ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وكان الحواة يجدون في جمع الحيات والأفاعي ليعرضوا بها ألعابهم ، فيشير المقربزي إلى حادثة وقعت من أحد الحواة مضمونها أن أحدهم من أهل طرة يقال له أبوكريت أمسى عليه الليل يوما فاضطر إلى المبيت بجامع القرافة بمصر ، وكان معه سلة بها حصيلة أسبوع من الأفاعي الغريبة والحيات الخطرة التي لم يقدر على جمعها قط حاو غيره ، وانسابت الأفاعي من السلة وتسربت منها ، مما أزعج من كان موجودا بالجامع لقضاء الليل فهرعوا إلى تسليق المنبر والأعمدة وهم يرتعدون من شدة الخوف ، واستمعوا على ذلك إلى مطلع الفجر حيث استطاع الحاوي أن يستعيد أغلب الحيات ويعيدها إلى سلقته من جديد .

ولعل في تلك الرواية ما يدل على انتشار هذه الفئة من الناس وأنهم كانوا يهيئون على وجوههم بغرض جمع الحيات ثم بيعها بعد ذلك ، أو استخدامها في ألعاب للترفيه عن المارة بمقابل بسيط يحصلون عليه خلال العرض أو بعده .

وخلاصة القول أن الحواة في ذلك العصر كانوا يمارسون ألعابهم شأنهم في ذلك شأن غيرهم في عصور سابقة ، حتى عصرنا الحاضر ، فإن هذه الطائفة من الناس مازالت موجودة ، تمارس ألعابها أمام جمع من المارة في الميادين العامة والأماكن الشعبية وإن منهم من انصرف إلى مزاولة أعمال أخرى فاصـبـحنا نادر ما نراهم ، وإن كانت هذه الندرة لا تدل على انقراضهم تماما ، ومنهم من انصرف إلى صيد الأفاعي والثعابين وغيرها بقصد بيعها للهيئات العلمية بغرض الأبحاث في مقابل عائد مادي يتعيشون عليه .

ولا عجب فقد كان يحدث مثل ذلك فى عصر سلاطين المماليك حيث كان الحواة يقدمون الحيات الى البيمارستانات للاغراض الطبية كما سبقت الاشارة الى ذلك .

(البهلوانات) :

وعن البهلوانات والعابهم التى كانوا يقدمونها فى العصر المملوكى فان المصادر المعاصرة تحدثنا بانه فى سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م قام شخص من المماليك يسمى يشبك وهو من مسالة الفرنج ينصب حبلا من أعلى مدرسة السلطان حسن تحت القلعة ، ومده حتى ربطه بأعلى المدرسة الأشرفية من قلعة الجبل ، وتقدر هذه المسافة برمية سهم أو يزيد ، وفى ارتفاع نيف على مائة ذراع ، ثم برز من رأس المنذنة ومشى على هذا الحبل حتى وصل الى المدرسة الأشرفية ، وقد أبدى نى مثليه أنواعا من اللعب ، ورمى بالمكحلة كما رمى قوس الرجل ، كل ذلك وهو فوق الحبل ، وقد جلس السلطان الأشرف برسبای والأمرأ لرؤيته ، وحشر الناس من أطراف المدينة ، وأنعم السلطان على البهلوان وأركبه فرسا كامل العدة ، كما خلع عليه بطرازين ، كما أحسن اليه الأمرأ أيضا .

وقد أثار ما قام به هذا البهلوان من سير فوق الحبل همم شباب أهل البلد من المصريين ، حتى ان أحدهم عمد الى نصب حبل فى داره وأخذ يدرب نفسه على السير عليه ، فلما علم من نفسه القدرة على ذلك ، قام بمد حبل من رأس نخلة الى أخرى وأعاد التجربة ثم أظهر نفسه ، ونصب حبلا بين منذنة المدرسة الظاهرية برقوى ومده الى منذنة المنصورية بين القصرين كما أرخى من وسط هذا الحبل الممتد حبلا آخر الى أسفل وواعد الناس حتى ينظروا مايفعله ، فجاءوا اليه من كل جهة وبدأ المشى قائما على قدميه من

رأس مئذنة المدرسة الظاهرية حتى وصل الى رأس مئذنة المدرسة المنصورية وهو منتصب القامة ، وبلغت مسافة ذلك نحو مائة ذراع وارتفاع أكثر من ذلك .

ومن الحيل التى قام بها أثناء ذلك انه نام على الحبل وتمدد ثم قام ومشى حتى وقف على الحبل الذى أرخاه فى وسط الحبل الذى هو قائم عليه ، ثم نزل على الحبل المدلى حتى آخره ، ثم صعد عليه ، وهو يبدى فنونا تذهل العين رؤيتها ، « ولولا ضرورة الحس لما صدقت » كما أنه لم يكتف بذلك فقد قام بنصب حبل من مئذنة السلطان حسن الى الأشرفية بالقلعة ، كما فعل الرجل الأول ، وقد جلس السلطان الأشرف برسباى لمشاهدته مثلما فعل مع سابقه ، وأقبل الناس من كل صوب وحذب ، وتصادف أن هبت رياح عاصفة كادت تقلع الأشجار وتلقى الدور من شدتها ، ولكن هذا الشهاب البهلوان استطاع رغم ذلك ان يقدم عروضه بنجاح منقطع النظير كما أتى بحركات بهلوانية لم يسبق لها مثيل ، فكان على حد تعبير أحد المؤرخين « شيئاً عجيباً ، لاسيما أنه لم يتقدم له ادمان فى ذلك ، ولا دربه فيه معلم ، وانما تآقت اليه نفسه فامتحنها ، فاذا هـى متاقية له فيما أراد ، فبرز وأبدى ما يعجز عنه سواه » .

وهناك اشارة الى احدى التصاوير من هذا العصر ، من مقامات الحريرى المحفوظة بالمكتبة الأهلية فى فينا ، منسوبة الى مصر حوالى سنة ٧٣٤هـ / ١٣٣٤م ، عبارة عن صورة لأمير فى مجلس شراب وطرب وترفيه ، حيث يوجد أسفل منه رسم لشخص يؤدى بعض الألعاب البهلوانية مما يعطى صورة واضحة عن بعض الألعاب التى كانت سائدة فى ذلك العصر .

وخلاصة القول ان الألعاب البهلوانية خاصة السير على الحبل او ماشابه ذلك عرفت فى مصر فى عصر سلاطين المماليك .

هواشع التزهات والترضى :

والى جانب تلك الألعاب السابقة ، فقد أغرم سلاطين الممالك والأبراء بل عادة الناس بالخروج الى النزهة والترىض فى أماكن كثيرة من ربوع مصر - سيرد ذكرها فيما بعد - وكان نصيب نهر النيل فى ذلك كبير ، حتى قال الرحالة ابن بطوطة فى وصفه : «ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبه مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة ، والمدن والقرى بضفتيه ، ليس فى المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يزدرع عليه ما يزدرع على النيل ، وليس فى الأرض نهر يسمى بحرا غيره» (٢٢) .

وقال رحالة آخر يدعى بيلونى وهو من جزيرة كريت زار مصر فى عصر المماليك « ان ماء النيل من خصائصه ان يجعل الناس دائما مرحين بعيدين عن الهموم والأحزان » .

واعتاد سلاطين المماليك الركوب فى بحر النيل ، كما اهتم بعضهم بعمارة الشوانى الحربية ولعبها فى البحر ، فقد نزل الملك الظاهر بيبرس الى القصر الذى كان فى قلعة الروضة وأرسل خلف الامام أحمد الى هناك ، « وأضافه اضافة حافلة ، وأمر باحضار الشوانى والسفن الحربية لتقوم أمامه على صفحة النيل بمناورات واستعراضات ذهابا وإيابا ، والطبول والبوقات والنفوط عمالة » .

وكان اذا خرج السلطان للنزهة « فان والى القاهرة ينتهز المناسبة لاقامة المهرجانات ، فيطلق النفط او يشعل قنابل بالزيت فى قشور البيض ثم تدلق على وجه الماء لتكون أسرجة موقدة على وجه النيل » كما طلب الأمير التاج والى القاهرة فى ذى القعدة سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م عندما عدى السلطان المؤيد شيخ النيل

ونزل على أوسيم من ساعة الفواكه وأصحاب البساتين « أن يحملوا النرجس ونحوه من المشعوم ، فجبى ذلك منهم حتى عز وجود البنفسج بعد ذلك ، وبيع بخمسة وعشرين درهما الباقية بعد درهم » .

وواقع الأمر أن المصادر المعاصرة قد أسهبت في ذكر هذه الألوان الترفيفية ، سواء بالنسبة لسلطين المماليك والأمراء أو لعامة الشعب بجميع طوائفه ، الذين كانوا يتخذون من ذلك مجالا للفرجة والترفيه .

فيذكر المقرئ أنه في ليلة الخميس الرابع والعشرين من المحرم سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨ م ، كان الوقيد ببر منبابة بين يدي السلطان حيث أنه نزل بقصر ابن البارزى كاتب السر الذى أُنشأه على النيل بحرى منبابة ، وألزم الأمراء بحمل الزيت والنفط « فجمع من ذلك شئ كثير » وأحضر البائعون الكثير من قشر البيض ، وقشر النارج ، ومن المسارج الفخار ، وعمل فيها قناديل القطن المغموسة بالزيت وأشعلت بالنار ، وأرسلت في النيل بعد غروب الشمس بنحو ساعة ، وكذلك أطلقت المنفوط « وقد امتلأ البران بطوائف الناس وحولهم من السخف ما لم يعهد مثله للملك قط » وتكرر ذلك من السلطان أكثر من مرة اذ يبدو أنه كان من العادة أن يعمل الوقيد ليلة الخميس عند عودته من أوسيم حيث ينزل على النيل بناحية منبابة ، وكانت تقدم له التقادم ، من الخيول والجمال على العادة .

وكان للناس أيضا ولع عظيم بمشاهدة ذلك والتفرج عليه ، حتى أنهم كانوا يتحينون المناسبات المختلفة للمشاركة فيها طلبا للترفيه وادخلا للسرور على أنفسهم . ويروى المقرئ واقعة

مضمونها ان السلطان المؤيد شيخ نزل الى جامعه بجوار باب زويلة يوم الخميس سابع عشرة من ربيع الاول سنة ٨٢٢هـ / ١٤٢٩م واستدعى شيخ الاسلام قاضى القضاة جلال الدين البلقينى ، حيث بالغ السلطان فى اكرامه وأفاض عاياه بتشريف ، وشافهه بولاية قضاء القضاة ، فارتجت القاهرة ، وخرج الناس رجالا ونساء على اختلاف طبقاتهم لرؤيته ، فرحوا به ، حتى غصت الشوارع ، وفى عودته الى المدرسة الصالحية ، مر من تحت الربيع وعبر من بساب زويلة وقام السلطان فى الشباك ليراه ، فأبصر من كثرة الخلق وشدة فرحهم وعظيم ما بذلوه وسمحوا به من الزعفران للخلق ، والشموع للوقود ، مع مجامر العود والعنبر ، ورش ماء الورد وهم يدعون للسلطان ، ما أذهله ، وقوى رغبته فيه ، حتى ان بغلته لاتكاد تجد موضعاً لحوافرها ، حتى نزل الى المدرسة الصالحية ومعه أهل الدولة عن آخرهم ، ومنها توجه الى داره « وكان يوما مشهودا واجتماعا لم يعهد لقاض مثله » .

وكان من عادة بعض السلاطين أن يصطحبوا حريمهم معهم فى المنزهات النيلية والخلوية ، حيث كان حريم السلطان يخرجن على الخيول فى محفات مغطاة بالحريز ويحيط بهن سائر الأمراء والمماليك والخدام وكثيرا ماخرجت نساء القاهرة فى ذلك العصر الى مواضع اللهو والفرجة ، حيث ينكشف ستر الحياء ويختلط النساء بالرجال « الأمر الذى أثار الفقهاء ورجال الدين فنادوا بمنع خروج النساء على ذلك الوجه السافر » .

كما كان بعض السلاطين يسمحون لحريمهم بالنزول الى بولاق ، حتى يتمتعن برؤية النيل بهدف « تغيير الجو » .

وكما سبق أن اشرنا فان سلاطين المماليك كانوا يحرصون على التمتع بهذه المنزهات رغم ماكان يعاينه بعضهم من الالم المرض

حتى ان السلطان المؤيد شيخ الذى كان لا يطيق حركة الفرس لما به الألم ، فقد كان يركب المحفة الى البحر ويحمل منها على الأعناق ، وفى اثناء اقامته فى بيت البارزى كاتب السر ، كان يحمل على الأعناق ايضا حتى يوضع بالحراقة ، ويسير بها فى النيل قاصدا رباط الآثار النبوية ثم يحمل من الحراقة الى الرباط ، « وتارة يقيم بالحراقة وهى بوسط النيل نهاره » .

وكان السلطان يحضر الحراريق من ساحل مصر الى ساحل بولاق ، وهى مزينة بأفخر زينة وأحسنها ، كما صار يركب فى الحراقة الذهبية ، وبقية الحراريق سائرة معه مقلعة ومتحدرة « تلعب بين يديه أحيانا والناس على اختلاف طبقاتهم مجتمعون للفرجة ، فلا ينكر على أحد منهم كما كان المماليك يقومون بلعب الرمح على شاطئ النيل وهو يشاهدهم محمولا على الأعناق كما سبقت الإشارة » فمرت على الناس ببولاق فى تلك الأيام والليالى أوقات لم نسمع بمثلها ولم يكن فيها — بحمد الله — شئ ينكر ، كالخمور ونحوها ، لاعراض السلطان عنها » .

ولم يكن السلطان المؤيد شيخ فقط هو الذى ينزل الى بيت المقر الناصرى بن البارزى — المثل على النيل — بل يبدو ان ذلك استمر حتى عهد السلطان الأشرف برسباى الذى نزل الى هناك فى ذى الحجة سنة ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م ، وقدم بين يديه فى النيل أيضا غرابان (٢٣) فلعبا كما هى العادة عند محاربة الفرنج ..

وكان من الطبيعى الا يقتصر الأمر على التنزه على صفحة النيل فقط بل ان كثيرا من الناس اعتادوا ركوب المراكب فى الخلجان والبرك ، كالخليج الناصرى (٢٤) وبركة الرطلى ، حتى انه فى شهر ربيع الآخر سنة ٧٨١هـ / ١٤٧٩م منعت مراكب المتفرجين

من دخول الخليج الناصري وبركة الرطلى من أراضى الطبالة ، وذلك عن طريق وضع سلسلة على قم قنطرة الخور (٢٥) وعلى قنطرة الفخر بموردة الجبس لهذا الغرض . ويبدو أن هذا المنع أيضا لم يقتصر على الخلجان والبرك ، بل انه امتد كذلك الى المتفرجين فى البحر ويقصد به نهر النيل ، فقد حدث فى جمادى الآخرة سنة ١٣٨٧هـ / ١٣٨٧م ، عندما توقفت زيادة النيل واستمر ذلك سبعة أيام « ان بادر الأمير سيف الدين سودون نائب السلطنة بالديار المصرية الى المتفرجين ، وكبس عليهم فى الليل وقبض على جماعة وانتهرهم »

وفى عهد السلطان الأشرف قايتباى ، كان الأمراء كذلك يلهون فى البرك ، وفى رمضان سنة ٨٩٤هـ عمل الأتابكى أزيك وقدة حافلة وحراقة نפט فى بركة الأزيكية ، وعزم على الأمراء هناك ، وقضوا ليلة حافلة ، وتكرر منه ذلك وعزم أيضا على ابن السلطان فنزل اليه ، وبات عنده فى القصر المطل على البركة وتخلل ذلك أسمطة حافلة وتقديم التقامم الجزيلة ، وكانت هذه أول مرة يخرج فيها ابن السلطان منذ نشأ ، فقد كان مقيما بالقلعة « لم ير البرقط » .

وكان الناصر محمد بن قايتباى ينزل الى بولاق ويشق البحر فى مركب ومعه بعض المعوام وأولاد عمه جانم لحضور الاحتفال بمولد الأولياء مثل سيدى اسماعيل الامبابى ، ويحرق ببولاق حراقة نפט حافلة ، وحدث أن بات تلك الليلة فى المراكب « وكانت من الليالى المشهودة فى القصف والفرجة ، وفعل ذلك عدة مرات » وكثيرا ما كان يتوجه الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية وبات بها ، ثم كان يشق القاهرة فى موكب حافل « وحجبتة خاله قانصوه وبعض الأمراء ، وجعل قدامه طبلين وزمرين ، وعبيدا سودا ترمى بالنقوط قدامه على هيئة الكشاف » .

كذلك عنى السلطان الغورى بعمارة المراكب ، خاصة الأغربة التى كانت تعمّر فى رشيد ، وعند وصولها عند رأس الجزيرة الوسطى يتجمع الناس للتفرّج عليها وقد زينت بالصنّاجق والشطّفات ودقت فيها الطبول وزعقت الزمور « واجتمع هناك الناس أفواجا أفواجا . وقد حضر السلطان بنفسه عرضا لهذه الأغربة حيث أحضرت بين يديه فلعّبوا قدامه فى البحر ذهابا وإيابا والطبول والنقّوط عمالة وأرموا قدامه فى البحر عدة مدافع ، وكان له يوم مشهود ، واجتمع هناك الجم الغفير من الناس وأقام السلطان هناك الى ما بعد العصر » ، حتى يقال انه لم يقع للسلطان منذ أن تسلّطن يوم مثل ذلك اليوم فى القصف والغرجة .

وقد أتيح يوما بين الناس أن السلطان قد عمر مركبا بيولاقي على صفة المركب القديم المعروف بالذهبية ، وبعد الانتهاء من اتمامها ، أمر بتزيينها بالصنّاجق وأن قوضع فيها الطبول والزمور والنقّوط ، وأن تحضر على تلك المهيئة من بولاقي الى تحت المقياس حتى يشاهدها السلطان وهو هناك .

وقد رسم السلطان للامراء ، باحضار طبلخاناتهم فى مراكب عند المقياس ، ففعلوا ذلك ، حتى كان صوت الطبول والزمور مع الكوسات كصوت الرعد القاصف ، فكانت تلك الليلة من الليلية التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، وكان الناس يقبلون على استئجار المراكب ، حتى وصل ترى كل مركب نى تلك الليلة خمسة دنانير وأكثر من ذلك .

وكان والى القاهرة يدرّ طوال الليل فى مركب خاص به وينادى للناس بالأمان والاطمئنان « الا يشوش على أحد ولا مملوك يعبت على امرأة .. » . ويصف ابن اياس تلك الليلة بقوله :
:

« وكانت ليلة كثيرة الاضطراب ، ماجت فيها الناس وخرجت البنت من خدرها حتى تنظر وقدة السلطان وحراقة النفط » .

ويبدو أن المؤرخ ابن اياس كان شاهد عيان لأحداث تلك الليلة وانفعل بها حتى انه نظم فى وصفها قصيدة تعتبر - فى رأى الباحث - من أجمل ما قيل فى وصف مثل تلك الليالى واشملها (٢٦) .

ويستمر ابن اياس فى تصويره لمباهج تلك الليلة وماحوت من أسباب المتعة والترفيه ، فيمتدح السلطان الغورى بهذه المناسبة مشييرا الى أن الاحتفال بهذه الوقدة قد دام طوال الليل حتى الصباح .

وقيل ان حراقة السلطان كان مصروفها نحو من مائة وسبعين ديناراً وقد حضرها القضاة الأربعة واعيان الناس وقراء البلد قاطبة والوعاظ .

خلاصة القول أن نهر النيل والخلجان الخارجة منه ، وكذا عدد من البرك التى اشتهر وجودها فى العصر المملوكى كانت ميادين مناسبة لممارسة كثير من ألوان الترفيه والتسلية فى عصر سلاطين المماليك ، سواء للخاصة أو العامة فقد تساوى فى ذلك الجميع .

المتنزهات ومواضع الفرجة :

حقا لقد تعددت وسائل الترفيه والترويح عن النفس فى عصر سلاطين المماليك ، وقد أفاضت المصادر المعاصرة فى ذكر أماكن المتنزهات من حدائق وبرك وغيرها ، وماكان يحدث فيها ، وكيف كان الناس يستمتعون بأوقات فراغهم فى هذه الأماكن . .

ويمكن ادراك أهمية الدور الذى قامت به هذه الأماكن ، من حيث الترفيه على الناس فى ذلك العصر اذا عرفنا أنها كانت أقل وسائل الترفيه تكلفة أو بمعنى آخر كانت من أكثر وسائل الترفيه شيوعا ويسرا بالنسبة لجميع الطبقات ذلك بعكس ألوان أخرى من وسائل الترفيه التى تتطلب مستوى خاصا ، ومقدرة مالية معينة ، كما تتطلب بعض المستلزمات والأدوات ، كما هو فى الصيد والفروسية ولعبة البولو وغيرها .

والحديث عن المتنزهات فى العصر المملوكى يستلزم القاء الضوء على طبيعة هذه المتنزهات ومواضعها ، خاصة أن الممالك استحدثوا كثيرا منها بدافع الرغبة القوية لديهم فى الاستمتاع بكل مباحج الحياة ، وقد أوردت المصادر المعاصرة أسماء كثيرة لمتنزهات متعددة فى عصر سلاطين الممالك .

ومن أشهر متنزهات الممالك القديمة . بر الجيزة ، قريبا من الأهرام حيث كان المسلاطين ينصبون عندها الخيام زمن الربيع على سبيل التنزه .

وأىضا منظره الخمس وجوه ، وقد ذكرها المقرئى ضمن المناظر التى كان يتنزه فيها الفاطميون (٢٧) ، ويذكر أيضا أنه هو نفسه قد أدركها « وهى من أعظم متفرجات القاهرة » وقد جدد السلطان المؤيد شيخ عمارة منظره فوق الخمس وجوه القديمة ، ومنظره التاج التى كانت أيضا من جملة المناظر التى ينزلها الخلفاء الفاطميون للنزهة ، لكنها خربت ولم يبق منها سوى أثر كوم توجد تحته الحجارة ، وماحول هذا الكوم صار من مزارع أراضى منية الشيرج .

كما عرف من تلك المتنزهات ما عرف بأرض الطبالة ، وكانت تقع على جانب الخليج الغربي بجوار خط المقيس (٢٨) ، وكانت من أحسن متنزهات القاهرة وسميت كذلك نسبة الى مفنية الخليفة الفاطمي المستنصر بالله المعروفة بنسب الطبالة وكانت أرض الطبالة « أحسن وضع في ظواهرها لمرجة ، لاسيما أيام القرطم والكتان (٢٩) » .

وكان بظواهرها برتة الفبل التي تمثل دائرة كالبدر « والمناظر فوقها كالنجوم وعادة ماكان السلطان يركب فيها بالليل ، وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب (٣٠) » .

ومن المتنزهات القديمة أيضا ، جزيرة الروضة التي كانت من أهم المتنزهات أيام الفاطميين ، وأنشئت فيها المناظر الكثيرة ، ويذكر ابن اياس نقلا عن ابن المتوج أن اسمها قديما كان « جزيرة مصر » فسميت الروضة زمن الأفضل بن أمير الجيوش ، وكانت قبل ظهور الاسلام متنزها لملوك القبط ، كما كان بها مكان يعرف بالهودج ، الذي عمره الامر بأحكام الله الفاطمي ، ليكون متنزها له ولزوجته البدوية ، وكان كثير التوجه اليه ، وأيضا كان بها بستان يعرف بالمختار أنشأه الإخشيد محمد بن طغج وعمر به قصرا مرتفعا ، وقد خربت فيما بعد الى أن عمرها وأصلح ما أفسد منها المظاهر ببيبرس البندقداري ، كما فرق أبراجها على الأمراء .

وقد ذكر الرحالة ابن بطوطة الذي زار مصر في عصر المماليك في وصف الروضة : « وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة ، وهو مكان النزهة والتفرج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة وأهل مصر ذوو طرب وسرور » .

كما أشار الرحالة أنه حضر بها مرة فرجة بسبب برء الملك
الناصر من كسر أصاب يده ، فزينت الأسواق وعلقت الحلل والحلى
وثياب الحرير وبقي ذلك أياما (٣١) .

كما تناولها الشعراء فى كثير من شعرهم ، كما سبق ذكره ،
ووصفها البعض نثرا فقال : (٣٢) « ان هذه الجزيرة التى بين مصر
والجزيرة أعدل موضع فى الدنيا مزاجا وأصح هواء وأطيب مسكنا
قولا يعرفه العاقل الفاضل ولا يهتدى اليه الخمر الجاهل . . . »

وكان أيضا من متنزهات مصر موضع يعرف بالسبع همائل ،
وكان بالقرب من شبرا على بحر النيل ، وكان يقصد للفرجة ، وكذا
المنية ويقصد بها منية السيرج وقد قيل فيهما شعر سبقت الإشارة
اليه .

هذا الى جانب مقترجات أخرى قديمة مثل كوم الريش وقناطر
الأوز وبرك البشنين ، وقد قيل فى هذه المواضع أيضا كثير من
الشعر وقد جمع بعض الموالاة اسماء المقترجات (٣٣) .

وكان هناك مكان آخر يعتبر من مقترجات مصر القديمة ،
يعرف بالتكة وخليج الذكر ، وهو مكان الأزاكية الآن (٣٤) .

وكانت هذه الأرض قديما عامرة بالمناظر والبساتين ، وكانت
تعرف أيضا باسم مناظر اللوق ، وهى قريبة من بحر النيل ولما
بنيت قنطرة على خليج الذكر كان فوقها تكة ، يجلس عليها
المتفرجون ، واستمرت كذلك حتى سنة ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧ م وتلاشى
أمرها ، ثم حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون خليجه المعروف
بالخليج الناصرى فى سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م .

واشتهر أيضا من بين هذه المتنزهات ميدان اللهو ، جهة
بولاق حيث كان الناس يقصدونها فى ذلك العصر ويقيمون فيها

الأخصاص المصنوعة من الخوص ، كما زرعوا حولها الرياحين وزينوها بالرخام والدهان .

وهناك كان يزدهم المتنزهون رجالا ونساء ، حيث كان من الطبيعى أن يتبعهم عدد كبير من الباعة ، فيختلط الناس من غير كلفة أو حجاب وكان من معالمها المشهورة جامع الخطيرى السابق الإشارة اليه .

والجدير بالذكر أن من تلك المقترجات القديمة مابقى على حاله حتى فى العصر المملوكى ، ومنها أيضا ما أضاف اليه المماليك شيئا من التحسين والتغيير كما انهم كثيرا ما استحدثوا متنزهات ومقترجات جديدة ، ربما لتناسب أسلوبهم فى الحياة من حيث رغبتهم الشديدة فى التمتع بمباهج الحياة - كما سبقنا الإشارة - وربما كان ذلك نتيجة لميولهم العمرانية والمسحة الدينية التى كان يستشعرها سلاطين المماليك ، حيث كانوا غالبا ماتبدا عمارتهم لمكان التنزه ببناء احدى الخانقاوات أو احد الجوامع ، ثم تكثر العمارة حولها من جانب الأمراء وذوى الجاه ويواكب ذلك بناء القصور والمتنزهات من البساتين والحدائق وغيرها .

المتنزهات الحديثة :

ولعل من تلك المقترجات التى أحدثها المماليك على سبيل المثال ما عرف برباط الآثار النبوية المطلة على النيل بجوار البستان المسمى بالمعشوق ، ويقال ان الذى عمره هو صاحب بهاء الدين ابن حنا وكان وزيرا بالديار المصرية ت ٧٠٧هـ / ١٣٠٨م وقيل انه « اشترى الآثار الشريفة بجملة كبيرة من المال بلغت ستين ألف درهم » وأودعها فى هذا المكان ، وصار الناس يقصدونها بسبب الزيارة كل يوم أربعاء (٣٥) .

وقال المقرئى : « وأدركنا لهذا الرباط بهجة وللناس فيه
اجتماعات ولسكانه عدة منافع ممن يتردد اليه أيام كان ماء النيل
تحتة دائما » .

• وكان من عادة بعض السلاطين الركوب اليها للزيارة .

ومن المتنزهات الجميلة وقتذاك ما عرف باسم الجزيرة الوسطى
أو جزيرة أروى أو بولاق ، حيث تقع تجاه بولاق (٣٦) ، وعرفت
أيضا بالوسطانية وقد انحسر عنها ماء النيل سنة ١٣٠٠هـ / ١٧٠٠م
وكان بها قصور ودور للسكنى وطواحين وسواق ، ومناظر وبساتين ،
وقد أنشأت ابنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى بها جامعا ، وكانت
من أجمل متنزهات القاهرة .

وقد اهتم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإنشاء البساتين
والمتنزهات وأماكن اللهو ، حيث عمر القصور والخانقاه بناحية
سرياقوس .

• كما جعل هناك ميدانا كبيرا ، وحفر اليها خليجا من النيل ،
لتمر فيه المراكب الى تلك الجهة ، عرف بالخليج الناصرى - سبقت
الإشارة اليه - وأنشئت هناك البساتين الجميلة وغرست فيها الأشجار ،
وسكن الناس على حافتى الخليج فيما بين المقس وساحل النيل
ببولاق ، وصار هذا الخليج « مواطن أفراح ، ومنازل لهو ، ومغنى
صبابات ، وملعب أتراب ومحمل أنس وقصف فى المراكب أو فيما
عليه من الدور » وكان الناس يركبون فيه المراكب على سبيل اللهو
والنزهة ، الى ان منعت المراكب منه ، كما سبقت الإشارة الى ذلك .

واهتم السلطان الناصر أيضا بإنشاء البساتين والحدائق فقد
أنشأ بحوش القلعة الكبير حديقة ، نقل اليها الأشجار والرياحين

من سائر البلاد « حتى من بلاد الهند مثل جوز الهند والسنبل والقرنفل والكادي وغير ذلك من البساتين الشامية » .

كما أجرى إليها الماء من النيل الى القلعة بواسطة سواق نقالة لارتفاع مكان الحديقة ، واهتم ايضا بإنشاء القصور بالقلعة التى استورد لها الرخام المشجر بالصدف والمرصع بفصوص الذهب ويقال انه أنشأ فيها محلات للحيوانات الغريبة وساحات للحيوانات الداجنة وكان من أبهج تلك القصور ، القصر الأبلق .

كما ان السلطان المؤيد شيخ أثناء سرحته الى البحيرة فى ذى القعدة سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م ، التى انتهى فيها الى مريوط التى اقام بها أربعة أيام ورسم بعمارة بستان السلطان بها حيث كان قد تهدم . كذلك أنشأ السلطان الأشرف قنصوه الغورى بستانا تحت القلعة والمتنزه العجيب بالملقة وحفر مجرى الماء من مصر الى القلعة ، كما اهتم بالقصور والمتنزهات ، قد شغف هذا السلطان بالحدائق والأزهار ، واتخاذ الأحواض والنافورات والسواقي النقالة ، كما شرع فى بناء بحرة فى ذلك البستان الذى أنشأه بالميدان وكان طول هذه البحرة نحو من أربعين ذراعا أو أكثر ، كما بنى هناك عدة مقاعد ومناظر تطل على ذلك البستان .

وقد اشتمل هذا البستان على أنواع من الأزهار الغريبة منها ما نقل من الشام ، فقد كان السلطان الغورى حريصا على الاستمتاع بذلك الى أقصى درجة ، حيث أعدت له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والابنوس وكان يفرش فوقها مقعدة مخمل بنطع ، ويجلس عليه تظله فروع الياسمين وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه » .

بل كان يعاق فى الاشجار أقفاص الطيور ما بين هزارات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وغير ذلك ، وكان أيضا « يطلق

بين الأشجار دجاجا حبشيا ويطا صينيا وحجلا ٠٠ حتى صار هذا الميدان جنة على الارض » .

ولا غرو في ذلك فقد وصف ابن اياس هذا السلطان بانه كان من دأبه « الركوب في كل يوم والاشتغال برؤية التنزه والرياضات دائما » .

وكان من عادة السلاطين المماليك الخروج للنزهة في مواضع متعددة خارج القاهرة كالاسكندرية والعباسة والفيوم وطرة وكذا تروجة وغيرها .

وعلى سبيل المثال فان السلطان الأشرف قايتباي سافر الى الفيوم أكثر من مرة على سبيل التنزه ، بدعوى من الأمير خاير بك من حديد ليرى البستان الذى أنشأه هناك ، وقد صاحب السلطان معه عددا من الأمراء الأكابر ، والأمراء العشرات ، وعددا وافرا من الخاصكية « وأقام هناك أياما وهو فى أرغد عيش على سبيل التنزه » . كما سافر السلطان الغورى أيضا الى الفيوم وتكرر منه ذلك على سبيل التنزه .

والجدير بالذكر أن سلاطين المماليك - عند خروجهم للنزهة - كانوا يحرصون على الظهور بمظهر القوة والأبهة ، خاصة اذا كان السلطان يصطحب معه فى نزهاته واحدا أو أكثر من قصاده الأجانب .

وكانوا يصطحبون عددا كبيرا من الأمراء ، وكل من يتطلب الأمر حضورهم من أجل توفير الراحة للسلطان ومن معه . فقد كانت تنصب خيمة كبيرة للسلطان ، تعرف بالندورة أو الوطاق (٣٧) وكذا تقام خيام الأمراء ، وذلك فى العادة كان ضروريا ، خاصة اذا كانت تلك النزهة فى موضع بعيد ليس به مكان خاص لنزول

السلطان ، أو اذا استغرقت النزهة وقتا طويلا • وقيل أن أحد
اليمن قد أهدى الى السلطان الناصر حسن محمد بن فلاوون
غريبة الشكل ، بديعة الصنعة ، بها قاعة وحمام ، وكان يذ
فى نزحاته ، حتى صار الناس يذهبون للتفرج عليها ، وقد ا
اقامته بها ثلاثة أشهر كاملة وهو فى الجيزة بعد أن أناب م
يلبغا فى تصريف الأمور •

ويبدو أن بعض السلاطين والمماليك كانوا - رغم حرصهم
اظهار العظمة أثناء التنزه - يتبسطون ، وينطلقون دون ت
أو رسوم أثناء رحلاتهم الترويحية ، حتى ان السلطان الن
عندما سافر الى الفيوم أول مرة - كما يقول ابن اياس -
وقعت منه أمور غريبة ، فقد بلغه من مصدر ثقة أن السلطان قد
هذه السفرة فتكا زائدا ، كما أظهر أنواعا من العظمة ، وكاز
الأسمطة الحافلة وكذا الطوارى الفاخرة بطول الطريق فى كل
أربع مرات ، « وكان السلطان يطوف على العسكر بالسكر فى
من السقاين ويسقيهم السكر بالطاسات ، وحكوا عنه أشياء
من هذا النمط ، وكانت هذه السفرة السابق الإشارة اليها
سبيل التنزه » •

ويضيف ابن اياس انه شاهد موكب السلطان العائد من
السفرة ، عندما شق القاهرة الى القلعة فى أحداث شهر ذى ال
سنة ٩١٨ هـ ١٥١٢ م •

أما بالنسبة لامراء المماليك فقد كانوا أيضا حريصين
الاستمتاع بالتنزه ، واقامة مواضع النزهة الخاصة بهم الى ج
خروجهم مع السلطان لهذا الغرض ، فقد أنشأ الاتابكى بكتمر خ
فى القرافة الصغرى « وأنشأ بها حماما وفرنا وطاحونا وسـ

وجنينة وقرر بها صوفية وحضورا وجعل للصوفية خلاوى فى هذه الخانقاه يسكنون بها دائما » كما جعل فيها ربعة شريفة مكتوبة بالذهب ، بلغ مصروفها الف دينار وكانت بخط الأعاجم .

ويضيف ابن اياس قائلًا : « ولم تزل هذه الربعة مقيمة بهذه الخانقاه والناس يتوجهون الى هذه الخانقاه بسبب الفرجة على هذه الربعة ، فانها كانت من محاسن الزمان » واستمر ذات الى سنة تسع وتسعمائة حيث نقلها السلطان الأشرف قنصوه الغورى الى مدرسته التى فى الشرابشين .

كما كان القاضى جمال الدين محمد بن عمر بن على الطنبدى ، المعروف بابن عرب الشافعى (ت ٨٤٦) يقضى أكثر وقته فى بستان له بجزيرة الفيل .

ويذكر ابن بطوطة أيضا أن بعض علماء مصر كان من عادتهم أن يذهبوا بعد صلاة العصر الى مواضع الفرج والنزهات ، وقد ينفرد بعضهم عن أصحابه أثناء ذلك .

وكان بعض الأمراء يلهون ولكن فى سترة ، كما كان يفعل تغرى بردى ابن عبد الله نائب الشام (ت ٨١٥ هـ) الذى كان يلهو لكن فى سترة وحشمة وافضال .

وجدير بالذكر ان مواضع اللهو والتفزه لم تقتصر على الأماكن المعهودة والمخصصة لهذا الغرض ، بل ان الناس فى ذلك العصر قد اعتبروا القرافة مكانا للهو والتفريح عن النفس ، حتى انهم كانوا يخرجون اليها فى أيام المواسم والأعياد ، ومعهم الريحان والزهور ، ويصطحبون أولادهم ونساءهم وهناك يكثر الغناء والرقص واللهو وقد يبيتون هناك .

وقد عبر المقرئ عن عذرها فقال انها « معظم مجتمعات أهل مصر وأشهر متنزهاتهم » . .

وكثيرا ما كان السلطان ينزل ويبيت عادة في تربة أبيه ، وكان ذلك يستتبع حدوث مساوئ لا ينبغي ذكرها ، حيث لم تكن القرافة في ذلك العصر مجرد مكان لدفن الموتى ، وانما كانت مدينة صغيرة بها جميع مرافق الحياة الضرورية ، حتى وصفها البلوى المغربي بأنها « بلدة كبيرة قائمة بنفسها مستقلة بأسواقها ومساجدها » . .

ويبدو أن ذلك الحال من حيث التنزه وارتداد المتنزهات وأماكن الفرجة ، كان شائعا في انحاء الدولة المملوكية ، ولم يكن ذلك مقصورا على أهل مصر فقط ، حيث يقول ابن بطوطة : « وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا ، انما يخرجون إلى المتنزهات وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم إلى الليل » . . بالاضافة إلى اهتمام أهل الشام أيضا بعمارة أماكن للتنزه والفرجة ، فعلى سبيل المثال في شوال سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م شرع في عمارة القبة وعمل المربع والحمام على ساقية نخيلة بظاهر حماة ، وقد فرغت العمارة فيها بعد حوالي ثلاثة شهور ، وجاء ذلك من أنزه الأماكن .

ويقول ابن عبد الظاهر ان السلطان المنصور قلاوون قد شارك بنفسه وبصحبه الأمراء والخوادم وكثير من الناس في إعادة حفر بركة قريبة من باب النصر بالكرك (٣٨) حتى حفرت ونظفت في ثلاثة أيام .

وهكذا فعلى الرغم من المتاعب والأزمات التي تعرض لها عامة الناس في عصر المماليك ، فان روح المرح والرغبة في الترفيه والتسلية ظلت تسود حياة سكان المدن ، وخاصة المماليك الذين كانوا يعيشون عيشة الترف ، بينما كان معظم المصريين في ذلك

الوقت يعملون في زراعة الأرض ، ويدفعون الضرائب ، وإلى جانب ذلك كانوا يقومون بصنع ملابس الممالك الفاخرة ، وبناء عمائرهم فانهم على الرغم من ذلك لم يحرموا من بعض المناصب الحكومية كالوظائف الدينية والقضاء .

بل ان أحد السلاطين أمر بالنداء في القاهرة « بأن سلاحا لايركب فرسا ، ولايشترى سلاحا ، ولاسيفا ولارمحا » وربما قصد بالفلاح كل من هو مصرى من غير الممالك .

حقا لقد جمعت دولة سلاطين الممالك في غالب وقتها بين القوة والترف عندما كان سلاطينها أقوياء ، على حين كانت تفقد ذلك خاصة في فترات ضعف السلاطين وتولى السلاطين الأطفال أمور البلاد ، ولعل ذلك يتمشى مع قول ابن خلدون في أن من طبيعة الملك الترف فيقول معللا ذلك « لأن الأمة اذا تغلبت وملكت مابأيدى أهل الملك قبلها ، كثر رياسها ونعمتها فتكثر عوائدهم ، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته . ويذهبون الى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم » .

وتصير لتلك النواقل عوائد ضرورية في تحصيلها ، وينزعون مع ذلك الى رقة الأحوال ويتفاخرون في ذلك ويفخرون فيه غيرهم من الأمم في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره ويناغى خلفهم في ذلك سلفهم الى آخر الدولة . .

واذا حاولنا تطبيق رأى ابن خلدون هذا بالنسبة لدولة سلاطين الممالك فان ذلك يصبح متطابقا الى حد كبير لما كانت عليه هذه الدولة من أسباب القوة والترف ، فلا ريب في أن ترف دولة الممالك ، وخاصة في عصرها الأول قد زادهما قوة على قوتها ، ولكنها عندما أخذت في الهزم أخذت قوتها تتلاشى ، ولم تبق الدولة على حالها من القوة ، حتى سقطت على أيدي العثمانيين .

هوامش الفصل الثالث

(١) يقال ان الشاعر عدى بن زيد كان أول من لعب بالمصولجان من العرب ، كما أن الخليفة العباس هارون الرشيد هو أول من لعبها من الخلفاء (انظر ، المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٤٨ ، ماجد ، العصر العباسى الاول ، ج ١ ص ٢٤٥ ، ابراهيم الفحام ، مقال عن ألعاب الكرة عند العرب .)

(٢) والمعروف ان السلطان المعز ايبك قتل بواسطة بعض المماليك والخدام على يد زوجته شجرة الدر عقب عودته من لعب الكرة فى ذلك اليوم من ربيع أول سنة ٦٥٥ هـ

(٣) ذكر هذا الميدان باسماء متنوعة مثل : ميدان القلعة ، والميدان الاسود وقره ميدان ، ومكانه اليوم ميدان صلاح الدين ويقال له المنشية (انظر المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٨) .

(٤) المقصر الابلق ، انشأه الناصر محمد فى شعبان سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م وانتهت عمارته سنة ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م ، وقد اندثر هذا القصر ، وكان قائما فى الجهة الغربية من القلعة .

(٥) هما الاتابك فارس الدين أقطاي المستعرب والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين بن حنا .

(٦) هو السلطان قنصوه الغورى ، حيث ابتداء بضرب الكرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الاول سنة ٩٢٠ هـ وكانت حالته الصحية ليست جيدة .

(٧) كان الاصطبل السلطانى ينقسم الى عدة أقسام هى :

الاصطبل الخاص ، وبه الخيول الخاصة بالسلطان التى تسير فى المواكب ، واصطبل الحجورة ، وبه الخيول الخاصة بلعبة الكرة أو

الرياضة ، واصطبل الجوق ، وبه خيول الممالك للتابعين للسلطان ، واصطبل البيمارستان وبه الخيول الضعيفة ، واصطبل الجشاء ، وبه الخيول المهرمة التي حان أجلها ، واصطبل البريد ، وبه خيل البريد ، واصطبل اليفغال ، واصطبل السباع ، واصطبل الفيلة ، كما كان يتبع الاصطبلات السلطانية « المناخات » وهي الامكنة المخصصة لانواع الجمال السلطانية ومنها مناخ الجمال النجاشي ومناخ الهجن والنيافى . (انظر ، على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المسالك البحرية ، ص ١٦٧ ، جمال الغيطانى ، ملامح القاهرة فى الف عام ، القاهرة ١٩٨٣ ، سلسلة الهلال ، من ٤٦ ، ٤٧) .

(٨) وصف القلشندي هيئة السلطان فى الركوب لصلاة العيدين بقوله : « أما صلاة العيدين ، فعادته أن يركب من باب قصره وينزل من منقذه من الاصطبل الى الميدان الملاصق له ، وقد ضرب له فيه دهليز على اكمل مايكون من الهيئة ويحضر خطيب جامع القلعة الى الميدان فيصلى به العيد ويخطب ، فاذا فرغ من سماع الخطبة ركب وخرج من باب الميدان والامراء والممالك يمشون حوله ويطلع من باب الاصطبل ويطلع الى الديوان الكبير حيث يمد السماط » (القلشندي صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٦) .

(٩)

حوييت بطشا واحسانا ومعرنة وليس يحمل هذا كله الفرس

(١٠) من المعروف ان لعبة الكرة من فوق ظهور الخيل فى عصر الممالك هي التي تعرف اليوم باسم البولو Polo وتقام لها مباريات دولية الآن ، حتى ان المليدى ديانا سينسر تطلب من زوجها الامير تشارلز ولى عهد بريطانيا أن يعتزل هذه اللعبة لاحتمال تعرضه للخطر (حريدة الجمهورية العدد (١٠١١٣) بتاريخ ٦ سبتمبر ١٩٨١) .

(١١) يقول

ياحسنتها كرة كالنجم سائرة قد طال ترددها بين الجواكين
تفرق الهم اذ كانت مؤلفة بين القلوب بأراء السلاطين
لجبرهم لقلوب الجند اذ لعبوا مع الملوك وهم بعض المساكين

(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٩٣) .

وان كنا لانعرف لمن تنسب هذه الابيات ، فقد قال الشاعر الدهان ملغزا فى الكرة :

ومضروب لسه جـرم
يعاقب وهو من كرم السجـ
يلا جـرم ولا ذنب
ية طيب القلب
(انظر ابن حجر ، الدرر ، ج ٢ ، ص ٧٩) .

(١٢) المنصورية بيت مآتب السر ناصر الدين بن البارزى ، وكان يقع
بشاعى النيل ببولاق .

(١٣) الحراقة الذهبية جمعها حراقات وحراريق ، نوع من السفن
الحربية استخدمت لحمل الاسلحة النارية (كالمنار الاغريقية) وكان بها
مرام تلقى منها النيران على العدو ، كما استخدم نوع منها للاستعراضات
التي تقام فى الحفلات العامة .

(١٤) وكانت توجد أسواق اخرى مهمة تتصل بالخيل والسباق
ولوازمهما وتعتبر مكمله لسوق الخيل منها : سوق المهازيين لبيع المهاميز ،
وسوق اللجيين لتباع فيه آلات اللجم ، وسوق الجوخيين فكان مخصصا
لبيع الجوخ المستورد لتصنع منه ثياب السروج .

(١٥) فعلى سبيل المثال فقد قدم فى رمضان من سنة ٧٧٧ هـ الامير
بيدمر نائب الشام ومعه هدية السلطان الاشرف شعبان لم يعهد مثلها لنائب
قبله ، منها حائتان وخمسون فرسا ، كما اهدى لجميع الامراء والاعيان
عدة هدايا ، ونزل بالميدان الكبير على النيل . . .
(انظر ، المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ٢٥٦) .

(١٦) يقصد بالتبريز هنا المبارزة ، فقد ذكر الصيرفى عند حديثه
عن هذه الواقعة ما نصه « وعندما تبارزوا للمرة الثالثة . . . » (انظر
نزهة النفوس والابدان ، ج ١ ، ص ١٩٢ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ٢ ،
ص ٥١٦ ، حاشية ١) .

(١٧) هو السلطان ابو سعيد بهادر خان بن خدا بندا . آخر ملوك بنى
هولاكو ، ملك ايران .

(١٨) ابن حجر . الدرر ، ج ٢ ، ص ٤ . وقد ذكر ان مصروف الحظير
بلغ سبعة آلاف درهم فقط .

(١٩) يقول :
ايها العاقل اللبيب تفكر
قد تمانى فى البغى والبغى حتى
فى المليك المظفر الضرغام
كان لعب الحمام جد الحمام

(٢٠) يقول .

ديكى صياح من الهنود حذار من يأسه الشديد
ان كان منقاره (قصيرا) فان كفيه من حديد
كأنما عرفه عقيق يرى على وردة الخدود
له اذا هاجه نقيار من خصمه وتبه الاسود

(٢١) يقول :

أهلا وسهلا بطلعة الديك كأنه عروة الصعاليك
أتى بتاج كأنه ملك بين دجاج مثل المماليك
يطيسان مثل الحرير مع التبر على منكببيه محبوبك
وأيقه ان يشير من تيهه كأنه الصالح بن زريسك

(٢٢) ابن بطوطه ، رحلة ، ص ٤ وجاء فى القرآن الكريم (٠٠ فاذا خفت
عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى) سورة القصص آية رقم ٧ واليم
هو البحر .

(٢٣) الغراب ، مفرد أغرية ، وهى نوع من السفن الحربية التى كانت
تستعمل فى العادة فى البحر الابيض المتوسط منذ أيام الامبراطورية الرومانية
والارجح ان هذا النوع من السفن سمى بهذا الاسم نظرا لمشابهته لهذا الطائر
من حيث السواد لطلاتها بالقار والزفت ، كذلك لاستواء مناقيرها .

(انظر ، الخطيب الجوهري ، نزهة النفوس والابدان ، ج ٣ ، ص ٧٢) .

(٢٤) الخليج الناصري ، عندما انشأ السلطان الناصر محمد بن قلاوون
الخانقة بسرياقوس ، أمر بحفر هذا الخليج سنة ٧٢٥هـ لتوصيل الماء اليها .
(انظر ، محمد حمد المنادى ، نهر النيل فى المكتبة العربية ، القاهرة
١٩٦٦ ، ص ١٣٣) .

(٢٥) الخور ، هو مصب الماء فى البحر ، وكان خليج قم الخور يخرج
من النيل ويصب فى الخليج الناصري ليقوى جرى الماء فيه ، وكانت على
خليج قم الخور قنطرة هى المشار اليها (المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ١ ،
ص ٣٥٧ حاشية ١) .

(٢٦) ومنها

لم يسمح الدهر فيما جاد من فرج كلية سمحت للاشرف الغورى
فان ترد وصفها أنشدت مرتجلا فى وقدة الليل بالاملاك والدور

من بر مصر ومقياس يقابله كان التقابل بين النور والنور
حاكت مصابيحها ضوء النجوم اذا ما أزهت بالدجى فى ليل ديجور

(٢٧) منظره الخمس وجوه ، أنساه الامضل بن أمير الجبرئى ، وكان
بها خمسة أوجه من المحال الخشب التى تنقل الماء لسقى البستان العظيم
الوصف .

(انظر . المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ق ١ ، ص ٥٢٦ ، حاشية ١) .

(٢٨) المقس ، قرية كانت على النيل ، وموقعها اليوم جامع أولاد منان
وشارع الجمهورية وحديقة الازبكية .

(٢٩) والمناظر جمع منظره وهى دور بناها الخلفاء الفاطميون فى
القاهرة والفسطاط والروضة والقرافة للنزهة والاشراف على الاحتفالات
وتوديع الحملات الحربية (انظر ابن سعيد ، النجوم الزاهرة ، ص ٢٥) .

قال فيها صاحب النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة .
سقى الله أرضا كلما زرت روضتها كساها وحلاها بزيئته القرط
تجلت عروسا والمياه عقودها وفى كل قطر من جوانبها قرط

(٣١) ابن بطوطه ، رحلة ، طبعة القاهرة ١٩٣٨ ، ج ١ ، ص ٢٠ ،
طبعة القاهرة ١٩٦٤ ، ج ١ ، ص ٢٠ ، طبعة دار الكتاب اللبنانى ص ٣٢ ،
٣٣ وقد لوحظ ان طبعة بيروت قد خلت فى هذه الفقرة من عبارة « واهل
مصر ذوو طرب وسرور ونخس أن يكون هذا الاغفال متعمدا من جانب
ناشرى الكتاب والا يكن ذلك اغفالا لما يتطلبه البحث العلمى من أمانة
بغض النظر عن هوية مصدره .

(٣٠) قال فيها ابن سعيد :

انظر الى بركة الفيل التى اكتنفت بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هى والابصار ترمقها كواكب قد أداروها على القمر

وقد استهواه منظرها حين تشرف عليها الشمس فقال ايضا :
انظر الى بركة الفيل التى نصرت لها النزالة نحرا من مطالعها
وحل طرقك مجفونا بيهجتها تهيم وجدا وحيا فى بدائعها
(انظر ابن مقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، ابن سعيد ، النجوم

الزاهرة ص ٢٧) .

(٣٢) هذا من وصف القاضي علاء الدين بن النابلسى فى كتابه « حسن السريرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » (انظر ابن دقماق ، الانتصار ، ص ١١٧) .

(٣٣) وقيل :

يريم جيزة حلاوى صنعة الخلاق خلى دموعى خطيرى بحر فى اطلاق
لو لقط مقياس منية طيب الاخلاق وخذ روضة وخالوا المشتهى بولاق
(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٨) .
وكوم المريش كانت من اجمل متنزهات القاهرة ومكانها اليوم هى
الزاوية الحمراء (انظر بحث لجنة التاريخ بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون
والاداب - المؤرخ ابن تغرى بردى القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٧٣ ، حاشية ٢) .

(٣٤) قال الشاعر : ابراهيم المعمار :

ياطالب التكة نلت المنى وفزت منها بيلوغ الوتر
قنطرة من فوقها تكة وتحتها تلقى خليج الذكر
(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٩) .

(٣٥) وقد زار المؤرخ ابن ظهيرة وراها وهى عبارة عن مرود ومخضب
وقطعة من القضة ، وضم اليها اشياء من آثار الاولياء . والمخضب ، الاجانة
تفسل فيها الثياب وخرقة المخضب .
(انظر ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٩٤ ، حاشية ٦) .

(٣٦) الجزيرة الوسطى ، هى الآن جزيرة الزمالك أو جزيرة المعرض ،
وما زالت من أحسن المواقع للسكن أو المتنزه (انظر ، ابحاث لجنة التاريخ
بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب ، القاهرة ١٩٧٤ ، المؤرخ ابن تغرى
بردى ص ١٧٤ ، حاشية ٢ ، عبد الرحمن زكى ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٢٣ ،
حاشية ٢) .

(٣٧) وطاق ، اصل أوتاق بالتركية موقد النار ، وتقال على السدار
والمخيم (انظر عبد الوهاب عزام ، مجالس السلطان الغورى - القاهرة) .
(٣٨) تعرف بكرك المشويك ، وهى مدينة محدثة البناء . وكانت ديرا
يتدبره رهبان ، ثم كثروا فكبروا ببناءه . (انظر ابن عبد الظاهر ، تشریف
الايام ، القاهرة ١٩٦١ ، ج ٢ ، ص ١٣٨) .

الباب الثالث

الألعاب المنزلية أو الهادئة

الفصل الأول : التردد والشطرنج

الفصل الثانى : ألعاب الورق وألعاب الأطفال

الفصل الثالث : خيال الظل

الفصل الأول

النرد والشطرنج

لعبة النرد :

أصل النرد - النرد فى اللغة - أساس لعبة النرد النرد فى الاسلام - النرد فى عصر سلاطين المماليك ، النرد عند الشعراء فى العصر المملوكى .

لعبة الشطرنج :

الشطرنج وصفتها - تطور الشطرنج على ايدى الفرس والروم - الشطرنج فى الاسلام - الشطرنج عند سلاطين المماليك - الشطرنج عند شعراء المماليك - آداب اللعب بالشطرنج - الشطرنج لغة - أثر الشطرنج العربى على الشطرنج الأوروبى الحديث .



كانت لعبة النرد من وسائل الترفيه التى انتشرت فى عصر سلاطين المماليك . وهى لعبة فارسية الأصل (١) . وهى المعروفة باسم الطاولة وهذه اللعبة كان يمارسها العامة والخاصة فى ذلك العصر فكان الأمراء ورجال الأدب والشعراء يهونون لعب النرد .

وتعرف تلك اللعبة بنرد شير نسبة الى أرد شير بن بابك الذى وضعها ، ولاشك أن المسلمين قد أخذوها عن غيرهم من الشعوب التى احتكوا بها بعد الاسلام ، ويعتبرها البعض من الألعاب الهادئة لأنها كانت تجرى والقوم جلوس ، بعضهم الى جانب بعض على

النقيض من عادات العرب ، إذ أن العربى القح كان يشعر بما فى ذلك من غرابة عن طباعه ومألوف عاداته .

ولعبة النرد تعتمد على الحظ ، ويستعمل فيها ثلاثون حجرا وفصان ، على رقعة رسم عليها اثنا عشر منزلا ، وتكون فى بعض الأحيان أربعة وعشرين منزلا .

وقد أقبل على النرد كثير من الحكام على مر العصور ، فقليل ان هارون الرشيد قدم اللاعبين به وأجرى عليهم الأرزاق .

وقد شاعت لعبة النرد فى المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك وأقبل عليها العامة والخاصة ، فقد كان لها اغراء كبير الى جانب لعبة الشطرنج واغراء هذه اللعبة لمن يلعبها قد يصرفه عن كل شىء حتى عن أداء الفروض الدينية ، فنرى فى العصر المملوكى الشاعر الحكيم ابن دانيال يصف اغراء هذه اللعبة فى عصره واقبال الناس عليها (٢) .

والى جانب لعبة النرد انتشرت كذلك فى عصر سلاطين المماليك لعبة الشطرنج وهى من الألعاب الهادئة التى وضعها حكماء الهند عندما افتخر الفرس بوضعهم النرد ، فناظرهم أهل الهند بوضع الشطرنج ومافيه من التدبير ، حيث رسموا لها رقعة مربعة تتألف من ثمانى خانات طولا وعرضا ورسموا عليها أربعة وستين مربعا بالتساوى ، كما جعلوا فيها ثمانى قطع ومثلها من البيادق وطلت بلونين من طرفيها واجلسوا الملك والوزير فى القلب وأوقفوا فيلين على اليمين واليسرة وجعلوا بجانب الفيلين حصانين من الجانبين ، كما جعلوا الرخين فى الزاويتين ، وصفوا أمامهم صفًا من العساكر ، وعلى هذا النحو يستعد الجانبان للمباراة .

وقد كان الحجاج يتسلون بالشطرنج وهم فى طريقهم الى الحج على ظهور الشقاديىف كما شاع اللعب بالشطرنج ايام الدولة الفاطمية فى مصر حتى ان الخليفة الحاكم بأمر الله أمر بمنع اللعب بالشطرنج ، وصادر رقاع الشطرنج فجمع منها أعدادا كبيرة وأحرقها .

وأقبل سلاطين الممالىك على الشطرنج وعلى اللعب مع المقربين اليهم من الأمراء والعلماء والأدباء ، كما حرص بعضهم اذا خرج فى أسفاره ، أن يحمل معه كمية ضخمة من العاج يرسم خراط الشطرنج حتى اذا لعب السلطان بشطرنج مرة أخذه بعد ذلك أرباب النوبة وجدد غيره للسلطان .

وقد جرت العادة أيضا بأن تصنع أدوات الشطرنج من سائر انواع الجواهر والذهب ، والفضة والأبنوس برقاع الحرير المذهب . كما صنعت من البللور الصخرى(٣) لذا كان من الطبيعى أن نعتبر لعبة الشطرنج من الألعاب الارستقراطية الخاصة بالملوك والأمراء ، لا الفقراء والأراذل ورغم هذا فقد شاع الشطرنج بين مختلف الطبقات حيث لعبه السلاطين والأمراء ، والتجار والفقهاء وغيرهم .

وقد جرت العادة كذلك فى عصر سلاطين الممالىك أن يشتمل شوار العروس على الشطرنج ، أو كان يهدى الى العروسين تخفيفا عنهما فى نفقات الزواج .

وقد بلغ من انتشار لعبة الشطرنج وكلف الناس بها الى الحد الذى جعل بعض الأشخاص ينسبون اليه ، كما صنفت فى هذه اللعبة وقواعدها العديد من المؤلفات والرسائل خاصة فى عصر سلاطين الممالىك .

وقد تفنن اللاعبون فى ابتداء أساليب اللعب بالشطرنج ، فكان من أصحاب البطولة فيه من يدير ظهره الى الرقعة ، ويأمر بنقل القطع بالإشارة ، ولعل من هؤلاء شرف الدين عيسى بن حجاج السعدى المصرى (ت سنة ٨٠٧هـ / ١٣٨٥م) الذى عرف بعيسى العالية وسمى بذلك لأنه « كان عالية فى لعب الشطرنج ، وكان يلعب به استديارا » . وهذه براعة لم يبلغها غير القليلين من الشطرنجيين حتى فى العصر الحديث .

بل بلغ من تفوق لاعبي الشطرنج فى ذلك العصر أن أحدا منهم هو على ابن قيران التركى الأعمى الشطرنجى الذى ذكره الصفدى فى شرح لامية العجم حيث رآه بالقاهرة سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م يلعب مع أقوام ويحطهم ويغلبهم ، بل كان يتحدث مع الموجودين ويشاركهم فى جميع ما هم فيه ، ولا يغيب عنه شئ مما هو فيه وقد ذاع صيته بالقاهرة فى هذا المجال .

وكان الشطرنج من أهم وسائل التسلية التى يتسلى بها أرباب النبوة وهم حرس السلطان حيث كانت تخرج لهم المصاحف لقراءة القرآن الكريم وكذا الشطرنج ليتشاغلوا به عن النوم حتى يأتى ميعاد نوبتهم مرة أخرى كذلك بلغت درجة قربهم من السلطان مبلغا كبيرا حتى أنهم كانوا يدخلون عليه بدون استئذان .

وقد كان الأمير خشقدم « مدمنا للعب الشطرنج فى الليل والنهار » والجدير بالذكر أن السلطان حسام الدين لاجين قد قتل وهو منكب على لعب الشطرنج فى إحدى ليالى رمضان سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٩م ، وقيل أنه قتل وهو ينهض للصلاة بعد أن لعب الشطرنج .

كما كان السلطان الغورى يجالس أصحاب الحظوة عنده ، بل كان يجلسهم معه على المرتبة ويلعبهم الشطرنج وكان يتعرف

من هؤلاء الجلساء على الكثير مما كانوا ينقلونه له من أخبار الناس .

وكانت بعض الهدايا الى السلاطين تحتوى على شطرنج ففى ربيع الأول سنة ٧٩٩هـ / ١٤٧م اهدى الملك الأشرف عهد الدين اسماعيل بن الأفضل عباس بن رسول متملك اليمن الى السلطان الملك الظاهر أبى سعيد برقوق ، شطرنجا من الحقيق الأبيض والأحمر .

ولم يكن الأمر مقصورا على الملوك السلاطين والأمراء بل كان كذلك القضاة والعلماء يلعبون الشطرنج ويقبلون عليه ، فقد ورد عن بعضهم انه كان « غالية فى الشطرنج بالغائب مشاركا فى عدة فنون » .

كما كان بعضهم يجيد لعب الشطرنج حتى وصف بانه نافذ الفكر يفوق جميع اقرانه فى هذا الشأن مع صرف غالب زمانه فى لعب الشطرنج . بل كان منهم من يجيد اللعب بالشطرنج ويديمه حتى فى أوقات اعتكافه « ومنهم ايضا من كان « يعرف النرد والشطرنج ويلعب بهما جيدا فى حالة واحدة دائما مدى الايام » .

ورغم ذلك فانه جاء فى الوصايا الموجهة الى السلطان المؤيد شيخ « انه » لا ينبغى ان يواظب على لعب الشطرنج والنرد ونحوهما فان المواظبة على هذه الاشياء تشغله عن النظر فى أمر الولاية ، فيتطرق الخلل فى أمور المملكة » .

كما قيل ان القاضى ابن دقيق العيد قد لعب الشطرنج فى صباه مع زوج اخته الشيخ تقى الدين بن الشيخ ضياء الدين ، فأذن بالعشاء فقاما فصليا ، ثم قال الشيخ : نعود ، فقال صهره : « ان عادت العقرب عدنا لها ، فلم يعد يلعبها » .

وقد حظيت لعبة الشطرنج — كما حظيت النرد — باهتمام الأدباء والشعراء فقد نظم بعضهم بعض المقطعات الشعرية فى

فى وصفها وبيان فنّها ، فنجد بدر الدين بن الصاحب يصف مهارته
فى لعبة الشطرنج حتى انه اتقن حفظها وصار بإمكانه أن يلعبها
دونما نظر الى رقعتها (٤) .

وكان الأديب الشاعر المشهور ، برهان القيراطى (ت ٧٨١ هـ) ،
قد نظم شعرا فى الشطرنج (٥) .

أما ابن نباتة (٦) (ت ٧٦٨ هـ) فى رقعة الشطرنج
ميدانا لأجالة الفكر ، فهى حديقة زاخرة بالجنى (٧) .

وفى قول آخر ينزع الى التأمل يرى فى لعبة الشطرنج شيئا
من الدنيا وحالها ، وما يعود منها على الانسان ليلا ونهارا من بؤس
وتعيم ، تم تبنى فى النهاية ولا يبقى الا الخالق (٨) .

وهكذا يفهم من المراجع المعاصرة ان لعبة الشطرنج ظلت ذات
شأن كبير فى عصر الممالك ، وفضلا عن أن الشطرنج لعبة رياضية
عقلية فهو مرآة لأفكار الناس ونفوسهم ، فهو يظهر الميول والطباع
لينصلح ما بها من نقص علاوة على انه لعب اجتماعى يسوده الهدوء
والكمال ، لذا تجدر الإشارة الى بعض آداب هذه اللعبة ، منها ألا
يخس اللاعب خصمه اذا أتى بلعبة جيدة وألا يأتى بحركات مشوشة
وان يتجنب ردىء الكلام .

هذا وقد اختلفت المراجع الحديثة فى أصل تسمية الشطرنج
بهذا الاسم (٩) . وأيا كان معنى الاسم فمن الصحيح ولا ريب ان
لعبة الشطرنج وكذا كل لعبة بين فريقين متنافسين هى فى طريققتها
وغايتها لعبة حرب أو لعبة مقاومة متبادلة يستعد لها كل فريق كما
يستعد للانتصار على خصمه ويتخذ لها العدة من جميع قواه الفكرية
والخلقية ، ويسأل فيها عن أساليب خصمه كما يسأل القائد عن
أساليب القائد الذى يناجزه .

هوامش الفصل الأول

(١) والنرد لغة اسم اعجبي معرب . وشير بمعنى حلو ، كما عرفت بالكوبة فقل ان الكوبة هي النرد في كلام أهل اليمن ، وقيل أيضا ان الكوبة هي الطبل والنرد .

(٢) ومما قاله ابن دانيال في ذلك .

وللبنج فعل البنج في اللب ما بدا
وكالخال نقش «اليك» يسبيك لونه
تروك من شفع ووتر نقوشها
وتلهيك ما لاحت عن الشفع والوتر

(٣) تشير المراجع الى وجود بعض القطع ضمن مجموعة الكونتس دي بهاج في باريس تنسب الى اواخر العصر الفاطمي (انظر ، زكى حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٩٣) .

(٤) ابن حجر . الدور الكامنة ، ج ١ ص ٢٤٨ .

قال في ذلك

لى فى الشطرنج علم اتقن الادممان حفظه
العيب الغائب منها فاراه طيقا يقطعه

ويرى انها لعبة أهل العقل والفكر ، وان كان ينكر ما يراه من سلك بعض لاعبيها :

أميل الشطرنج أهل النهى واسلوه من ناقل الباطل
وكم لى اهذب لعابها ويابى الطباع على الناقل

ولعل من أطرف ما قاله الشعراء فى وصف الشطرنج ما قاله ابن الرومي حيث قال :

أرض مربعة حمراء من آدم ما بين شخصين موصوفين بالكرم

تذكروا الحرب فاحتمالا لها شبيها من غير أن يعيشتا فيها بسفك دم
هو على بن العباس بن جريج (انظر ترجمته في ابن خلكان في حرف
العين) وجير بالذكر أن البعض قد نسب هذه الابيات الى شاعر يدعى
على بن الجهم وان كنا نرجح انها لابن الرومي (انظر ، احمد نجم واخر ،
أصول الشطرنج الاسكندرية ١٩٥٩ ، ص ٩) .

(٥) يقول :

انظر الى شطرنج قد بسدت من فوقه الشمامات قبل النقط
صحت به نسخة حسن لمن قد راحت الارواح فيها غلط

(٦) ابن نباته : هو جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن الحسن
المعروف بابن نباتة المصري ، الاديب الشاعر ولد سنة ٦٧٦ هـ وتوفي سنة
٧٦٨ هـ .

(٧) يقول :

لعبت في الشطرنج في غاية ان صاج في الاقران لي يبدق
تقصر الاوصاف عن حدها تموت منه الشاة في جلدها

(٨) حيث يقول :

تأمل تر الشطرنج كالدهر دولة محركها باق وتفتى جميعها
نهارا وليلا ثم يؤسا وانعما وبعد الفنا تحيا وتبعث اعظما

وقال شاعرا آخر كان من اكابر الامراء في لاعب شطرنج كان يلاعبه :
لعبت بالشطرنج على شادية رشاقة الاغصان من قده
احل عقد البند من خصره والثم الشادات من خده
(انظر ، ابن تغري بردى - النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ٦٤ ، ٦٥) .

(٩) قيل انها لفظة عربية مشتقة من الفارسية ، الكلمتان هما « شيش
رنك » بمعنى ستة ألوان أو أشكال ومراتب ، وقيل انها مأخوذة من
« شاه رنج » بمعنى هم الملك أو مشاغله ، أو من « شدرنج » أي من اشتغل
به ذهب عناؤه أو من شط رنج أي « ساحل العتب » .

(انظر احمد تيمور ، لعب العرب ص ٣٥ ، العقاد ، مقال عن الشطرنج
مجلة الاذاعة والتليفزيون سبتمبر ١٩٦٤ ، ص ١٢ ، ١٣) .

بل يذهب البعض الى ان كلمة شطرنج مأخوذة من كلمة « شاتورانجا »
الهندية ومعناها لعبة الحرب « انظر موري ، تاريخ الشطرنج » .

— H.Y.R. Murray, A. History of Chess, Oxford, 1913.

المفصل الثاني

العب الورق وألعاب الأطفال

أهمية اللعب - مضمون الألعاب الهادئة - ألعاب الورق عند
المماليك ألعاب الأطفال عند المماليك - مشاركة الأطفال في المناسبات
العامة والدينية - المتنزهات في حياة الأطفال - السباحة عند
الأطفال .

الأطفال وقسوة الحياة - تعليم الأطفال وتأديبهم - جلب
المماليك أطفالاً وتعليمهم الطباقي - الألعاب التدريبية عند الأطفال
المماليك - تولى السلاطين الأطفال حكم البلاد - انصرافهم إلى
اللهو والطيش واللعب .



وهناك بعض الألعاب التي تهدف في المقام الأول إلى التسلية
والترفيه يطلق عليها الألعاب الهادئة ، وهي التي تتميز بقلة أو بعدم
متطلباتها الحركية . لعل من أمثلتها ألعاب الورق .

إن ألعاب الورق في عصر المماليك ليس لدينا عنها الكثير
خاصة أن المصادر المعاصرة وغيرها من الكتب الملوكية القديمة ،
خاصة تلك التي بين أيدينا ، لم تتعرض لهذه الألعاب في شيء من
التفصيل ، وإن كان لأريب في أن لعبة الورق على أية صورة ، قد
وجدت بين الناس في ذلك العصر قلدينا ما ذكره الإدريسي في عصر
متأخر ، أثناء ترجمته لمحمد بن اسماعيل فتح الدين السنطى (١) ،
فقد أشار إلى لعبة بالورق كان يلعبها الشباب ، وإن لم يذكر
اسمها (٢) .

وجدير بالذكر ان الادفوى قد ساق ذلك ليدلل على ان صاحب الترجمة كان لا يعرف المزاح .

كما ان العاب الأطفال يمكن ان تندرج تحت ذلك النوع من الألعاب التى تهدف الى الترفيه وتمضية الوقت فى مقامها الأول ، خاصة تلك الألعاب التى يمارسها الاطفال دونما تخطيط أو اعداد مسبق لها ، وان كانت تلك الألعاب التى سيأتى الحديث عنها فيما بعد ، تكون فى الغالب العابا حركية تستلزم نوعا من النشاط والحركة ، مما يتناسب مع طبيعة تكوين لاعبيها ، ولكن السسمة المشتركة بينها تكمن فى ان ممارستها تكون لمجرد اللعب والترفيه .

وعن العاب الأطفال فى عصر المماليك قاننا نجد انفسنا أمام فئتين منهم ، الفئة الأولى وهى الأهم ، وتشمل أطفال العامة أى عامة الشعب من المصريين ، وهؤلاء فى الحقيقة لم يقع تحت ايدينا من العابهم شىء كثير من خلال مصادرنا الا القدر اليسير ، الذى تمثل فى مشاركتهم الضمنية فى بعض ما كان يجرى حولهم من احتفالات ومناسبات عامة سوف نعرض لها فيما بعد ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الكبار .

اما الفئة الثانية فنعني بها صغار المماليك ، وهؤلاء كان لهم نظام خاص فى تربيتهم فى الطباقي ، فكانت العابهم العابا تدريبية وليست العابا حرة ، حيث لم تقف لهم على العاب مارسوها الا كوسيلة لتدريبهم عسكريا بما يتمشى مع النظام المملوكى القائم كدولة حربية ، ولكننا نجد فى نفس الوقت ان بعض الأطفال المماليك الذين قدر لهم ان يعتلوا العرش ويصبحوا سلاطين على البلاد ، نجدهم يمارسون كثيرا من الألعاب التى ارتبطت غالبا بالطيش لاجتماع حداثة السن والسلطة فى آن واحد ، وان كان ذلك فى

الغالب لم يستمر طويلا حيث كان الأمراء والأكابر يستولون على الحكم مستغلين ضعف هؤلاء السلاطين الأطفال ، وسنعرض لذلك بشيء من التفصيل فيما بعد .

أما عن أطفال العامة فاننا لا نشك في ممارستهم لبعض الألعاب العادية التي وجدت في ذلك العصر ، شأنهم في ذلك شأن كل الأطفال في كل عصر وكل مكان ، وان كان ليس هناك شك كذلك في ان فرصتهم في مجال الألعاب ، كانت ضئيلة ومحدودة ، بسبب تلك الظروف الصعبة التي عاشتها البلاد ، والازمات التي تعرضت لها في ذلك العصر من أن لآخر فلا بد أن ذلك قد ترك ظلا ثقيلًا على الحياة بشكل عام وعلى حياة الأطفال بصفة خاصة .

ويتمثل ذلك في اغاني اللعب ، ومشاهدة عروض خيال الظل وباباته وكذلك غيرها من النصوص الموسوعية بغرض الترفيه والامتناع فانها تحمل قدرا لاغنى عنه من المعلومات الخاصة بالبيئة ، ومسالك أهلها في حياتهم اليومية ، ذلك ان هذه النماذج تعتبر نوعا من الوثائق النفسية والاجتماعية ، هذا فضلا عن انها تعتبر شواهد دالة على اسلوب العامة - ومنهم الأطفال - في تمضية أوقات الفراغ .

وكما سبقت الإشارة فان معظم ألعاب الأطفال كانت مشاركة في المناسبات العامة والدينية وما يصحبها عادة من مظاهر الاحتفال والسرور ، فعلى سبيل المثال كان في يوم النوروز (٣) يلعب الطلبة وهم طلاب العلم ونظنهم من الأطفال حيث كانت لهم مشاركة في ذلك ، ففي اثناء الاحتفال بهذه المناسبة كان الطلبة يلعبون ريبتلون بالماء ، بل بلغ بهم اللهو ان طلبوا من معلمهم وهو الشيخ بهاء الدين المقفطى الخروج اليهم وموافقتهم فامتنع عن ذلك ، واشتغل

بمسألة كان يعكف عليها فاخذوا يصبون الماء حتى خشى أن يصل الماء اليه(٤) .

وهناك اشارة الى ان القاضى كمال الدين محمد بن على الظاهري كان فى صباه يلعب بالحمام فى الريدانية(٥) شأنه فى ذلك شأن بعض السلاطين الأطفال كما سيرد فيما بعد الا انه ترك لعب الحمام واشتغل بالقراءة والعلم حتى تولى مشيخة الاسلام وهى قضاء القضاة .

واشتهرت الحياة فى المدن فى عصر الماليك بالحفلات الصاخبة ، وكان منها ما هو خاص عائلى ، ومنها ما هو عام شعبى ، ولعل اشهر الحفلات العائلية حفلات الزواج ، والحفلات الخاصة بالولادة - وبخاصة اذا كان المولود ذكرا - وحفلات العقيقة(٦) التى بلغ المصروف عليها أحيانا خمسة عشر ألف دينار وكذلك حفلات ختان الاطفال ، فكانت مناسبات يشترك الناس بعضهم بعضا فى احيائها .

ومما لاشك فيه فان هذه المناسبات العائلية كانت فرصة طيبة لانطلاق الاطفال للعب والمشاركة فيها بصورة أو بأخرى ، ففي سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٣م رسم السلطان الظاهر بيبرس للامراء والجند والرعية ان كل من كان له ولد فليطلع به الى القلعة حتى يختتن مع ابن السلطان (السعيد محمد) فأحضر الناس أولادهم ، وبلغ عددهم نحو ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين ولدا ، عدا أولاد الأمراء والأعيان ، فرسم لكل واحد منهم بكسوة على قدر مقام أبيه كما رسم لكل من أولاد العامة بكسوة ، ومائة درهم ورأس غنم ، واستمر المهم(٧) فى القلعة سبعة أيام .

وتلك صورة واضحة من مشاركة اطفال العامة ، اطفال السلاطين فى احتفالاتهم ، وان كان لكل منهم مكانته وقدره ولاشك

ان عامة الناس كانوا كذلك يقيمون حفلات خاصة بختان أطفالهم ،
وكان يصحب ذلك فرح ومشاركة لكل الأطفال .

أما عن مشاركة الاطفال فى الاحتفالات الشعبية العامة فقد
تمثل ذلك فى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف وموالد الاولياء
الصالحين ، فقد كان من المعتاد ان يقيم السلطان خيمة المولد
بالقلعة ، وتملأ الأحواض بعصير السكر والليمون ليقدم منها
للوافدين دون تفرقة بين كبير وصغير .

وكان عامة الناس يتربعون موعد المولد ، فيقبلون على شراء
لعب لأولادهم مصنوعة من الحلوى على هيئة اشكال مختلفة مثل
الخيول والسباع والقطط وغيرها «فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع
منها لأهله ، وتمتلئ أسواق البلدين مصر والقاهرة وأريافها من
هذا الصنف » .

وتلك عادة انتشرت فى مصر فى عصر الدولة الفاطمية
واستمرت بعدها ، حتى وقتنا الحاضر .

كما كانت موالد الأولياء ملتقى يجتمع فيه الشباب والمردان
الى جانب غيرهم ، مما اعتبر من الأمور غير اللائقة لما كان يجرى
فيها من المفاسد كذلك كان يجرى الاحتفال بذكرى ميلاد المسيح ،
يوم الاثنين فى التاسع والعشرين من شهر كيهك (السابع من يناير)
وهو من الأعياد القبطية التى جرى العرف فيها عند المسيحيين
والمسلمين على السواء أن يظهروا ابتهاجهم بها ، فكان موسما لبيع
الشموع الملونة والفوانيس والتناديل والتماثيل الدقيقة ، التى يقبل
الناس جميعا على شرائها لأولادهم حتى بلغ ثمن شمعة ألفا
 وخمسمائة درهم فضة .

وقد الغى الاحتفال بهذه المناسبة بالنسبة للمسلمين عام
١٣٥٨هـ / ١٩٣٥م فى عهد السلطان الناصر حسن .

ويبدو أن الاطفال كمعادتهم يمكنهم أن يتخذوا من أى مكان يتواجدون فيه ملعبا لهم ، حتى ان المساجد فى بعض الأحيان لم تسلم من اللعب فيها ، مما دفع صدر الدين بن العجمى محتسب القاهرة فى ذى الحجة سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م أن يمنع مرور الناس من الجامع الحاكمى بنعالهم ، كما منع لعب الصبيان فيه .

كذلك كانت احتفالات وفاء النيل مجالا للهو الأطفال ، فكان قبيل الاحتفال يمر المنادون على البيوت ، ويغنون اغنيات مختلفة منها : البحر زاد : غرق البلاد . . والأطفال حولهم يرددون عليهم فى كل نداء بقولهم : عوفا الله (ربما كان اصلها أوفى الله ، أى أوفى الله النيل) وعند الانتهاء من الاحتفال بالخليج يمر المنادى والأطفال على البيوت لتوزيع بعض البلح والليمون الحلو والبرتقال وهم يرجون بذلك المكافأة من كل حسب استعداده ، وقد أخذ هذا العمل يندثر مع تقدم المدنية .

وكان الأطفال كذلك يشاركون الكبار فى اللعب بالرماح اثناء دوران المحمل فكان المماليك الصغار يركبون خيولا قد نصبت عليها السيوف والرماح بالقباقيب وفى ايديهم رماح صغار - لتكون مناسبة لهم - يلعبون بها وهم على هذه الهيئة . كما كان من واجبات المحتسب أن يقاوم المجاهرة باظهار الملاحى المحرمة وتكسير أدواتها ان كانت لاتصلح لغير الملاحى ما عدا آلات اللعب التى لا يقصد بها المعاصى وانما يقصد بها تربية الأولاد ، ففيها وجه من وجوه الخير .

وان كانت تقاربها معصية كتصوير ذوات الأرواح ومشابهة الأصنام ، والمنع فيها يكون بحسب ماتقتضيه شواهد الأحوال مستندا فى ذلك الى حديث للسيدة عائشة - رضى الله عنها - فقد

دخل عليها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهى تلعب بالبنات فأقرها ولم ينكرها (٨) . وروى أن أبا سعيد الاصطخرى من اصحاب الشافعى وقد تقلد الحسبة فى بغداد فى أيام الخليفة العباسى المقتدر (٩) ، قد أزال سوق الداذى وهو نوع من الخمر وأقر سوق اللعب ولم يمنع منها .

والحقيقة أن هناك علاقة وثيقة بين مواضع المتنزهات والبساتين والحدائق وطبيعة الترفيه بالنسبة للجميع وبخاصة الاطفال ، حيث كانوا يجدون فيها - كغيرهم - متنفسا طبيعيا سهلا فيخرجون اليها مع أسرهم أو مع أقرانهم .

وقد أوردت المصادر المعاصرة كثيرا من اخبار هذه المتنزهات وخروج الناس اليها - وهو ما أوضحناه من قبل - حيث كان الناس يتوجهون اليها ويبالغون فى القصف والفرجة ويضربون الخيام بها ، كما كانوا يقيمون أخصاصا للمتفرجين بها وصاروا يبيتون هناك خاصة فى الجزر ، حتى انهم كانوا يخوضون فى النيل الى منتصف الليل ، وقد عبر الشعراء عن جمال تلك المتنزهات ووصفها (١٠) .

ويبدو كذلك أن العباحة فى العصر المملوكى كانت تمثل مجالا للترفيه واللعب عند الاطفال على وجه الخصوص ، حتى ان ابن خلكان (١١) يصف جماعة منهم وهم يسبحون - ولا بد انه قد رآهم ووصفهم بسرب الظباء (١٢) .

ولعل المقصود بسرب الظباء هم الصبيان فى مقتبل العمر ، وهم يخوضون فى الماء ويلعبون على صفحة النيل أو الغدير ، كما يصور حركاتهم فى الماء ، وما ننظن تلك الحركات الا ألعابا مائية غالبا ما يجيدها من يجيدون السباحة .

ويبدو أيضا أن شباب ذلك العصر كان لهم وسائلهم الترفيهية المختلفة التي قد تصل أحيانا الى حد الخروج عن المألوف ، حتى اننا نجد شاعرا (١٣) يلوم شبابه ، كما يلوم مشيبيه (١٤) .

ورغم ذلك يمكن القول بأن حياة الاطفال فى عصر المماليك لم تكن كلها لهوا ولعبا ، بل لقد نالوا قسطهم من شطف الحياة ومتاعبها - رغم نعومة اظفارهم - فكثيرا ماتعرضوا للفناء بسبب الأوبئة التي كانت تنفث من حين لآخر . كما كانوا يخرجون مع ذويهم وهم حفاة من أجل صلاة الاستسقاء ، فقد روى المقرئى عن خروج الناس فى ربيع الأول من سنة ٧٧٥ هـ / ١٣٧٤ م الى قبة النصر - خارج القاهرة - وهم حفاة بثياب مهنتهم ومعهم اطفالهم حتى ان المقرئى نفسه قد خرج معهم فى ذلك اليوم ، حيث أدوا صلاة الاستسقاء وكشفوا رؤوسهم عند الدعاء الى الله تعالى وهم يستغيثون ويكون فكان مشهدا عظيما .

وحدث أيضا انه عندما هاجم التتار مدينة دمشق وأحرقوها عن آخرها ، واسروا كثيرا من أهلها وعندما أرادوا الرحيل عنها جمع الناس لهم اطفال المدينة الذين أسر أهلهم وأكبرهم ابن خمس سنين ليرق قلب التتار لهم وكانوا نحو عشرة آلاف طفل ، ولكن تيمور لذك أمر عساكره فساقوا عليهم بالخيول حتى اتوا عليهم جميعا كل ذلك والسلطان أبو السعادات فرج منهمك فى لهوه وشربه مع الملاح والندماء .

بالإضافة الى ذلك فان الأطفال فى العصر المملوكى كان عليهم أن ينالوا حظهم من التعليم والاقراء والتأديب ، وذلك عن طريق الفقهاء والمقرئين ويتخذون من المساجد مدارس لهم .

وجدير بالذكر أن السلاطين المماليك كانوا يفضلون شراء المماليك الصغار .

بل كان الرسم ان ذلك الا يجلب التجار الا الممالك الصغار
عن طريق التجار الأوروبيين من البنادقة وأهل جنوة .

ومعلوم أن الممالك الصغار قد نالوا عناية خاصة في تربيتهم ،
وأن العابهم التي كانوا يمارسونها كانت تتناسب مع اتجاهات
المجتمع الجادة ، لكي تمارس المهارة الضرورية له ، ومن هنا - كما
كما سبق أن اشرنا - كانت العابهم تأخذ شكل التدريبات المتنوعة
على ألوان مختلفة من الرياضات التي يتطلب الأمر أن يتصف
الفارس بها مثل الفروسية واللعب بالرمح ، ورمى السهام والنشاب
وغير ذلك ، حتى ان السلطان كان يحضر مبارياتهم في الفروسية
في ميادين خاصة . ولا غرو في ذلك فقد كان الهدف الأساسي من
وراء ذلك النظام الخاص لتربية الممالك الصغار عند جلبهم ، هو
اعدادهم خلقيا وعسكريا .

ولعل ذلك النظام المحكم للتربية عند الممالك قد جعلهم
يشعرون بالعزلة عن الناس - وحتى بالتميز في كثير من الأحيان -
بحيث انه بمجرد أن يعتق المملوك - أي ينهى فترة دراسته
بالطباقي (١٥) - فانه كان ينطلق طالبا متعة الحياة مما جعلهم في كثير
من الأحيان يبالغون في ممارسة وسائل الترفيه المختلفة ، وربما كان
ذلك بدافع نفسي أساسه الرغبة في تعويض ما عانوه من الكبت
والحرمان أثناء وجودهم في الطباقي ، كما ان هؤلاء الممالك
المتخرجين غالبا ما يكونون في سن الشباب الذي قد يدفعهم نحو هذا
السلوك . ومن الظواهر اللافتة للنظر أن عددا ليس بالقليل من
سلاطين الممالك الذين وصلوا الى الحكم لم يكن ذلك عن كفاءة أو
اقتدار .

وكان من الطبيعي أن ينصرف هؤلاء الاطفال السلطين الى أمور
اللغو والطيش واللعب ، وزاد ذلك على الحد حتى اننا نجد القائمين

تدبير أمور المملكة برؤسهم عن ذلك بكل الوسائل وفى النهاية يطيحون بهم عن العرش وقد أوردت المصادر المعاصرة كثيرا من هذه الامثلة ، فكانت فى الواقع فرصة لمعرفة ماكان يتلهى به هؤلاء الأطفال السلاطين ، فقد ذكر ان الملك المنصور نور الدين على بن المعز ايبك كان يلعب بالحمام مع اولاد الغلمان ، وترك تدبير الأمور لأمه ، حتى خلع ونفى مع أمه واخوته الى دمياط .

كذلك ذكرنا فيما سبق ان السلطان المظفر حاجى الذى تولى الحكم (٧٤٧ - ٧٤٨ هـ / ١٣٤٦ / ١٣٤٨ م) وهو لم يبلغ الحادية عشرة من عمره كان يجتمع بأوباش الناس ، ويلعب معهم بالحمام أيضا ، كما كان يقف معهم ويأمرهم على الطيور ، بل بلغ به الأمر انه كان اذا لعب معهم يتعري ويلبس ثيابا من جلد ويصارع معهم .

هوامش الفصل الثاني

(١) هو محمد بن اسماعيل بن موسى عبد الخالق السفطى القوصى الدار والمنشأ والوفاة فتح الدين بن القاضى زين الدين السفطى توفى يقوص سنة ٧١٧ هـ .

(انظر ، الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٥٠١) .

(٢) ومضمون هذه اللعبة ان صاحب الترجمة جلس مرة مع جماعة ، يلعبون لعبة ويكتبون ورقا ، فى بعضها صورة شخص صاحب متاع ، وفى اخرى صورة لص ، فاذا حصلت الورقة التى فيها صاحب المتاع يقول : يا جماعة ضاع لى كذا وكذا - ويسمى الاشياء - واريد شخصا أو شخصين - على قدر ما يخطر له - يحضر لى اللص وثم اوراق اخر فيها نقطة ونقطتان فاكثر حسب عدد الجماعة فوضعت الورقة التى لصاحب المتاع له ، ولكنه سكت ونحن نقول له : تكلم فيقول « حتى أبصر شيئا ضاع لى فاقوله ، والا يبقى كذبا وصرنا نقول : هذا لعب لا حقيقة له ، وهو يفكر » .

(٣) النوروز أو النيروز ، وهو عيد رأس السنة القبطية بمصر اول يوم من توت وقد اختلفت المصادر فى اصله التاريخى ، عنه انظر (المقرئى ، خطط ج١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٨) .

(٤) وبهذه اناسبة كتب ورقة للشيخ ابن دقيق العبد وناولها لجاريته ، فدخلت ثم رجعت اليه وقد كتب الشيخ : « هذا جزاء من ترفع عن أصحابه » .

(٥) الريدانية ، خارج القاهرة وهى العباسية الحالية .

(٦) والمقصود هنا بالعقيقة ، الاحتفال بمرور سبعة أيام على مولد المولود وهى ما يعرف بالسبوع حتى الآن ، وان كان فى المنجد ان العقيقة هى الشاة التى تذبح عن المولود يوم سبوعه عند حلق شعره ، وفى القاموس

المحيط ان الحقيقة هى الشاة التى تذبج عند حلق شعر المولود (انظر
المقرىزى السلوك ، ج ١ ق ١ ، ص ٤٤٥ ، حاشية/٢) .
(٧) المهم ، هو حفل عقد القران كما جاء فى النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ،
ص ١١ ويقصد به هنا حفل الختان .

(٨) روى البخارى ومسلم وأبو داود عن عائشة رضى الله عنها
قالت : (كنت ألعب بالبناات عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
وكانت تأتينى صواحبى فينقمعن من رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
وكان يسر بهن فيلعبن معى » والبناات هى التماثيل على صورة البناات أى
العرائس (ابن الاخوة ، معالم القرية ، ص ٩٠) حاشية ١) .

(٩) المقتدر ، (٢٨٢ - ٣٢٠ هـ) جعفر بن احمد بن طلحة ابو الفضل
المقتدر بالله المعتضد بن الموفق ، خليفة عباسى يوبع بعد اخيه المكتفى ٢٩٥ هـ
(ابن الاخوة ، معالم القرية ، ص ٩٠ حاشية ٢) .
(١٠)

فى جزيرة بولاق رأينا عجبا أسد ساروا معهم ظبا
وقال آخر :

امض لبولاق ترى بجزيرة صور وولدان لها تانيق
لى من تحابى وردها نشر زها ولها بقلبى هزة وعلق

(١١) ابن خلكان هو شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد بن
ابراهيم بن أبى بكر خلكان البرمكى الاربلى ولد بابل ٦٨٠ هـ واقام فى
مصر وباب فى القضاء ثم ولى قضاء الشام عشر سنين .

(١٢) ابن العماد ، شذرات ، ج ٥ ، ص ٣٧١ .
وسرب ظباء فى غدير تخالهم يدورا بأفق الماء تبدو وتغرب
يقول خليلى والغرام مصاحبى أما لك عن هذى الصصابة مذهب
وفى دمك المطلوب خاضوا كما ترى فقلت له : دعهم يخوضوا ويلعبوا

(١٣) هو اسماعيل بن هبة الله القوصى ، أديب شاعر .

(١٤) الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .
يا شهابى أفسدت صالح دينى يامشيبى نغصت لذة عيشى
فعدوان انما لا صديقى ن تلاعبتما بجللى وطيشى

(١٥) كانت الدراسة فى الطباق بين أربعة أو خمسة عشر شهرا ، وان
كانت احيانا تمت الى عدة سنين (ماجد ، نظم ، ج ١ ، ص ١٧) .

الفصل الثالث

خيال الظل

تمهيد - منشؤه - خيال المظل عند العرب صفة اللعب بالخيال
- شغف سلاطين المماليك بالخيال - ظهور ابن دانيال - مجتمع
القاهرة - بابات خيال المظل لابن دانيال وبابات أخرى - انتشاره
في عصر المماليك • موقف بعض الحكام من خيال المظل - السلطان
العثماني وخيال المظل - تدهور فن الخيال وازدهار فن القره قوز -
انحسار خيال المظل ونهايته •



لقد بلغت الدمى المتحركة ذروتها في التقدم والتطور عند
العرب فيما بين القرنين الحادي عشر الميلادي والخامس عشر •
ولكن نجد في العهود الإسلامية التي جاءت بعد ذلك أمثلة للعب
الشعبية ، بل نجد في بعض المراجع تصنيفا لشتى اللعب التي كانت
منتشرة عندهم • فيذكر ابن خلدون لعبة الكرج التي كانت منتشرة
أيام بني العباس •

وكما انتشرت اللعب الشعبية المتحركة والألعاب الأخرى
المتنوعة في البلاد العربية ، انتشرت كذلك في مصر وفي سائر
البلدان العربية أيام المماليك لعبة خيال المظل التي تعتمد على تحريك
دمى مصنوعة من الجلد خلف ستار مشدود من القماش يضيقه
مصباح •

وهو من أهم وسائل الترفيه في ذلك الوقت ، وكان يسمى
وقتئذ بشخص الخيال أو ظل الخيال أو طيف الخيال ، أو مسرح
الدمى (١) ، أو خيال الستار أو ذى الخيال •

ولعل هذه المسميات تشير الى تلك الوسائل التى كان يتوسل بها المخيلون فى ممارسة ذلك الفن حيث تتطلب مسرحا . كما يرجع بعضها الى ذلك التشابه بين هذا الفن وما كان يقدم على مسارح الدمى التى كانت شائعة فى أوربا فى ذلك الوقت . وكذلك بعض الدمى التى كان يقوم اللاعبون بادراجها خلف الستارة البيضاء . وقد ذكر ان تلك الدمى كانت من الجلود المجففة ذات الألوان المتباينة وتتراوح أطوالها بين ثلاثين وخمسين سنتيمترا .

أما عن منشأ هذه اللعبة ، فيكاد يجمع المؤرخون أن أصلها من لعب الهند القديمة ، ويقول البعض أن أصل نشأتها كانت فى الصين ، وانتقلت منها الى البلاد العربية عن طريق الهند وفارس ثم انتقلت الى مصر عن طريق سوريا ومن مصر الى بلاد المغرب العربى .

وعلى أية حال فأيا ما كانت نشأة المخيلين وفنهم فإن الذى لا شك فيه أن هذا الفن قد أصبح على مدى فترة زمنية طويلة من أهم صور الفنون الشعبية كلها وإذا كان خيال الظل قد اعتبره الناس فى مصر فى أوائل القرن العشرين تسلية شعبية فإنه كان فى العصور الوسطى التسلية العامة المفضلة لجميع طبقات المجتمع .

وقد عرف خيال الظل للمرة الأولى - عند العرب - فى العصر العباسى وكان مجيئه الى مصر فى عصر الفاطميين فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى (٢) . حيث عرفت مصر فيه خيال الظل الذى يتوسل بالصورة والضوء معا ويحتاج تبعا لذلك الى مكان محكم حتى يمكن أن يركز الضوء فيه على التمثيل ومع ذلك فقد كان يتسم بنوع من المرونة فى الحركة بحيث يمكن أن يؤدى فى فناء الدار أو داخل فسطاط معين ، لذلك أصبح فيما بعد من وسائل احياء المواسم وحفلات الزواج والختان وما إليها .

وقد استمر خيال الظل طوال العصرين الأيوبي والمماليكي يمثل وسيلة من أهم وسائل التسلية في مصر حتى فتح السلطان العثماني مصر ، وعندئذ حرص على أن يصطحب معه عند عودته الى القسطنطينية (استانبول) بعض المخالين .

فقد ذكر المؤرخ المصري ابن اياس في حوادث سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ان السلطان سليم العثماني احضر في بعض الليالى بمقياس النيل بجزيرة الروضة خيال الظل فلما جلس للفرجة ، قيل ان المخال صنع صفة باب زويلة ، وصفة السلطان طومانباي لما شنق عليه وقطع به الحبل مرتين « فانشرح ابن عثمان لذلك ، وانعم على المخال في تلك الليلة - بثمانين ديناراً ، وخلع عليه قفطاناً مخملاً (٣) مذهباً وقال له : « اذا سافرنا الى اسطنبول فامض معنا حتى يتفرج ابني على ذلك .

ولكن ابن اياس لم يقطع بتحقيق هذه الرواية وعلق عليها بأنها اشاعة راجت ، ويمكن القول بأن السلطان سليم هو الذي نقل الى اسطنبول الحذاق المهرة في جميع الحرف والصناعات ، قد نقل الى عاصمة ملكه بعض من يحذقون فن خيال الظل كهذا المخال الذي اشارت اليه رواية ابن اياس .

ونفهم من هذه الرواية ان فن الخيال قد أصبح في مصر حرفة وأصبح في استطاعته أن يعبر عن الأحداث التاريخية بحيث لم تكن العروض الظلية في هذا العصر مقصورة على عرض الهزليات اللاهية والمضحكات بل كانت لها أهداف اسمى من ذلك كما ذكرنا من قبل ، مما يقطع بأن فن المخيلة العربية سار زمناً طويلاً حتى اكتمل واكتسب مقوماته .

أما عن صفة اللعب بالخيال فانه كما سبق أن ذكرنا يتخذ شخوصه من جلود وتحرك بعصى من وراء ثوب أبيض مشدود

(ستار) فيظهر خيال الدمى فيه حيث يقوم اللاعبون بادر الخيال خلف الستارة البيضاء بواسطة سيقان خشبية يحرك اللاعبون ، يختص بتحريك جميع مايقدم على المسرح من ، فى حين يقوم اثنان من اللاعبين بالعزف على آلات موسيقية

أما عن طبيعة المسرح الذى تمثل عليه شخوص الخيال أحمد تيمور وصفا دقيقا له (٤) .

ومن المؤكد انه حدث تطور لمسرح خيال الظل ايام تيم كان عليه منذ ايامه الأولى فى مصر ، على ان هذا المسرح السابق يتمتع بشيء من المرونة بحيث يمكن أن يكون متنقدا مكان آخر ، خاصة ان فن الخيال قد أصبح فنا شعبيا بحري تسلية عامة لجميع طبقات المجتمع (٥) .

والملاحظ ان وصف الخيال لا يذكر لنا شيئا عن اشخوص او دمي الخيال وان ما كان يحدث هو تمثيل غير من خلف ستار ، ولعل ذلك كان يعبر عن مرحلة من مراحل فن الخيال .

ويؤكد ذلك ما ذكره صاحب تذكرة البنية فى سنة ١٦١٣م حيث جاء فى ترجمة شيخ الكتابة نجم الدين موسى بن ابن محمد الحلبي ثم الدمشقي الشهير بابن البصيص المتوفى ذات السنة انه نظم عن طريق اهل التصوف نظما يذكر فيه ا وهو يشير أن محرك الشخوص يكون واحدا (٦) .

وكان لسلطين المماليك ولع شديد بهذه اللعبة خاصة شاءت الظروف أن يقترن عصر السلطان الظاهر بيبرس باسم شخصية ساهمت فى تأليف تمثيلات خيال الظل ، هو محمد دانيال الموصلى المتوفى سنة ٧١٠هـ / ١٣١١م وقد عرفت تمث

خيال الظل باسم البابات ومقردها بابة وسيأتي الحديث عنها تفصيلا فيما بعد .

أما عن ابن دانيال فهو من أعظم المبرزين فيه فقد نبغ في هذا الدرب من الأدب الشعبي التمثيلي . يأتي أشياء مخترعة ، وصنف طيف الخيال الشاهد له بالمهارة في الفن وله أرجوزة سماها « عقود النظام فيمن ولي مصر من الحكام » وكان يثير النواذر والرواية .

وقد عمل على الارتفاع بمسرح خيال الظل في عصر سلاطين المماليك .

ولد ابن دانيال بأم الربيعين بالموصل سنة ٦٤٦ - ١٢٣٨م وقضى شبابه بها ودرس القرآن الكريم في كتاتيبها ، وتلقى العلم والأدب في مدارسها وكانت الموصل آنذاك من أمهات العالم الاسلامي علما وثروة ، ولكنه لم يكد يلمس آثار تلك النهضة الثقافية للموصل وينهل من مواردها الفياضة حتى زحفت موجة التتار المدمرة التي قوضت معالمها العمرانية ومآهدها العلمية وطوحت بعلمائها وأدبائها وكان ذلك في سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م وابن دانيال لم يكن يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، حيث تبدل الحال غير الحال فأصبح نعيمها شقاء وعمرانها خرابا ، وعلمها جهلا وعمت الفتن والأوبئة والمجاعات ، وانعكست حياة الفوضى والاضطرابات على حياة الناس ، فعم الفساد الخلق والتفكك الاجتماعي بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الأمة الاسلامية .

ففي عام ٦٦٥ / ١٢٦٧م قصد ابن دانيال مصر مع غيره من الأدباء والمفكرين الذين لقوا العنت في بلادهم وضيقا في معاشهم .

وعندما تصدت القاهرة لموجات التتر وهزمتهم هزيمة منكرة هي موقعة عين جالوت كانت حينئذ ملاذا لكل خائف ، وموئلا لكل

قاصد ، فقصدها الناس من مختلف الاقطار ، واستقر ابن دانيال فى القاهرة وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، وهو أميل مايكون الى تحرر الشباب وانطلاقاته وايثار العاطفة الفارغة المسلية على الالتزام الجاد .

ويصور ابن اياس حال مجتمع القاهرة حين قدم ابن دانيال اليه فيقول : فى حوادث سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م « . وفيها أبطل السلطان ضمان الحشيشة وأمر باحراقها وأضرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها من الخمر وراقها ومنع الحانات من الخواطى واستتاب العلوق واللواطى » (٧) .

وعلى ابن دانيال على ذلك فأورد أشعارا فى بابته « طيف الخيال » يسجل فيه ذلك بأسلوب كله دعاية وخفة ظل .

هكذا نجد ان فى رواية ابن اياس أصدق تصوير لحالة مجتمع القاهرة فى ذلك الوقت ولعل ذلك يرجع الى أن اخلاق الظاهر بيبرس كانت على درجة كبيرة من الحزم والعنف يتنافى معها وجود أنواع الملامى والمسكرات التى كانت موجودة قبله ، فقد وصفه أبو المحاسن فى نجومه بأنه « كان يحب أن يطلع على أحوال أمرائه وأعيان دولته ، حتى لم يخف عليه من أحوالهم شيء » .

ولعل شجاعة الظاهر بيبرس كانت صفته البارزة المميزة وهى الصفة التى جعلت المعاصرين يعجبون به وبشخصيته ، ويجعلون منه بطلا يتناقلون سيرته ويرددونها دائما دون ملل أو سأم ، وزاد من هذا الاحساس انه ظهر فى وقت كان المسلمون فيه أشد الناس حاجة الى زعيم شجاع له القدرة على مواجهة خطر الصليبيين من ناحية وخطر المغول من ناحية أخرى .

فقد كان الظاهر بيبرس حاكما شجاعا ، قائدا مجاهدا ،
مرابطا وقد جاءت سيرته في الأدب الشعبي ، لتصور ذلك السلطان
في الصورة التي أحب الشعب العربي أن يراه عليها ، فجعلت منه
البطل المخلص .

ويصور لنا ابن دانيال كذلك حال مصر بعد هجرته من
الموصل فيذكر أنه وجد مواطن الأنس دارسة ، وسمع بقصة المصلوب
ابن الكازروني وذكر أيضا اعتذار صديقه اليه لتقصيره في
الأكرام ، إذ لم يأت به بالمدام وقال له « قد غلب ظني أن أبا حرة قد مات
بعد من الرفات ، قم بنا نبكيه ، ونصف الحالة ونرثيه » .

يقول ابن دانيال « لما قدمت من الموصل الحدياء الى الديار
المصرية في الدولة الظاهرية ، سقى الله عهدا ، وأعذب في الجنان
بورها وجدت تلك الرسوم دارسة ، ومواطن أنسها غير أنسية ،
عافية الآثار ، ساقطة الحد بالعثار وقد هزم أمر السلطان ، جيش
الشیطان . . وتولى الخوان والى القاهرة ، أهرق الخمر وأحرق
الحشيش ، وتبديد المزور ، واستتاب العلوق ، واللواطى ، وحجر
البغاة والخواطى ، وشاعت بذلك الأخبار ووقع الإنكار ، واختفى
المطول في الدار ، وقد آذى الخلاعة غاية الأذية وصلب ابن الكازروني
وفي رقبته نيازية » . .

وجاء قول ابن دانيال مطابقا الى حد كبير لما ذكره ابن اياس
وهو ما سبقت الإشارة اليه .

أضف الى ذلك فقد كانت الحالة الاقتصادية لمجتمع القاهرة
إبان قدوم ابن دانيال اليها سيئة للغاية بسبب نقص خخير في فيضان
النيل فارتبكت الحياة الاقتصادية وتزعزعت حالة الأسواق ورتب
على هذا أو ذاك ارتفاع الأسعار وانتشار الجوع بين الناس .

وفى ظل هذه الظروف نزح ابن دانيال الى القاهرة فاستغل
أهم مافيه من وسائل الترفيه وأبدع فيها وهو فن خيال الظل مصورا
فى باباته كل ما كانت تعانيه البلاد فى وقته ، فان ابن اياس قد
وصف ابن دانيال هذا بأنه كان شاعرا ماهرا وله شعر جيد فمن
ذلك ما قاله عن نفسه وعن حرفته الأولى وهى الكحالة (٨) .

ولعل ذلك يصور لنا طورا من أطوار حياته الأولى فى مصر
الذى اتسم بالفاقة وقلة المورد حين نراه يندب حظه مستغلا الفاظا
قريبة من العامية فى اغلب الأحيان .

وليس هناك مجال للشك فى أن الذى خلد ذكر ابن دانيال
هو تفوقه فى فنه التمثيلى فكانت له اليد الطولى فيه ، فهو الذى
يصنع الرواية ويكتبها وينظم الأصوات ويلحنها ويعين الأزياء
المناسبة ، وكل ما يحتاج اليه التمثيل ويشترك بنفسه فى العرض ،
فكان هو الكاتب والناظم والمغنى والمخرج والممثل فاجاد وأبدع .

ورغم أن كثيرا مما كتبه هذا الأديب قد تناولته ايدى البلى
فقد وصل إلينا من آثاره ثلاث روايات أو بابيات أو لعب منها نسخة
فى دار الكتب المصرية بعنوان « طيف الخيال » (٩) .

وقد حظيت تلك المخطوطات باهتمام كبير من كثير من ادباء
العالم العربى حيث قاموا بنشر بعضها (١٠) . كما قام بعضهم
بتحقيق هذه البابيات الثلاث ونشرها .

وتشير بعض المراجع الى وجود بعض الرسوم التى كانت
مستعملة فى تمثيلات خيال الظل من بينها واحدة من الجلد محفوظة
بالقسم الاسلامى من متاحف الدولة ببرلين وتنسب الى العصر
الملوكى كما يشير نفس المرجع الى وجود رسم آخر محفوظ فى نفس

المتحف وهو يمثل فارسا ممن يصيدون بالصقر مصنوعا من الجلد
المخرم ، حتى يمكن تحريكه منها حسب الحوار .

وقد انصرف ابن دانيال الى مهنة المخايلة وقرض الشعر ،
وغشيان مجالات اللهو والضحك ، يفرق فيها أشجان روحه
واحساسه الخفى بالضياح . فقد جمع فترة من الزمن بين مزاولة
الكحالة لبعض النهار ثم ينصرف بعدها الى اللعب بخيال الظل والى
هوايته الأدبية فى بعضه الآخر وشطر من الليل .

ولم يستمر ابن دانيال على هذه الحال مدة طويلة ان ذاع
ضيته بين الناس وشاع ، وسعى الى التعرف به كبار رجال الدولة
وكثرت عليه الانعامات والهبات حتى تحسنت حاله ، واتخذوه نديما
لهم ، يطرفهم بفكاهاته ونكاته وشعره التحامقى ، وأصبح لابن
دانيال راتب من المديوان من لحم وعليق .

وقد كان ابن دانيال مؤملا لهذا النجاح ، وتلك الشهرة
السريعة فقد كانت نفسه تنطوى على ظرف ، وخفة روح .

ويمكن القول انه ماكان لابن دانيال ان تكون له هذه المنزلة
فى نفوس الحكام والمحكومين ، وما كان لينجح هذا النجاح فيذيع
صيته ويشتهر امره بين الناس لولا ان الشعب المصرى شعب مرح
بطبعه ، محب للفكاهة والدعابة ميال الى الأخذ بأسباب الترفيه
والتسلية والترويح عن النفس على الرغم من المتاعب والأزمات
التي تعرض لها عامة الناس فى عصر المماليك .

فكان ابن دانيال هو النبتة الحية التى صادفت تربة خصبة
صالحة رغم ما يعتليها من أحجار فتوغلت جذورها حتى نمت
وازدهرت فأصبحت دوحة هائلة تظل الناس وسط ببداء شاسعة
ساعد على ذلك تلك الروح المصرية الفكاهة التى كانت فى أوجها ،

فلم تتسع تلك الروح فى عصر كما اتسعت فى عصر المماليك ، اذ فرغت مصر أو كادت من الحروب الصليبية ، وخلد المصريون الى حالة من الرخاء ، انتشرت فيه فنون من اللهو واللعب ، وتفجرت بفاييع الفكاهة فى انفسهم .

ومما لا شك فيه كما سبق ان اشرنا ان الذى خلد ذكر ابن دانيال هو تفوقه فى فنه التمثيلى ، فاذا كان شعره قد ضاع اكثره ، ولم يبق منه الا بعض المقطوعات التى سجلها المترجمون له ، فان ادبه التمثيلى لا يزال حيا فى نماذج متكاملة أو مقارنة للصورة التى رسمها ، حتى قيل ان اروع ما ابقاه لنا التاريخ من تمثيلات « خيال الظل » هو ماكتبه ابن دانيال ، فى القرن السابع الهجرى فى كتابه ظيف الخيال ، فلم يبق من الشعر التمثيلى العربى فى القرون الوسطى على الاطلاق الا تمثيلات ابن دانيال .

والروايات الدانيالية الثلاث هى :

البابة الأولى :

ظيف الخيال :

وهى من ابداع البابات الثلاث بل يعتبرها البعض ابداع مسرحية فى تاريخ خيال الظل المصرى . فهى تعكس صورة مجسمة من واقع الحياة المصرية فى القرن الثالث عشر الميلادى ، السابع الهجرى بكل ما فيها من تقاليد وعادات ، وتحكيها بأسلوب ذلك العصر .

وبرغم ان اطار هذه البابة - كغيرها - هو الاطار الفكاهى المرح فانها تصور نقدا سياسيا لاذعا لحدث مشهور فى تلك الفترة ، وهو استقدام الأمير ابى العباس أحمد بن الخليفة الظاهر العباسى

من بغداد الى مصر واحتفاء الملك الظاهر بيبرس به . وبطل هذه
البابة هو الأمير وصال ، وهو الصورة الساخرة لذلك الأمير
العباسي .

وهذه البابة الدانيالية الأولى من ألوان الكوميديا المسماة
بالمقارس أى المهزلة . واحداثها تتابع متسلسلة حتى تؤدى دورها
فى خلق الموقف الضاحك فى خلال مراحل البابة ، كما تؤدى الى
النهاية المريحة لموضوع القصة .

البابة الثانية :

عجيب وغريب :

يعتبر البعض هذه البابة احدى الوثائق التاريخية الصالحة
ومن الشواهد الحيوية الصادقة ، التى تصور جانبا اجتماعيا فى
عصر من أهم عصورنا الماضية فهى بمثابة سجلات فنية شعبية لمجتمعنا
ونفسيته ، ومنهج تفكيره وطرائق عيشه ومسالك خبراته ، مما يهم
باحث التاريخ والاجتماع ونحوهما ، لأنها تبرز ناحية من نواحي
حياة الشعب قلما يقع نظر الباحث عليها فى كتب التاريخ فقد صاغ
اين دانيال اللغة الدارجة والمعانى المتداولة بين اشخاص من عامة
الشعب فى أسلوب عربى ، وتناول كل تلك المعانى الشعبية وعبر
عنها بالفاظ تنم عن غزارة مادته اللغوية وثروته الأدبية .

وبالرجوع الى هذه البابة نجد انها ليست تمثيلية كاملة
العناصر لها موضوع معين ، وانما هى مجموعة من المواقف أو
الاستعراضات الفكاهية تعرضها مجموعة عجيبة من ذوى الحرف
الغريبة ممن كانوا يجولون فى الأسواق والموائد والحفلات العامة ،
فهى تعرض حوالى سبع وعشرين شخصية (١١) من هذه
الشخصيات حسب الظهور فى المسرحية :

غريب الصائى وشجيب الدين الذى اعطى ، وحويس الحساوى
وعسلىة المعاجينى ، وهلال المنجم ، وعواد الشرماط ، وشبل
السباع ، ومبارك الفيال ، وأبو العجب صاحب الجدى ، والصائفة
وأبو القطط ، وزغير الكابى ، وأبو الوحش ، وناتو السودانى ،
وشدقم البلاغ صاحب الرمح والسيف ، وميمون القراد ، ووثاب
المبختيارى صاحب الحبال والصوارى ، وجراح المنبل ، وحمسال
المشاعل ، وعساف الحاوى براحلته ، وغريب .

واستطاع ابن دانيال بمهارة ان يقدم وصفا دقيقا لهذه
الشخصيات من حيث الحركة أو طريقة الحديث والتخاطب واختياره
لكل شخصية ما يناسبها من الحوار وينتقى لها خصائصها من القول
والفعل والمصطلح ، كما اختار لكل شخصية اسما غريبا مضحكا
مشتقا من طبيعة المهنة التى تمتهزها أو منطبقا على أوصافها
الجسمية الطبيعية والشاذة ، وهو أسلوب مازال معمولاً به فى
بعض المسرحيات الكوميديّة الهابطة التى تشتمل على شخصيات
تحمل أسماء غريبة بقصد الاضحاك .

وهذه المواقف الخفيفة لبابة عجيب وغريب قد تنعدم الرابطة
الموضوعية بينها ، لكن يمكن القول بان هناك رابطة واحدة بين هذه
المواقف ، وهى اتفاقها جميعا فى اظهار ناحية من نواحي المجتمع
المصرى فى القرن السابع الهجرى ، كما ان هذه البابة وان بعدت
عن التقاليد المسرحية فانها تستحق منا وقفة اعجاب لذلك المؤلف
والمصور البارع الذى تأمل المجتمع حوله فوجد الفساد بين طبقات
الشعب ، ورأى المحتالين يبتزون أرواح الجمهور السذج بطريقتهم
الخاصة ، فصور ذلك كله وجسم حيلهم أمام الجمهور حتى يظهرهم
على حقيقتهم ، وقد استغل ما عرف به من سخرية وفكاهة وقدره
على النظم والنثر فى تصوير ذلك كله كأنه مصلح اجتماعى يبرز
ما فى المجتمع من عيوب .

ولعل ذلك هو ما يضيف على بابات ابن دانيال قيمة اجتماعية مهمة في عصر الماليك خاصة ان مهنته الأولى وهى مهنة الكحالة بـدكان « داخل باب الفتوح » تد اعانته على ان يشاهد عن كثب ، بل ان يخالط نماذج كثيرة من البشر تعج بهم الأحياء الأدله بالسكان .

ثالثا : الباية الثالثة :

ويأتى بعد ذلك دور الحديث عن تالئة روائع ابن دانيال التى سماها « المتيم والضائع اليتيم » وهى تختلف فى موضوعها عن البابتين السابقين اختلافا كبيرا ، وان اتفقت معهما فى الأسلوب والهزل .

وهناك شك كبير فى صحة انتساب هذه الباية لابن دانيال ، أو على الأقل فانها قد تكون تعرضت لكثير من التحريف حتى خرجت فى مستوى هابط ، تعبر عن صورة بشعة من أنواع الشذوذ ، وأخطر مهاوى الانسان ، ويستند أصحاب هذا الرأى الى ان ثمة اختلافات فى نصوص هذه التمثيلية فى المخطوطات التى ذكرتها ، ويؤيدون بذلك وجود الشك فى نسبة التمثيلية برمتها الى ابن دانيال .

ويعزو البعض صحة هذا الشك الى ان الأساليب الهابطة التى وردت بهذه الباية ليست للشيخ ابن دانيال ، لما يكتنفها من مستوى هابط .

ولكن ذلك يمكن الرد عليه بان طبيعة ابن دانيال الساخرة ، كذلك ظروف المجتمع المصرى فى عصر سلاطين الماليك وما ساءه من خلاعة ومجون وميل الى المتع المحسية كل ذلك من شأنه ان يجعل انتاج ابن دانيال وكثيرين غيره (١٢) تغلب عليه تلك الرو-

الفكاهة والاسترسال فى الخلاعة والمجون اللذين طبعت عليهما شاعريته التى اتجهت الى بعث السرور واثارة الضحك والترويح عن النفس بالفكاهة والسخرية معا .

ومادام هذا هو الاطار العام الذى دارت فيه بابات ابن دانيال فلماذا اذن الشك فى نسب تلك البابة اليه مع ما عرف عنه من الاتجاه فى شعره وتمثلياته الى المجون ؟ ومع ذلك نراه احيانا يستثير الضمير الدينى الأخلاقى والاجتماعى فيؤكد ان حياة اللذة الحسية تضيق صاحبها فى الدنيا والآخرة فنرى ان كلا من باباته الثلاث ختمت بطلب التوبة والانابة وتلك نهاية تعد مثارا للراحة النفسية لدى الجمهور وتتكون شخوص هذه البابة من شخوص بشرية وشخوص حيوانية وجمادية ، والشخوص البشرية تضم : المقيم ، الذميم ، بابا البيرم والحكم زيهون بالاضافة الى شخصيات اخرى ثانوية .

أما الشخوص الجمادية والحيوانية فتتجسد فى الديوك والكباش والثيران وأدوات المائدة ، حيث استعرض ابن دانيال بعض الألعاب التى كانت شائعة فى عصره .

والجدير بالذكر ان هذه البابات الظلية الثلاث قد ألفها صاحبها ابن دانيال فى عهد السلطان الظاهر بيبرس كما سبقنا الإشارة بهدف ملء الفراغ الذى استحدثه السلطان بالقضاء على الخلاعة والمجون ، كما اعترف هو بذلك .

وتشير بعض المراجع الى ان هذه البابات لابن دانيال وجدت فى مخطوط قديم عثر عليه مصادفة وحفظ بمكتبة « أحمد تيمور باشا » ثم انتقل الآن الى دار الكتب المصرية ، ووجدت نسختان أخريان من هذا المخطوط احدهما بمكتبة الأسكوريال بالأندلس ، وأخرى بمكتبة استانبول بتركيا .

ويذكر بعض الباحثين في تاريخ الأدب الشعبى ، ان هذه المخطوطات الثلاث كتبها رجال أساءوا فهم أصول هذه التمثيليات ، خاصة أن تدوينها قد تم بعد وفاة ابن دانيال بزمان طويل .

وقد يكون ذلك سببا فيما حدث بالنسبة لبعض التمثيليات الدانيالية من تغيير أو تحوير مما دفع البعض الى الشك فى نسب لحدى التمثيليات الى ابن دانيال كما سبقت الإشارة الى ذلك .

ولم تكن بابات ابن دانيال هى الوحيدة التى تمثل بواسطة خيال الظل ابان عصر سلاطين المماليك ، بل كان هناك العديد من التمثيليات التى كانت تقدم على مسارح خيال الظل وتتناول موضوعات على مستوى أرفع من الموضوعات التى تناولتها تمثيليات ابن دانيال ، ولكن لم يستطع الحصول عليها ويرجع البعض ذلك الى انها إما ان تكون منقودة وإما انها لاتزال محفوظة فى المكتبات الخاصة ، كما قد يرجع لاختفاء بعض النصوص الظلية الى انقراض اللاعبين الذين كانوا يحفظونها ، ويتبادلونها بينهم مشافهة .

ومما لاشك فيه أن الويلات التى أصابت بلاد العرب ، طوحت بكثير من تراثه الخالد ، كما أن اللغة التى كان يستعملها أرباب الخيال لاتخلو من مجون وخلاعة ، ولذا تحاشاها رجال الدين وزهدوا فيها ، فتركها الناس وكان نصيبها الإهمال والتلف .

وقد انتشر خيال الظل انتشارا واسعا بين الأوساط الشعبية فى مصر ابان عصر المماليك ، حتى أصبحت العروض الظلية تقدم فى معظم الأفراح وحفلات الزواج ، كما كانت تقدم فى المقاهى الشعبية .

وتدور معظم هذه البابات حول نقد المظالم التى كانت تعترض الحياة الاجتماعية المصرية ، أو تدور حول الدعوة لكراهية الأعداء

ومهاجمتهم والانتصار عليهم . ولم تذع هذه البأبة ربما لأن موضوعها هو السخرية من جماعة العلماء الذين كانوا يكونون طبقة خاصة من المجتمع المصري وعرفوا بأصحاب العمامة ، تمييزاً لهم عن الطبقات الاجتماعية الأخرى ، وكان يحترمها الشعب المصري ويتخذ منها ملجأ وحامياً أمام طغيان المماليك وظلمهم ، فسخرية المؤلف من هذه الطبقة جعلت الناس ينفرون منها ولا يقيلون عليها .

ويدل رفض الشعب المصري لهذه البأبة المأجزة التي تسمى إلى طبقة العلماء ، على سلامة حس الشعب وقدرته . وما دام الحديث يتناول تمثيلات خيال الظل التي كانت نتاجاً أدبياً لمحترفي فن الخيال أبان عصر سلاطين المماليك فتجدر الإشارة إلى عدة تمثيلات أخرى ظهرت بعد هذا العصر وتوسل بها فن خيال الظل في عروضه الجماهيرية .

ونذكر من هذه التمثيلات ما ذكره أحمد تيمور في كتابه خيال الظل واللعب والتمثيل عند العرب وفيه يتحدث عن « صفة اللعب بالخيال » ويذكر المراجع القديمة والحديثة التي ذكرته وعرفت به وأرخت له ، ويسجل طرائف مما قيل فيه ، وفي لاعبيه ، ومحببيه . ثم يسجل ملخصات دقيقة وأفيه لاثنى عشرة قصة من قصصه الرائعة منذ أول العهد بخيال الظل بين الفنون المستحدثة إلى العهد الذي لحقها فيه (١٣) .

وعن جمهور خيال الظل في عصر سلاطين المماليك كوسيلة من وسائل الترفيه في ذلك العصر ، فقد انتشر هذا الفن انتشاراً هائلاً بين الأوساط الشعبية مما ساعد على ترويج رسالته لوصولها إلى أكبر قطاع ممكن من جمهرة الشعب الذي وجد في المخالصة تبصيراً عما بنفسه وعما حوله ، فقد كانت طبيعة حياة هؤلاء

المخيلين واحتكاكهم الشديد بالمجتمع الذى يعيشون فيه ، ومعاناتهم لمشكلاته وآلامه ، وكذلك قربهم من الطبقة الفقيرة فى البلاد ، واحساسهم بما تعانيه ، بل مشاركتهم هذه المعاناة .

كل هذه عناصر أساسية طبعت انتاجهم الأدبى بلون خاص وجعلتهم ينفرون من المشاكل الذهنية المجردة ، لينقلوا بعد ذلك فى مسرحياتهم ما يريدون من حياة وحرارة ، وليعالجوا فيها مشكلات واقعية لاتخلو من وخزات نقدية للمعاداة والأوضاع العامة ، ولا من التلميحات والتوريات السياسية اللاذعة ، كل ذلك فى اطار فكاهى مرح يعرضه المخيلون امام النظارة لقاء أجر معلوم .

وقام فن خيال الظل بدوره الأساسى فى التسلية والترفيه . فاقامت العروض الظلية فى المواسم والموائد ، وفى معظم الأفراح وحفلات الزواج كما كانت تقدم فى المقاهى الشعبية ، حيث يلتقى بروادها الذين كانوا يشكلون جمهورا على قدر من التجربة والنضج وكانوا يحبون أن ينقدهم خيال الظل ، فكانما استقر فى النفوس أن هذا الفن لابد أن ينقد كل الناس ، وكل الطبقات ، فهم يقبلون النقد وان كان جارحا .

ولم تكن تمثيلات خيال الظل تسلية للطبقات الدنيا فحسب بل كانت تعرض على الكبراء كذلك ، تنقل اليهم ، ولا ينتقلون اليها .

فقد كان على القوم وأثريائهم فى أول الأمر يستقدمون المخيلين فى مناسبات عديدة ، ليقوموا بالترفيه عن مدعويهم .

ورغم ما تميز به هذا الفن من شعبية فلم يصبح نشاطه مقصورا على الترفيه عن العامة بموضوعات من الجد أو الهزل ، بل ظل المخايون يغزون قصور الحكام والأعيان فى الريف والمدن على السواء خاصة فى ليالى رمضان .

وقد كان السلطان الناصر حسن يتسلى بمشاهدة خيال الظل ويدعوه اليه ويصحبته الأمراء ، ويقول ابن اياس فى حوادث سنة ٧٦٢هـ فى المحرم « عدى السلطان وتوجه الى نحو كوم برا ، وكان زمن الربيع ٠٠ فلما توجه السلطان الى كوم برا ، طابت له الإقامة هناك ، فأقام بها نحو ثلاثة أشهر ، وكان بالقاهرة أوخام وأوباء مع أمراض شديدة بالناس ، فاستمر مقيما هناك وهو فى ارغد عيش وكان فى كل ليلة يحضر عنده مغان عرب ، وخيال ظل ، ويحرق حراقات نقت ، وكانت الأمراء تتوجه الى هناك ، وتعطى الخدمة للسلطان فى كل يوم اثنين وخميس ٠٠

كما حرص السلطان الأشرف شعبان أن يحمل معه عدة من أرباب الملاهى والمخيلين لما حج فى سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م مع ماحمله من الملاهى .

ويمكن القول - استقراء لكتب التاريخ والأدب التى تناولت عصر سلاطين المماليك بالدراسة - بأن موقف الحكام من خيال الظل كان يختلف من حاكم الى آخر ، فمنهم من كان يبيعه ويشجعه ، ومنهم من كان يتركه ولايمنعه كذلك كان منهم من يحاربه ويحرمه ويأمر باحراق عرائسه ويأخذ على لاعبيه العهود بالآلا يعودوا الى ممارسته ، فقد ذكر المسخاوى فى التبر المسبوك أن المظاهر جقمق أمر فى سنة ٨٥٥هـ - ١٤٥١م بإبطال اللعب بخيال الظل ، واحراق شيوخه وكتب على اللاعبين العهود بالآلا يعودوا اليه .

ولعله فعل ذلك لما كان يقع من مجتمعاته من مفسد ، حتى أن البعض يذكر أن لاعبي ولاعبات خيال الظل أنفسهم كانوا - فى ذلك الوقت - من أخط الناس خلقا ، وكان الشذوذ الجنسى متفشيا بين

الملاعبين من الرجال ، حتى لقد كان لهم معجبون من الشـوان ، يشغفون بهم حبا ويغدقون عليهم الأموال ، بل كان الشعراء من هؤلاء المعجبين الشوان ينظمون القصائد فى الغزل الفاحش بهؤلاء اللاعبين والملاعبات(١٤) .

ورغم هذا فانه يجب علينا الان نساق وراء ذلك الرأى كلية فان فى ذلك الاتهام لأصحاب الخيال قسوة وتعميما ، وهو أمر لايجوز أن يقع فيه باحث مدقق ومعلوم ان أمر بعض السلاطين باضطهاد اللعب بالخيال - السلطان جقمق - لم يكن لسقوط هذا الفن فى هاوية خلقية فحسب بل ان الدافع الرئيسى لذلك هو أن السخرية والنقد قد تجاوزا الحدود المقررة عند الحكام ، فقد اصطنعت بابات هذا الفن رموزا تثير السخرية والضحك فى نفوس الجماهير بين السلطان وحاشيته .

فقد كان هذا الفن يتصدى فى كثير من مواقفه للنواحي السياسية والاجتماعية ولايكتفى بمواقف الضحك التى يثيرها بين جمهوره كما سبقت الاشارة الى ذلك .

وكان الأمراء شغوفين بمشاهدة عروض خيال الظل فى مناسبات عدة وكانوا يسمحون للناس بمشاركتهم فى ذلك ، فلا يملون الفرجة على هذا الفن وغيره من الملهى فى كل ليلة لأيام طويلة متواصلة ، فيذكر أنه فى ربيع الآخر عام ٨٩٩هـ اختار السلطان قايتباى الأمير ماماي بن خداد الدوادار الثانى رسولا الى ملك بنى عثمان فأخذ ماماي يستعد للرحيل ، وكانت توقد له كل ليلة بناحية بركة الرطلى وقدة حافلة يمثل فيها خيال الظل أو يغنى بعض من مغنى العرب أو ابن رحاب المغنى أو يتفكهون بالعباب رنكات فرقة المحبطين ، وكان رئيس المحبطين فى عهده هو محمد الرئيس

فتات العنبر ، وكان استازا فى صنعة الخيال وفساق فى ذلك
« بريوه » (١٥) .

ولندع ابن اياس يحدثنا فى ذلك فيقول « وكان يعمل فى كل
ليلة خيال ظل أو مغانى عرب ، أو ابن رحاب المغنى أو غير ذلك
من الملاحى ، وكانت ليالى مشهودة فى القصف والفرجة حتى خرج
الناس فى ذلك عن الحد وأقاموا على ذلك نحو من عشرين يوما
ثم سافهم الامير ماماي وخرج فى تجميل زائد وموكب حافل ، فترجه
الى بلاد ابن عثمان » .

وفى ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ نزل السلطان الناصر محمد بن
قايقباى من القلعة واتجه نحو القناطر العشر ، فعدى الى بر
الجيزة ، ومعه أولاد عمه قيت وهما جانم وأخوه جانى بك وععدد
من الخاصكية ، وقد سبق هذا الجمع الخدم والطهاة ، فضربوا لهم
وطاقا هناك حيث أقاموا ثلاثة أيام ، واستدعى لايئاس السلطان
ومن معه « أبو الخير » ومعه « خيال الظل » وجوق المغانى العرب
و « بريوة ريس المحبطين ، وقد خرج عن الحد فى اللهو والخلاعة
والانشراح » .

وهكذا استمر خيال الظل طوال عصر سلاطين المماليك من
أهم وسائلهم فى الترفيه ، بل كان تسلية عامة لجميع طبقات
المجتمع التى استمتعت بهذا الفن وتجاوبت معه بدرجة كبيرة فكان
ذلك عاملا من أهم عوامل ازدهاره ورواجه فى ذلك الوقت .
والجدير بالذكر أن حفلات خيال الظل كانت تقام فى الساعات الأولى
من الليل أى بعد المغرب بقليل ، كما كانت تقام فى الأحياء لحياء
ليالى رمضان أو بعض الأعياد الأخرى وبعض المناسبات السعيدة
كحفلات الختان .

وتزامن مع فن خيال الظل خاصة فى الفترة الاخيرة فن شعبى آخر شاع بين الناس باسم الأراجوز ، أو قرقوز .

ونميل الى الراى القائل بانها فى الأصل كلمة تركية خاصة ان هذا الفن كان قد انتشر فى تركيا من قبل .

وتجدر الاشارة ولو فى عجلة سريعة الى هذا الفن باعتباره فنا تزامن مع فن خيال الظل فترة فى أواخر عصر سلاطين المماليك وهو يمثل بواسطة دمي من الخشب أو الجص متحركة الأعضاء ، وهى تتحرك بواسطة خيوط تشد الى أسفل المنضدة الموضوعة عليها تلك الدمى ويصاحب حركاتها حوار يلقيه صاحب القره قوز الذى ينغم صوته تبعا لمقتضيات الموقف .

وتلك الدمى المستخدمة فى القره قوز تختلف فى خصائصها عن دمي خيال الظل فهى تصنع على شكل مماثل للشكل الأسطوانى للجسم وليست رقائق مسطحة من الجلد أو الخشب أو الورق المقوى أو غيره مما تصنع منه دمي خيال لتمثل قطاعا جانبيا أو اماميا للجسم وتصمم لهذه الدمى ملابس مختلفة مما ترتدى مثلها الشخصيات الحية التى تحاكيها ويغلب ان يصمم الوجه فى وضع تعبيرى يدل على أعماق خصائص الشخصية التى تمثلها الدمية .

وسواء كانت هذه الخصائص واقعية أو رمزية فان تركيب الوجه كان يعبر فى العادة عن ملامح مضحكة مدعاة للسخرية فعند تصميم وجه الدمية التى تمثل شخصية الجندى المملوكى أو التركى - وكان شخصية مكروهة جدا من المصريين - كان يراعى أن يكون قفاه عريضا ليبدل على شدة غبائه وبطشه ، وتنهال على هذا القفا العريض صفعات الأراجوز وغيره من شخصيات التمثيلية .

وواضح من هذا أثر كراهية الشعب لحكامه فى ذلك الزمن
وسخريته منهم ومقاومتهم بهذا الأسلوب المصرى الأخاذ .

وفن الأراجوز اقرب الى التهريج الشعبى من فن خيال الظل
كما يبدو أن تمثيلياته مرتجلة يبعثها الموقف والمناسبة نفسها أو
محفوفة يتناولها القائلون بهذا الفن شفاها ولم يكن يقصد بها
الا التسلية والترفيه فى المقام الأول ولذلك لا يظن انه قد دون منها
شئ أو ألفت فيها تمثيليات تكون كل منها وحدة متماسكة كما فى
بابات خيال الظل .

ورغم شيوع فن القره قوز وانتشاره فان خيال الظل لم يتوقف
ولم ينحسر كلية أواخر عصر سلاطين المماليك ، ولكنه استمر
بصورة أو بأخرى حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى فكان
لا يزال للناس شغف بالخيال فى مصر وكانت له سوق رائجة فى
الأعراس ، وقل ان يقام عرس لا يلعب فيه الخيال .

هوامش الفصل الثالث

(١) احمد تيمور ، خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب
ص ١٧ .

احمد عبد الرازق وآخرون : دراسات فى الحضارة الاسلامية -
المجلد الاول ص ٩٣ ويشير المؤلف الى ان المستشرق الالماني جورج جاكوب
قد عنى بدراسة هذه اللعبة فوقف على طبع اجزاء من كتاب طيف الخيال
لابن دانيال الموصلى وكتب فى خيال الظل كتباً ومباحث جاء بيانها فى
المبحث الذى كتبه ليتمان فى مجلة الجمعية الشرقية الالمانية . انظر :
E.L. Hmann. Z. M6, Band 91 — Heft 2, (1937). PP. 486 — 500.

(٢) ويذكر شوقى ضيف ان مصر والشعوب الاسلامية قد عرفت خيال
الظل منذ القرن السادس للهجرة .
(انظر شوقى ضيف ، الفكاهة فى مصر ص ٦٤) .

(٣) القنطان محرف عن لفظه التركى (قنستان) وهو فى الفارسية
(خفتان) والمخل اى ذو الوبر المعروف الآن بالمقطيفة .
(انظر احمد تيمور ، خيال الظل حاشية ٢ ، ص ٢٣) .

(٤) يتخذون له بيتاً مربعاً يقام بروافد من الخشب ويكسى
بالمخيش او نحوه من الجهات الثلاث ، ويسدل على الوجه الرابع ستر ابيض
يشد من جهاته الاربع شداً محكما على الاخشاب ، وفيه يكون ظهور
الشخص ، فاذا اظلم الليل ودخل اللاعبون هذا البيت ، ويكونون خمسة
فى العادة منهم غلام يقلد النساء واخر حسن الصوت للغناء ، فاذا ارادوا
اللعب ، اشعلوا نارا قوامها القطن والزيت تكون بين ايدي اللاعبين ، اى
بينهم وبين الشخص ، ويحرك الشخص بعودين دقيقين من خشب الزان ،

يمسك اللاعب كل واحد بيد ، فيحرك بهما الشخص على ما يريد ، وتتخذ الشخص من جلود البقر ، بحيث اذا عرضت : « الصور » أمام ضوء النار المشتعلة ظهرت زاهية بهية لشفوف تلك الجلود .

(انظر ، احمد تيمور ، خيال الظل ، ص ١٩ ، ٢٠) .

(٥) وهناك وصف اخر لخيال الظل يوضح انه كانت « تنصب ستارة ويوقد خلفها (على بعد معين) مصباح ثم يقف بين المصباح والستارة شخصان يقومان بحركات مضحكة (ويكون جانب القاعة الذى يجلس فيه النظارة مظلمة ، فيظهر خيال النخسين وما يقومان به أثباحا تتحرك على الستارة » .
(انظر ، عمر فروخ ، تاريخ الادب ، ج ٣ ، ص ٦١٨) .

(٦) الحسن بن عمر بن الحسن ، تذكرة النبیه فی أيام المنصور وبنیه ج ٢ ص ٧٦ حيث يقول :

الكون عندي كالخيال ل محرك الاشخاص واحد
ان كنت تنظر غيره ما انت من حزب الاماجد
(٧) ومما قاله فى ذلك :

لقد كان حد السكر من قبل صليبه خفيف الاذى اذ كان فى شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبى لا تب فان الحد قد جاوز الحدا
(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٠٤) .

(٨) حيث يقول :

ياسائلى عن حرفتى فى الورى وضيعتى فيهم وافلاسى
ما حال من ذرهم انفاقه ياخذة من اعين النباس
وقوله :

ما عانيت عيناى فى عطلتى اقل من حظى ولا بخستى
قد بعثت عبدى وحمارى معنا واهتبت لا فوقى ولا تحستى

(٩) مخطوط = طيف الخيال : تأليف شمس الدين ابن عبد الله محمد بن دانيال (دار الكتب - ٣٥٥٦ ادب) .

(١٠) - قام تقى الدين الهلالي سنة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٨م بنشر بعض المخطوطات التى تتضمن بابات ابن دانيال وطبعها بمطبعة الاعتماد ببغداد .

(١١) تختلف المخطوطات في تحديد عدد شخوص هذه البياة ففي النسخة المصرية سبعة وعشرون شخصا بينما في النسختين الأخرين خمسة وعشرون شخصا فقط .

(١٢) منهم على سبيل المثال :

ابن سودون : هو نور الدين ابو الحسن على بن سودون العلانى البشباوى . ولد فى القاهرة ٨١٠ هـ وتوفى بدمشق سنة ٨٦٨ هـ .

(انظر ، الضوء الملامع للسحاوى ج٥ ، ص ٢٢٥) .

(١٣) وهذه القصص الاثنتا عشرة اطلق عليها لعبا ومفردا « لعبة » وهى : لعبة علم وتعاذير ، ولعبة الأولانى ، ولعبة التمساح ، ولعبة ابى جعفر ، ولعبة الشونى أى لعبة المركب ، ولعبة الحجية - أى السفر الى الحج - ولعبة الحمام وكذلك لعبة التياترو ، وهناك ايضا لعبة القهوة ، ولعبة الشيخ سمس او شمس ولعبة العجائب ، ولعبة حرب السودان .

(انظر احمد تيمور ، خيال الظل والتماثيل المصورة عند العرب ص ٢٠ وما بعدها) .

(١٤) ويقول : احمد تيمور نقلا عن صلاح المدين بن ايبك الصفدى انه قال فى مليح مخايل :

هويت خيالبا حكى الغصن قـده	اذا ما افثنى هاجت عليه البلابل
أراق دم العشاق سيف جفونه	ومن بعد ذا اضحى عليهم يخايل
وقال فيه ايضا .	

مخايل قـد بدت عليه	مخايل البدر فى الكمال
تريـسك باياقه فنونـا	تروق فى الحسن والجمال
فقد غدا وصلـه يقينـا	احسن ما كان فى الخيال

(انظر احمد تيمور ، خيال المظل ، ص ٢٢) .

(١٥) بريوة ، هو أحد رؤساء فرقة المحبطين .



الخاتمة

تنوعت وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر بدرجة كبيرة نتيجة لظروف المجتمع المصري في ذلك الوقت وطبيعة نشأة المماليك الذين أغراهم غنى مصر خاصة في أول عصرهم بالتقنن في الاستمتاع بمباهج الحياة سلاطين وأمراء ومن يدور في فلكهم . وعرف عن المماليك بحكم نشأتهم أنهم كانوا يميلون عن الشعب ويعتبرون أنفسهم طبقة مميزة لها من الحقوق ما ليس لأفراد الشعب .

ورغم ذلك فقد وجدت وسائل ترفيهية استمتع بها العامة من الشعب وإن كان دورهم في ذلك سلبيا اقتصر على كونهم متفرجين ومشاهدين إلا فيما يتناسب مع قدرهم وقدرتهم من وسائل الترفيه الشعبية غير المكلفة والتي لا تتطلب امکانات وأدوات ضرورية لممارستها يعجز الكثيرون عن تدبيرها .

ولعله بات من الواضح أن وسائل الترفيه في ذلك العصر يمكن تقسيمها الى وسائل جادة تمثلت في أنواع من المجالس كمجالس العلم والوعظ والأدب والألعاب الرياضية التي كان منها بالضرورة الفروسية والرماية وهي تتفق مع طبيعة المماليك في كونهم غرسا من مغاوير جريا وسلما وإن كانت هذه الرياضة في الغالب الأعم رياضة

أرستقراطية فلم نستدل على أن أحدا من العامة كانت له مشاركة
إيجابية في هذا المجال حيث كان يحرم على طبقات معينة من الشعب
ركوب الخيل أو حتى اقتناؤها .

ومن أهم وسائل الترفيه كذلك سرحات الصيد التي أصبحت
مواكبها من مراسم الدولة المملوكية وعلى امتداد العصر خرج
السلاطين في سرحات للصيد إلى كثير من مواضعه من أرض
مصر ، وكذا شارك السلطين والأمراء في رياضة لعب الكرة
(البولو) وكانت تلعب من فوق ظهور الخيل وأصبحت من أهم
الرياضات حتى اتخذت أدواتها وهي عصا البولو شعاعا يرسم على
رنوك بعض الأمراء . وكانت البولو لعبة أرستقراطية ففي الغالب
لم تكن تمارس إلا من جانب السلطين والأمراء والفرسان وكان
دور الشعب فيها محدودا يقتصر على كونه جمهورا متفرجا .

هذا إلى جانب مجالس أخرى تتصل بالشراب والطرب واللهو
وقد انهمك غالبية السلطين الممالك والأمراء في تعساني هذه
المجالس وتنوعت أسباب الترفيه غناء وموسيقى ورقصا ، فازدهر فن
الغناء في ذلك العصر حتى أصبح يعد من أزهى العصور طربا
وكثر فيه المغنون والمغنيات والعازفون والعازفات وأيضا وجد
الراقصون من الرجال والراقصات اللاتي جلبهن الممالك من
اليهود والأرمن .

كما شاع في العصر المملوكي وسائل ترفيهية أخرى عرفت
بالوسائل المنزلية أو الهادئة وهي في الغالب لا تحتاج إلى حركة
ولكن يلزم لها الهدوء والجلوس مما دعا البعض إلى تسميتها
بالألعاب الهائنة ومن أمثلة ذلك ، لعبتا النرد والشطرنج واتضح
من خلال الدراسة اشتراك الكثيرين في هذه اللعبة خاصة الشطرنج .

فبرغم انه لعبة ارسنقراطية للملوك والعظماء فان كثيرا من الطوائف قد مارسست هذه اللعبة كالقضاة والعلماء والتجار وغيرهم .

كما وجد ايضا من هذه الألعاب لعبة الورق التى كان يمارسها بعض افراد الشعب ولم نستدل على أن احدا من السلاطين قد مارس لونا من ألعاب الورق .

أما ألعاب الاطفال فقد تنوعت على الرغم من ان اطفال العامة لم تكن لهم ألعاب مميزة عن غيرهم من الاطفال فى أى عصر بل ان اطفال الممالك بطبيعة الحال وخاصة أبناء السلاطين والأمراء وكذا السلاطين الاطفال كانت لهم ألعاب متنوعة وان كانوا قد بالغوا أحيانا فى ذلك . وغلبت على اطفال الممالك الألعاب العسكرية نتيجة لتربيتهم فى الطباق التى تعتبر مدارس عسكرية يتخرج فيها الملوك ويستمر تعليمه عند سيده حتى يصبح فارسا .

وثمة وسيلة ترفيهية أخرى شاعت فى عصر سلاطين الممالك وهى خيال الظل التى كانت مجالا للترفيه بالنسبة للسلاطين والأمراء والعامة على السواء ، بل هى الوسيلة الأهم بالنسبة للطبقات الدنيا التى وجدت فيها السلوى وعبر بفنّها عما يريدون ذلك لاختلاط أربابها ومعاشيتهم لطوائف الشعب .

وقد انتقد المخيلون بفنهم بعض الأوضاع التى كانت سائدة فى ذلك العصر فلم يستطع ذلك غيرهم فى الغالب الاعم ، فيسوقون النقد فى أسلوب ساخر ضاحك فيمر دون مؤاخذة وقد اوضحت الدراسة ان وسائل الترفيه التى وجدت ومورست فى العصر المملوكى انما كانت فى معظمها امتدادا لمثيالاتها فى العصور الاسلامية السابقة وان غلب عليها طابع خاص فى العصر المملوكى لما تميز به الممالك من حيوية ونشاط .

هذا مع قلة ما أحدثوه من وسائل جديدة للترفيه في عصرهم فلم نجد جديدا منها في عصرهم سوى لعبة القبق فلم تشر إليها مصادر سابقة على عصرهم .

وامكن الوقوف على مشاركة جميع فئات الشعب في الترفيه وان اختلفت الوسيلة كالعلماء والقضاة وعامة الناس .

واختلفت مواقف السلاطين والامراء تجاه بعض وسائل الترفيه فمنهم من شجع اللعب والرياضة كالرماية والصيد والفروسية وغيرها فاقاموا لها الميادين المختلفة وحرصوا الناس عايتها . ومنهم من انهمك في اللهو واسباب الترفيه من شراب وغناء وخلافه كما وجد من السلاطين من حاربوا اسباب الخلاعة والمجون فمنعوا المسكرات والبغايا الا ان هذا المنع لم يكن ليستمر طويلا فسرعان ما كانت تعود الحال كما كانت وحيانا اشد . وكان هذا المنع غالبا مايكون في ضوء ما تتعرض له البلاد من كوارث وازمات .

كما ان تعلق الناس في ذلك العصر بضروب الترفيه والملاهي كان له اثره الواسع في ادبهم وشعرهم فعبير الشعراء والادباء شعرا او نثرا مما اثري الحياة الادبية في ذلك العصر .

ولوحظ من خلال الدراسة ان بعض وسائل الترفيه كانت ارسنقراطية لايمارسها غير السلاطين والامراء ولم يكن لعامة الناس مشاركة ايجابية فيها مثل الفروسية والصيد والاعاب القبسق والبولو على سبيل المثال .

وان كان الشعب قد شارك حكامه بدرجة او باخرى الكثير من متعهم كالاستمتاع بمجالس الطرب غناء ورقصا وموسيقى فقد كانت معظم هذه المجالس مفتوحة تقام في مواضع المتنزهات والفرجة بحيث يمكن للراغبين الاستمتاع بها متى شاءوا .

ولوحظ ان فئات الشعب مع استمتاعهم ببعض وسائل الترفيه فانهم في ذات الوقت تحملت أعباء ذلك وما ترتب عليه من نفقات في اقامة الزينات التي ضج الناس منها لكثرة المناداة بها في كل مناسبة مهما كانت . فيرسم السلاطين والامراء باقامة الزينة بأوامر صارمة لا يملك الناس الا الامتثال لها .

ولعل الشعب في ذلك كان غاضبا راضيا لأنه وجد في هؤلاء الممالك فرسانا وحماة للبلاد ردوا عنها اخطارا داهمة من الصليبيين والتتار .

وتأثرت وسائل الترفيه راجا او اندسارا بالحالة الاقتصادية للبلاد فكانت رائجة في اوقات اليسر ، منحسرة في اوقات الأزمات والمجاعات والأوبئة وتعتبر الفترة الأولى من العصر المملوكي أكثر ترفيها نظرا لغنى الدولة المملوكية بدرجة كبيرة رغم كثرة الحروب .

ومع استمرار وسائل الترفيه ابان عصر الممالك الجراكسة فإنه كان بداية النهاية لعصر سلاطين الممالك خاصة عندما ظهر الخطر العثماني الذي أصبح يهدد الدولة حتى قضى على استقلالها عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م .

* * *

ثبت المصادر والمراجع

(١) المخطوطات :

- ١ - ابن بكتوت الرمساح :
- كتاب الفروسية وعلاج الخيل ، مخطوط بدار الكتب
المصرية تحت رقم ٤ فنون حربية .
- ٢ - جمال الدين حسين بن أحمد :
(غير معروف وفاته)
- روضة المستهام فى علم الانفسام ، مخطوط مصور
ميكروفيلم ضمن كتاب فى معرفة الغناء والهنوك ، بمعهد
مخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم ٣٢ موسيقى ،
وتوجد نسخة أخرى ناقصة بنفس المعهد تحت رقم ٢٩
موسيقى .
- وهى مصورة عن نسخة طوبقور باستانبول .
- ٣ - ابن دائيئال :
(شمس الدين محمد بن دائيئال بن يوسف الخزاعى الموصلى
ت ٧١٠ هـ) .
- طيف الخيال ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم
٥٣٥٦ أدب .

٤ - السرزاز :

(بديع الزمان أبى العز بن اسماعيل الجزرى ت ٦٧٢ هـ)
- الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل ،
مخطوط مصور ميكروفيلىم بمعهد مخطوطات جامعة الدول
العربية تحت رقم ٢ ، ٥ ، صناعة اطعمة .

٥ - صفى الدين الارموى :

(ق ٨ هـ)

- مختصر فى معرفة النغم ونسب أبعاده وأدواره ، مخطوط
مصور ميكروفيلىم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية
تحت رقم ٤٠ موسيقى .

٦ - ابن الطحان (ابو الحسن محمد بن الحسن ق ٨ هـ) :

- حاوى الفنون وسلوة المحزون ، مخطوط بدار الكتب
المصرية تحت رقم ١٣٦٢ موسيقى وتوجد نسخة أخرى
مصورة ميكروفيلىم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية
تحت رقم ١٣ موسيقى .

٧ - طيفى الأثرى :

- كتاب بغية المرام وغاية الغرام فى الرمى بالنشاب ،
مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٣ فروسية (القرن
الثامن الهجرى) .

٨ - أبو العباس أحمد محمد إبراهيم :

- هداية الرامى الى طريق المرامى (فى علم الرمى
بالبنديق) مخطوط مصور ميكروفيلىم بمعهد مخطوطات جامعة
الدول العربية تحت رقم ٥١ فنون حربية ، وتمت كتابتها سنة
١٠٨٠ هـ ورقم ٧٦ فنون حربية بدار الكتب المصرية .

٩ - عبد الرحمن بن أحمد الطبرى :

- الواضح فى علم الرمى ، ضمن مخطوط مجموع فى
الفروسية والخيال والرمى تشتمل على رسائل ومنتخبات
هى :

العديم المثل الرفيع القدر ، لم يعلم مؤلفه ، منتخبات
مختلفة فى الرمى والفروسية وأدوات القتال ، تمت
كتابتها سنة ٨٧١ هـ .

١٠ - العينى (بدر الدين محمود بن أحمد ت ٨٥٥ هـ)

- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب
المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ وقد حقق منه د .
عبد الرازق القرموط ما بين سنة ٨١٥ هـ وسنة
٨٥٠ هـ على مرحلتين نشر بعضها لأول مرة سنة ١٩٨٥ .

١١ - القاسم بن على الزينى :

- كتاب القوانين السلطانية فى الصيد مخطوط مصور
ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية تحت
رقم ٤١ فنون حربية .

١٢ - المشهدى (محمد بن على بن أحمد بن عبد الرحمن المشهدى
ق ٩ هـ) :

- كشف الهموم والكرب فى شرح آلة الطرب مخطوط مصور
ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية تحت
رقم ٣٨ موسيقى وتوجد نسخة أخرى منه بالمكتبة
الازهرية برقم ٧٣٠٨ وهى خالية من اللوحات
والصور بعكس الأولى .

١٣ - أبو المظفر بن سعيد المعروف بالملجلج :

- كتاب الشطرنج ، مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم ١ موسيقى .

١٤ - محمد بن علي الصغير :

- رمي الشباب ، مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية تاريخ النسخ ٨٢١ هـ تحت رقم ٢١ فنون حربية .

(ب) المصادر العربية المطبوعة

١٥ - ابن الاخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي ت ٧٢٩ هـ) :

- معالم القرية في أحكام الحسبة ، القاهرة ١٩٤٩ تحقيق د . محمد محمد شعبان ، وصديق أحمد عيسى .

١٦ - الادفوى (كمال الدين جعفر بن ثعلب ت ٧٤٨ هـ)

- الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد ، القاهرة ، ١٩٦٦ تحقيق سعد محمد حسن .

١٧ - ابن اياس (محمد بن أحمد بن اياس المصري . ت ٩٣٠ هـ)

- بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤ أجزاء تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٣ ، ١٩٨٢ ، ج ٣ ط بيروت .

- المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور كتاب الشعب ، القاهرة ١٩٦٠ .

١٨ - بدر الدين أبو عبد الله الحنبلي . ت ٧٧٧ هـ :

- مختصر الفتاوى لابن تيمية .

- ١٩ - ابن بطوطة (محمد بن عبد الله الطنجي • ت ٧٧٩ هـ)
 - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ج ١
 ج ٢ القاهرة ، ١٩٦٤ طبعة دار الكتاب اللبناني •
- ٢٠ - ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف •
 ت ٨٧٤ هـ)
 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة • القاهرة
 ١٩٣٨ ، ١٩٧٠ •
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ج ١ ، القاهرة
 ١٩٥٦ •
- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور •
- ٢١ - ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد جبير الكناشي
 الأندلسي)
 - رحلة ابن جبير ، تحقيق د • حسين نصار القاهرة
 ١٩٥٥ •
- ٢٢ - ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري
 الفاسي • ت ٧٣٧ هـ)
 - المدخل إلى الشرع الشريف ، ٤ أجزاء القاهرة ١٣٤٨ هـ •
- ٢٣ - ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب) :
 - تذكرة النبیه فی أيام المنصور وبنیه ، القاهرة ١٩٨٢
 تحقيق محمد محمد أمين •
- ٢٤ - ابن حجر (الحافظ بن حجر العسقلاني • ت ٨٥٢ هـ) :
 - انباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق حسن حبشي • القاهرة
 ١٩٧٢ •

- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة نشر وتصحيح سالم الكرنكوى الالمانى طبعة بيروت (بدون) .
- ٢٥ – ابن الحسين (ابو عبد الله الحسن بن الحسين) :
– كتاب البيزرة ، تحقيق محمد كرد على دمشق ١٩٥٣ .
- ٢٦ – الخطيب الجوهري (ابن داود الصيرفي) :
– نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ج ٣ القاهرة ١٩٧٣ .
- انباء الهصر بانباء العصر ، تحقيق حسن حبشى .
القاهرة ١٩٧٠ .
- ٢٧ – ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ هـ) :
– المقدمة ، ج ١ طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ١٩٦٦ تحقيق على عبد الواحد وفى القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ١٩٦٦ .
- ٢٨ – ابن دقماق (صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيمن العلائى ت ٨٠٩ هـ)
– الانتصار لواسطة عقد الأمصار . ج ٤ القاهرة ١٣٠٩ هـ
- ٢٩ – الراوندى :
– راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية نشره بالفارسية محمد اقبال وترجمه الى العربية ابراهيم أمين الشواربى واخرون القاهرة ١٩٦٠ .
- ٣٠ – ابن الزيات : (ت ٨١٤ هـ)
– الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ، بغداد .
- ٣١ – زيفر شتين ، تاريخ سلاطين المماليك (لم يعلم جامعه)
نشره زيفر شتين . ليدن سنة ١٩١٩ م .

- ٣٢ - السبكي (تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي ت ٧٧١ هـ) :
 - معيد النعم ومبيد النقم . ليدن سنة ١٩١٩ .
- ٣٣ - السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن ابي بكر عثمان السخاوى ت ٩٠٣ هـ)
 - المصوء اللامع فى اهل القرن التاسع ج ٥ . القاهرة ١٣٥٤ هـ
 - التبر المسبوك فى ذيل السلوك . القاهرة ١٣١٥ هـ .
- ٣٤ - السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١ هـ) :
 - حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة . القاهرة ١٣٢٧ هـ .
- ٣٥ - ابن شاکر الكتبى (محمد بن شاکر بن أحمد ت ٧٦٤ هـ) :
 - فوات الوفیات . بولاق . القاهرة ١٨٨١ .
- ٣٦ - ابو شامة المقدسى (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم ت ٦٦٥ هـ) :
 - كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين القاهرة ١٢٨٧ هـ .
- ٣٧ - الشوكانى (محمد بن على ت ١٢٥٠ هـ)
 - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . القاهرة ١٣٤٨ هـ .
- ٣٨ - الصفدى (صلاح الدين خليل بن ابيك الصفدى . ت ٧٦٤ هـ)
 - امرأء دمشق فى الاسلام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٥ .

- ٣٩ - ابن طولون (شمس الدين محمد بن طولون ت ٩٥٣ هـ)
 - مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان تاريخ مصر والشام ،
 تحقيق محمد مصطفى • القاهرة ١٩٦٤ •
- ٤٠ - ابن ظهيرة (غير معروف بالتحديد) :
 - الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، نشره
 مصطفى السقا ، وكامل المهندس القاهرة ١٩٦٩ •
- ٤١ - ابن عبد ربه (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه •
 ت ٣٢٧ هـ) :
 - العقد الفريد ج ١ القاهرة ١٩٤٩ ، ج ٧ القاهرة ١٩٥٣ •
- ٤٢ - ابن عبد الظاهر (محيى الدين ت ٦٩٢ هـ) :
 - تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور تحقيق
 د • كامل مراد القاهرة ١٩٦١ ، ١٩٧١ •
- ٤٣ - ابن المعاد (ابو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى
 ت ١٠٨٩ هـ) :
 - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب • القاهرة ١٣٥١ هـ •
- ٤٤ - العينى (بدر الدين محمود بن أحمد ت ٨٥٥ هـ) :
 - السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد • تحقيق فهم محمد
 شلتوت القاهرة ١٩٦٧ •
- عقد الجمان ، من سنة ٨١٥ - ٨٥٠ هـ نشر وتحقيق
 د • عبد الرازق قرموط • القاهرة ١٩٨٥ •
- ٤٥ - الغزولى (علاء الدين على بن عبد الله البهائى)
 - مطالع البدور فى منازل السرور ج ١ القاهرة ١٣٠٠ هـ •

- ٤٦ - أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل أبو الفدا • ت ٧٣٢ هـ) :
- المختصر في أخبار البشر ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ٤٧ - ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ) :
- تاريخ الدول والملوك مجلد ٩ بيروت ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ .
نشره د • قسطنطين رزيق •
- ٤٨ - ابن فضل الله العمري (شهاب الدين بن العمري ٧٤٩ هـ) :
- التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ١٣١٢ هـ
- مسالك الابصار في ممالك الأمصار - نشر أحمد زكي •
القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ •
- ٤٩ - القرمانى (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى) :
- أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ ، بغداد ١٢٨٢ هـ •
- ٥٠ - القلقشندي (شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي
ت ٨٢١ هـ) :
- صبح الاعشى في صناعة الانشاء القاهرة ١٩١٥ •
- ٥١ - ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي
بكر ت ٧٥١ هـ) :
- الفروسية ، دار التراث العربى ، بيروت لبنان •
- ٥٢ - ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير
ت ٧٧٤ هـ) :
- البداية والنهاية ، القاهرة •
- ٥٣ - المسعودي (علي بن الحسن بن علي ، ت ٣٤٦ هـ) :
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٤ بيروت لبنان
١٩٨٢ • ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد بيروت
١٩٧٣ •

٥٤ - المقرئى (تقى الدين احمد بن على ت ٨٤٥) :
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر د . مصطفى زيسادة
جزءى ١ و ٢ فى ستة أقسام . ونشر د . سعيد عاشور
جزءى ٣ و ٤ فى ستة أقسام أخرى . القاهرة ١٩٧٣ .
- الخطط : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار القاهرة
١٢٧٠ هـ) .

٥٥ - النواجى (شمس الدين محمد بن الحسن ت ٩٥٩ هـ) :
- حلبة الكميت . القاهرة . ١٢٢٩ هـ .

٥٦ - الخويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٨٣٣ هـ) .
- نهاية الارب فى فنون الادب الاجزاء المطبوعة القاهرة
١٣٤٩ .

٥٧ - ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموى
ت ٦٩٧ هـ) .
- مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب ، تحقيق د . جمال
الدين الشيال القاهرة .

٥٨ - ابن الوردى (عز الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ،
ت ٧٤٩ هـ)
- تكمة المختصر فى اخبار البشر القاهرة ١٢٨٥ هـ .

ثالثيا : المراجع العربية الحديثة :

٥٩ - ابراهيم حمادة (دكتور) :
خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال . القاهرة .

٦٠ - أحمد أمين أحمد :
قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية القاهرة .
١٩٥٣ .

- ٦١ - أحمد قيسور :
لعب العرب ، القاهرة ١٩٤٨ .
خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب ،
القاهرة ١٩٥٧ .
- ٦٢ - أحمد رشدي :
الأدب الشعري ، القاهرة ١٩٧١ .
- ٦٣ - أحمد شلبي (دكتور) :
موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ج ٥ ،
القاهرة ١٩٧٧ .
- ٦٤ - أحمد صادق :
الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي القاهرة
١٩٦٦ .
- ٦٥ - أحمد عبد الرازق (دكتور) :
وسائل التسلية عند المسلمين ، دراسات في الحضارة
الاسلامية مجلد ١ ، القاهرة ١٩٨٥ .
- ٦٦ - أحمد مختار العبادي (دكتور) :
دولة المماليك الاولى في مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩ .
- ٦٦ - أحمد نجم وآخر :
اصول الشطرنج . الاسكندرية ١٩٥١ .
- ٦٧ - السيد الباز العريني (دكتور) :
الفروسية في مصر ، في عصر سلاطين المماليك
رسالة دكتوراه القاهرة ١٩٥٥ .
- ٦٨ - السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :
تاريخ الاسكندرية وحضارتها ١٩٦١ .

- ٦٩ - ايتجهاوزن :
التصوير عند العرب ، ترجمة عيسى سليمان وطه
التكريتي ، بغداد ١٩٧٤ .
- ٧٠ - جورج زيدان :
تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ١ ،
٧١ - جمال الغيطانى :
ملاحم القاهرة فى ١٠٠٠ عام - كتاب الهلال القاهرة
١٩٨٣ .
- ٧٢ - حسن ابراهيم حسن (دكتور) :
تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ،
القاهرة ١٩٤٨ ، ١٩٦٤ .
- ٧٣ - حسن السندوبى :
تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى ج ١ القاهرة ١٩٤٨ .
- ٧٤ - حسين فرج زين العابدين :
صيد الوحوش ، القاهرة ١٩٧٠ .
- ٧٥ - سعد الخادم :
الدمى المتحركة عند العرب ، القاهرة ١٩٦٦ .
- ٧٦ - سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
الظاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٦٣ .
العصر المالىكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ .
المجتمع المصرى فى عهد سلاطين المماليك ، القاهرة
١٩٦٣ .
بحث عن نساء القاهرة فى عهد سلاطين المماليك الندوة
الدولية لتاريخ القاهرة ، وزارة الثقافة القاهرة ١٩٧١ .

- ٧٧ - سيدة الكاشف (دكتورة) :
مصر فى عهد الاخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ .
- ٧٨ - شوقي ضيف (دكتور) :
الفكاهة فى مصر ، القاهرة ١٩٨٥ .
الشعر والغناء فى المدينة ومكة . القاهرة ١٩٧٦ .
- ٧٩ - عبد الحميد يونس (دكتور) :
التراث الشعبى ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٨٠ - عبد الرحمن زكى (دكتور) :
القاهرة تاريخها وآثارها . القاهرة ١٩٦٦ .
- ٨١ - عبد السلام محمد هارون :
الميسر والأزلام ، القاهرة ١٩٥٣ .
- ٨٢ - عبد المنعم ماجد (دكتور) :
دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ج ٢ ، القاهرة
١٩٦٧ .
- ٨٣ - عبد الوهاب حمودة :
صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى . القاهرة
١٩٦٥ .
- ٨٤ - عبد الوهاب عزام (دكتور) :
مجالس السلطان الغورى ، القاهرة ١٩٤١ .
- ٨٥ - على ابراهيم ابوزيد (دكتور) :
تمثيلات خيال الظل ، القاهرة ١٩٨٢ .
- ٨٦ - على ابراهيم حسن (دكتور) :
دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر
محمد بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٨ .

- ٨٧ - على مبارك :
الخطط التوفيقية الجديدة ج١ ، القاهرة ١٩٦٩ .
- ٨٨ - عمر فروخ :
تاريخ الأدب العربى ، ج ٣ بيروت ١٩٧٩ .
- ٨٩ - عطاس عبد الملك خشبة :
تطور الشعر فى الغناء العربى ، سلسلة كتابك . القاهرة
١٩٧٧ .
- ٩٠ - فؤاد فرج :
القاهرة ج ٣ ، القاهرة ١٩٤٦ .
- ٩١ - فتحى عبد الهادى (دكتور) :
التراث الغنائى المصرى الفلكلور ، القاهرة ١٩٧٨ .
- ٩٢ - فيليب حتى :
تاريخ العرب مجلد ٢ ، ترجمة محمد مبروك نافع ،
القاهرة ١٩٥٢ .
- ٩٣ - فوزى محمد أمين (دكتور) :
المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى القاهرة
١٩٨٢ .
- ٩٤ - قاسم عبده قاسم (دكتور) :
دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى عصر سلاطين
المماليك ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٩٥ - محمد أحمد الحفنى (دكتور) :
محيط الفنون ، باب الموسيقى العربية من قبل الاسلام حتى
سيد درويش ، القاهرة .

٩٦ - محمد جمال الدين سرور (دكتور) :

- الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره
- دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، القاهرة ١٩٦٠

٩٦ب - محمد جميل بيهم :

- قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور ، بيروت ١٩٤٨

٩٧ - محمد حمدى المناوى :

- نهر النيل فى المكتبة العربية ، القاهرة ١٩٦٦

٩٨ - محمد عادل خطاب (دكتور) :

- الألعاب الريفيه
- النشاط الترويحي وبرامجه ، القاهرة ط١

٩٩ - محمد قنديل البقالى :

- الطرب فى العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٨٤
- الاوزان الموسيقية فى ازجال ابن سودون القاهرة ٧٦

١٠٠ - محمد محمود سامى :

- تاريخ الموسيقى والغناء العربى ، القاهرة ١٩٧١

١٠١ - محمد مصطفى :

- المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى - القرن التاسع الهجرى ، القاهرة ١٩٤٩

١٠٢ - محمود رزق سليم (دكتور) :

- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والادبى ، القاهرة ١٩٤٧

النيل فى عصر المماليك ، القاهرة ١٩٦٥

١٠٣ - مختار السويقي :

خيال الظل والعرائس فى العالم ، القاهرة .

١٠٤ - نبيل محمد عبد العزيز (دكتور) :

الطرب وآلاته فى عصر الأيوبيين والمماليك ، القاهرة
١٩٨٠ .

١٠٥ - نسيب الاختيار :

الفن الغنائى عند العرب ، بيروت ١٩٥٥ .

١٠٦ - نعمات أحمد فؤاد (دكتورة) :

الأدب والحضارة . سلسلة كتابك . القاهرة ١٩٨١ .

١٠٧ - يوسف القرضاوى (دكتور) :

الحلال والحرام فى الاسلام ، القاهرة .

١٠٨ - وزارة الثقافة :

القاهرة فى الف عام ٩٦٩ - ١٩٦٩ طبعة القاهرة
١٩٧١ .

ثالثا : المراجع الأجنبية :

١٠٩ - Ahmed Rbd ar-Raóiq, Deux jeux, ds. Annales
Islamologiques. XII (1974).

Lachsase au quépard d'apre's len sources arbaes et
Les oeuvres.

— E.L. Hamann, Z. M6, Band 91 Heft 2, — ١١٠
1937).

- F. Viré traité de L'art de volerie, (Kitabal — ١١١
— Bayza ré). Arabico, XII (1965).
- H.Y.R. Murray, A. History of chess. — ١١٢
Oxford, 1913.
- Lane — Poole, Cairo, London (1892). — ١١٣
- Ahist of Egypt in the middle ages London (1930).
- M. Mostafa, Miniature paintings in some — ١١٤
Mamlug Manuscépts, B1E, L 11, (1970 — 1971).

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
تمهيد	٧
الباب الأول : المجالس	١٧
الفصل الأول : مجالس العلم والوعظ والقصص	١٩
الفصل الثاني : مجالس الأدب والشعر	٥٥
الفصل الثالث : مجالس الشراب والطرب	١١١
الباب الثاني : الألعاب الرياضية	١٧٧
الفصل الأول : الفروسية والرماية . القبق	١٧٩
الفصل الثاني : الصيد والقنص — الرمي بالبندق	٢٠٩
الفصل الثالث : ألعاب الكرة — السباحة والألعاب الأخرى	٢٤١
الباب الثالث : الألعاب المنزلية أو الهادئة	٣٠٥
الفصل الأول : النرد والشطرنج	٣٠٧
الفصل الثاني : لعب الورق وألعاب الأطفال	٣١٧
الفصل الثالث : خيال الظل	٣٣١
الخاتمة	٣٥٩
ثبت المصادر والمراجع	٣٦٥

صدر من هذه السلسلة

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ،
د . عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - على ماهر :
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية فى العصور الوسطى
علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي ،
د . عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبرتي لازمة الحياة الفكرية ،
د . على بركات ، ١٩٨٧
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،
د . محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحة الصحافة الحزبية :
محمود فوزى ، ١٩٨٧
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى القاضى ، ١٩٨٧
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر النوير ،
د . نبيل راغب ، ١٩٨٨

- ١٣ - **الكنوبة والاستعمار المصري للسودان : رؤية تاريخية ،**
د . عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - **مصر في عصر الولاة ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
الطولونية ،**
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - **المستشرقون والتاريخ الاسلامي ،**
د . على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨
- ١٦ - **فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر :
دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢) ،**
د . حلمى احمد شلبى ، ١٩٨٨
- ١٧ - **القضاء التشرعى فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د . محمد نور فرحات ، ١٩٨٨
- ١٨ - **الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية ،**
د . على السيد محمود ، ١٩٨٨
- ١٩ - **مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،**
د . احمد محمود صابون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - **دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين
سميد زغلول وعبد الرحمن فهمى ،**
د . محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨
- ٢١ - **التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، د ١ ،**
د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٢ - **نظرات فى تاريخ مصر ،**
جمال بدوى ، ١٩٨٨
- ٢٣ - **التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى د ٢ ، امام
التصوف فى مصر : الشعرانى ،**
د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨

- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ،
د . نجوى كامل ، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى والغرب ،
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين : ترجمة : د . أحمد
عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د . سعيد اسماعيل على ، ١٩٨٩
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، د ١ ،
تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، د ٢ ،
تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٩ - مصر فى عصر الاخشيين ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
- ٣٠ - الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٩
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى لاقاضى ، ١٩٨٩
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، د ٢ ،
لمى المطيعى ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضاع
الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د . خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور
الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،
د . يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

- ٣٥ - أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠
- ٣٦ - المجتمع الإسلامى والغرب ، د ، ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د . أحمد عبد الرحيم
مصطفى ، ١٩٩٠
- ٣٧ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ،
د . سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعى في العصر
العثماني
د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠
- ٣٩ - قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ،
د . جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د . عبد المتعم الدسوقي الجميى ، ١٩٩٠
- ٤١ - محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د . رفعت السعيد ، ١٩٩١
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور ،
محمد شفيق غربل ، ط ٢ ، ١٩٩٠
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني ،
د . محمد عفيفى ، ١٩٩١
- ٤٥ - الحروب الصليبية ، د ١ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم د . حسن حبشى ،
١٩٩١

- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ - ١٩٥٧) ،
ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث ،
د . لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى ،
د . زبيدة عطا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ - ١٩٧٩) ،
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
د . سسهيرو اسكندر ١٩٩٣
- ٥١ - تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية ،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، فى أبريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن
الثامن عشر ،
د . الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من ديانة الماليك الجراكسة ،
د . محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢
- ٥٤ - الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ،
د . محمد عفيفى ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ٢ ،
تأليف : وليم الصورى : ترجمة وتعليق : د . حسن
حبشى ، ١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفى فى عصر محمد على : دراسة عن إقليم
المنوفية ،
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٢

- ٥٧ - مصر الاسلامية واهل الذمة ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢
- ٥٨ - احمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،
د . ابراهيم عبد الله المسلمي ، ١٩٩٣
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمهيد الى التاميم
(١٩٥٧ - ١٩٦١) ،
د . عبد السلام عبد الحليم عاير ، ١٩٩٣
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٣
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ح ٣ ،
لمعى المطيعي ، ١٩٩٣
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،
تأليف : د . سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ،
وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د .
عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٤ - مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء دراسة
وثائقية ،
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧)
سهام نصار ، ١٩٩٣
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي ،
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣
- ٦٧ - مساعي السلام العربية الاسرائيلية : الاصول التاريخية ،
(ابحاث الندوة التي اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس)

- الاعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، اعدھا للنشر :
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٨ - الحروب الصليبية ، د ٣ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة : وتعليق : د . حسن
حبشى ، ١٩٩٣
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١) ،
د . محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤
- ٧٠ - اهل النمة فى الاسلام ،
تأليف : ا . س ترتون ، ترجمة وتعليق : د حسن حبشى ،
ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د . عبد الرؤوف احمد
عمرو ، ١٩٩٤
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر
فى العصر الفاطمى (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ،
امينة أحمد امام ، ١٩٩٤
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د . رؤوف عباس حارث ، ١٩٩٤
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، د ١ ، فى العصر الفرعونى
د . سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤
- ٧٥ - اهل النمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الاول ،
د . سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥
- ٧٦ - دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الاحتلال
البريطانى) ،
د . سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥

- ٧٧ - الحروب الصليبية ، د ٤ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د حسن حبشى ، ١٩٩٤
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ - ١٨٩٩) ،
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥
- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دى بونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٥
- ٨٠ - قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوربي
(١٨٨٢ - ١٩٠٤) ،
د . السيد حسين جلال ، ١٩٩٥
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو
الى نصر أكتوبر ،
د . رمزي ميخائيل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة
الطولونية ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٣ - مذكراتى فى نصف قرن ، د ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتى فى نصف قرن ، د ٢ ، القسم الاول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢) ،
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٥
- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصادية
(١٨٤٠ - ١٩١٤) ،
د . أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

- ٨٧ - مذكرات اللورد كلايرن ، ١ هـ ، (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايغانز ، ترجمة وتحقيق : د . عبد الرؤوف
أحمد عمرو ، ١٩٩٥
- ٨٨ - التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥
- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني ،
د . عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥
- ٩٠ - دهالة غير المسلمين في الدولة الإسلامية ،
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٦
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)
ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،
د . نبيه ببوهى عبد الله ، ١٩٩٦
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
ج ٢ ،
د . سهير اسكندر ، ١٩٩٦
- ٩٥ - مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات
الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدّها للنشر د . عبد العظيم رمضان

- ٩٦ - عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من
القرن التاسع عشر ،
د . ايمان محمد عبد المنعم عامر
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د . محمد سيد محمد
- ٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليوناني -
الروماني) د ٢ ،
د . سمير يحيى الجمال
- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،
أ. د. عبد العزيز صالح ، أ. د. جمال مختار ،
أ. د. محمد ابراهيم بكر ، أ. د. ابراهيم نصحي ،
أ. د. فاروق القاضي ، أعدها للنشر : أ. د. عبد العظيم
رمضان
- ١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الفاتية ،
اللواء/ مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء/ عبد الحميد
كنافي ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور
- ١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢ ،
د . تيسير أبو عرجة
- ١٠٣ - رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره ،
د . على بركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢) ،
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد

- ١٠٥ - السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ - ١٩٨٧) ،
د . أحمد نارس عبد المنعم
- ١٠٦ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ، ٢ ،
د . سليمان صالح
- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية في العصر الحديث ،
تأليف : دليب هيرو ، ترجمة : عبد الحميد الجمال
- ١٠٨ - مصر للمصريين ، ٤ ،
سليم خليل النقاش
- ١٠٩ - مصر للمصريين ، ٥ ،
سليم خليل النقاش
- ١١٠ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
الملوك) ، ١ ،
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١١ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
الملوك) ، ٢ ،
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١٢ - اسماعيل باشا صدقي ،
د . محمد محمد الجوادى
- ١١٣ - الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري) ،
د . اسماعيل عز الدين
- ١١٤ - دراسات اجتماعية في تاريخ مصر ،
أحمد رشدى صالح

- ١١٥ - مذكراتي في نصف قرن ، د ٣ ،
أحمد شفيق باشا
- ١١٦ - أديب اسحق (عاشق الحرية) ،
علاء الدين وحيد
- ١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ - ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى
- ١١٨ - النظم المالية في مصر والمشام زمن سلاطين المماليك ،
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١٩ - النقابات في مصر الرومانية (دراسة وثائقية)
حسبى محمد أحمد يوسف
- ١٢٠ - يوميات من التاريخ المصرى الحديث (١٧٧٥ - ١٩٥٢)
لويس جرجس
- ١٢١ - الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤) ،
محمد عبد الحميد الحناوى
- ١٢٢ - مصر للمصريين د ٦ ،
سليم خليل النقاش
- ١٢٣ - السيد أحمد البدوى ،
د . سعيد عبد الفتاح عاشور
- ١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية في نصف قرن ،
د . محمد نعمان جلال
- ١٢٥ - مصر للمصريين د ٧ ،
سليم خليل النقاش
- ١٢٦ - مصر للمصريين د ٨ ،
سليم خليل النقاش

- ١٢٧ - مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ - ١٩٥٨) ،
ابراهيم محمد محمد ابراهيم
- ١٢٨ - معارك صحفية ،
جمال بدوى
- ١٢٩ - الدين العام (وأثره فى تطور الاقتصاد المصرى)
(١٨٧٦ - ١٩٤٣) ،
د . يحيى محمد محمود
- ١٣٠ - تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ - ١٩٩٧) ،
سمير فريد
- ١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ - ١٩٥٨)
جايل ماير
- ١٣٢ - دار الندوب السامى فى مصر د ١
د . ماجدة محمد محمود
- ١٣٣ - دار الندوب السامى فى مصر د ٢
د . ماجدة محمد محمود
- ١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى
لدارندلى
بقلم : عزت حسن أفندى الدارندلى
ترجمة : جمال سعيد عبد الفنى
- ١٣٥ - اليهود فى مصر المملوكية (فى ضوء وثائق الجيزة)
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د . محاسن محمد الوقاد
- ١٣٦ - أوراق يوسف صديق
تقديم : ١ . د عبد العظيم رمضان

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة

هذا الكتاب تحدث فيه الباحث عن ثلاثة أنواع من المجالس: مجالس العلم والوعظ والقصص، ومجالس الأدب والشعر، ومجالس الشراب والطرب.

أما عن الألعاب الرياضية فقد تحدث فيها عن ألعاب الفروسية والرماية، وتناول فيها لعبة رياضية مرتبطة بالفروسية تسمى لعبة القبق أو القباق، ومعناها بالتركية «القرعة العسلية»، وقد أطلق في العربية على الهدف الذى كان مستعملا فى لعب الرماية، والمعروف باسم «القبق» فى عصر المماليك.

كذلك تحدث عن الصيد والقنص، والرمى بالبندق، وهو الكرات الصغيرة من الحجارة أو الطين أو الرصاص أو الفضة أو الذهب، التى كانت تطلق بالمزاريق فى رمى الطيور، ومن هنا اسم البندقية الحديثة لنفس الغرض كسلاح لارى.

كذلك تناول الباحث فى هذا الباب ألعاب الكرة والسباحة وغير ذلك من الألعاب مثل سباق الخيل، والمصارعة، واللعب بالطيور، ورفع الأثقال الذى كان يطلق عليه اسم «المعالجة»، والملاكمة أو «اللكام»، والتحطيب، ومناقرة الديوك، وتناطح الكباش والثيران.

أما الباب الثالث، فتناول فيه الباحث ألعاب النرد والشطرنج ولعب الورق وألعاب الأطفال، وتناول فى فصل خاص ألعاب خيال الظل.